الدولة العباسية

قيامها وسقوطها

تأليف

د. حسن خليفة

تقديم ومراجعة

د. رشاد عبد العزيز

الكتاب: الدولة العباسية.. قيامها وسقوطها.

الكاتب: د. حسن خليفة

تقديم ومراجعة: د. رشاد عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر
خليفة ، حسن
الدولة العباسية.. قيامها وسقوطها/ د. حسن خليفة، تقديم ومراجعة/
د. رشاد عبد العزيز
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٤٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ١ – ٥١١ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠١٥٧ / ٢٠٢٢

الدولة العباسية
قيامها وسقوطها

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

الدولة العباسية أو العباسيون هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية، وقد استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة وطاردوا أبناءها حتى قضوا على أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس، وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال الحالية)، وبقيت في عقبه لسنة ١٠٢٩ م، وقد تأسست الدولة العباسية على يد المتحدرين من سلالة أصغر أعمام نبي الإسلام مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ، ألا وهو العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفُرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكُبرى، واحتفاظ العرب بها، وكذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية. كما نقل العباسيون عاصمة الدولة بعد نجاح ثورتهم، من دمشق، إلى الكوفة، ثم الأنبار قبل أن يقوموا بتشييد مدينة بغداد لتكون عاصمة لهم، والتي ازدهرت طيلة ثلاث قرون من الزمن، وأصبحت أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، ولكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل.

عرفت الدولة العباسية عصرها الذهبي خلال عهدي هارون الرشيد وابنه المأمون، إذ نشطت الحركة العلمية وازدهرت ترجمة كُتب العلوم الإغريقية والهندية والفهلوية إلى اللغة العربية على يد السريان والفرس والروم من أهالي الدولة العباسية، وعمل المسلمون على تطوير تلك العلوم وابتكروا عدة اختراعات مفيدة، كما ازدهرت الفلسفة الإسلامية واكتمل تدوين المذاهب الفقهية الكبرى: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية عند أهل السنة، والجعفرية والزيدية عند الشيعة، وبرزت الكثير

من الأعمال الأدبية والفنية مثل كتاب ألف ليلة وليلة وغيرها، وساهم أهل الكتاب من المسيحيين واليهود والصابئة بهذه النهضة الحضارية، وبرز منهم علماء وأدباء وفلاسفة كبار... كما تنوّعت الأسباب التي أدّت لانهيار الدولة العباسية، ومن أبرزها: بروز حركات شعوبية ودينية مُختلفة في هذا العصر، وقد أدّت النزعة الشعوبية إلى تفضيل الشعوب غير العربية على العرب، وقام جدل طويل بين طرفيّ النزاع، وانتصر لكل فريق أبناؤه.

وإلى جانب الشعوبية السياسية، تكوّنت فرق دينية مُتعددة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحُكام العبّاسيين هو «الخلافة» أو إمامة المسلمين. وكان لكل جماعة منهم مبادؤها الخاصة ونظامها الخاص وشعاراتها وطريقتها في الدعوة إلى هذه المبادئ الهادفة لتحقيق أهدافها في إقامة الحكم الذي تريد.

وجعلت هذه الفرق الناس طوائف وأحزابًا، وأصبحت المجتمعات العباسيّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة العبّاسية وساعد على تصدّع الوحدة العقائدية التي هي أساس الوحدة السياسية. ومن العوامل الداخلية التي شجعت على انتشار الحركات الانفصالية، اتساع رقعة الدولة العبّاسية، ذلك أن بُعد العاصمة والمسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزمن، جعلا الولاة في البلاد النائية يتجاوزون سلطاتهم ويستقلون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية والتي لم تكن تصل إلا بعد فوات الأوان.. ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية: حركة الأدراسة، وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة ١٢٥٨ م عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبناؤه. كما انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة

مُجددًا في سنة ١٢٦١ م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مُجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا، أما في الواقع فإن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكّام الفعليين للدولة.

وكان مُحيي الخلافة العباسية في القاهرة هو السلطان الظاهر بيبرس، الذي رغب بأن يكون الحاكم المُسلم الذي يُعيد الحياة إلى هذه الخِلافة على أن يكون مقرَّها القاهرة، لِيجعل منها سندًا لِلسلطنة المملوكيَّة التي كانت بِحاجةٍ ماسَّة إلى دعمٍ روحيٍّ يجعلها مهيبة الجانب، بِالرُغم من الانتصارات التي حققتها ضدَّ المغول، ولِيُحيط عرشه بِسياجٍ من الحماية الروحيَّة يقيه خطر الطامعين في مُلك مصر والشَّام، ويُبعد عنه كيد مُنافسيه من أُمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوُصُول إلى الحُكم عن طريق تدبير المُؤامرات، وكي يظهر بِمظهر حامي الخِلافة الإسلاميَّة.

ولذلك استدعى إلى القاهرة أمير عباسي هو أبو القاسم أحمد وبايعه وعلماء الديار المصرية بالخلافة، فقلد الخليفة بيبرس البلاد الإسلاميَّة وما ينضاف إليها، وما سيفتحهُ من بلادٍ في دار الحرب، وألبسهُ خُلعة السلطنة. ومُنذ ذلك الوقت عُرف كل سلطان مملوكي بـ«قسيم أمير المؤمنين». استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة ١٥١٩ م، وعندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان "سليم الأول"، فأصبح العثمانيون خُلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية.

نشأت عدد من الدول التي حكمتها السلالة العباسية بحكم موقعها ورمزيتها في العالم الإسلامي بعد زوال الدولة العباسية، وفي بعض الحالات قامت الإمارات العباسية قبل زوال خلافتها وإن كان بشكل مُستقل عنها، كما لم يطلب أحد من هؤلاء الأمراء الحق بالخلافة بعد زوال الخلافة العباسية نهائيًا عام ١٥١٧ م أو بعد إلغاء الخلافة عام ١٩٢٢ م.

ولا يزال إلى اليوم يعيش في مُختلف بقاع العالم الإسلامي عدد كبير من الأسر

التي تعود بأصلها للأسرة العباسية، ومنها بشكل أساسي في المملكة العربية السعودية واليمن وتركيا وإيران وبلاد الشام ومصر والسودان والهند وباكستان وأفغانستان وأوزباكستان، وعلى الرغم من انقراض آخر دولهم عام ١٩٦٧ م إلا أنه قد برز عدد من العباسيين في مواقع مُؤثرة بالعالم.

وهذا الكتاب قيم بتواريخه وقصصه التي تُلقي الضوء علي الدولة العثمانية التي امتد كيانها لبلدان كبيرة وعظيمة حتى أنها ملكت العالم أجمع.

د. رشاد عبد العزيز

المقدمة

قد عهد إليّ أن أقوم بتدريس منهج التاريخ لطلبة دار العلوم ، وبالتحديد تاريخ الدولة العباسية والدويلات التي تفرعت عنها، ورأيت أن أضع مذكرات موجزة فيها تتناسب مع وقت هؤلاء الطلاب، وتكون لهم مرجعًا يعتمدون عليه وهم يحصلونها، من غير أن يلجأوا إلى المطولات التاريخية التي وضعت قديمًا وحديثًا، والتي سردت حوادث تلك الدولة من بدء قيامها إلى دور انحلالها وسقوطها. ولقد وجدت الحاجة ماسة إلى إخراج هذه المذكرات كتيبًا إتمامًا للفائدة وتعميمًا للمنفعة، فاستعنت المولى القدير وتقدمت به إلى جمهور الطلاب ومن يعنون بالتاريخ الإسلامي، راجيًا منهم أن يغفروا لي ما عسى أن يكون قد وقع فيها من خطأ أو تقصير مرحبًا بكل نقد علمي صحيح.

هذا وقد استقيت معلوماتي من المصادر العربية والإفرنجية أذكر منها: تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري، وتاريخ الكامل لأبن الأثير، وبلوغ الأرب في أحوال العرب للألوسي، ومقدمة ابن خلدون، ووفيات الأعيان لأبن خلكان، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الشيخ مُحَمَّد الخضري بك، وتاريخ الخوارج للمرحوم الشيخ مُحَمَّد شريف، وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، وتاريخ الجمعيات السرية للأستاذ عبد الله عنان، وحماة الإسلام تأليف مُحَمَّد بك نجيب وعصر المأمون للدكتور فريد الرفاعي وتاريخ العرب لسيد أمير علي، والخلافة للسير وليم موير، وتاريخ الأدب عند العرب لنكلسون ومحاضرات الأدب للأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري، ونظام الأثينيين للدكتور طه حسين، وتاريخ الإغريق للمرحوم محمود فهمي، وتاريخ الإغريق تأليف بيوري، إلى غير ذلك من الجرائد اليومية والمجلات الدورية والمحاضرات العامة.

ويرى القارئ في نهاية هذا الموجز وصفًا مختصرًا لتاريخ عظمة أثينا واسبرطة، وانتقال الحضارة الإغريقية وعلومها إلى الدولة العباسية وهو ما نص عليه المنهج المذكور.

ولا يفوتني أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الثناء إلى زميلي الأستاذ أحمد يوسف نجاتي المدرس بدار العلوم لمراجعته العبارة العربية، وإلى زميلي الأستاذ الشيخ مُحَمَّد فخر الدين المدرس بدار العلوم لتفضله بعمل الخرائط التاريخية، وإلى باقي حضرات الزملاء الذين تفضلوا ومدوا إليّ يد المعاونة الصادقة، سائلا المولى القدير أن يجزيهم عنى خير الجزاء.

د.حسن خليفة

يناير سنة ١٩٣١

الباب الأول

تأسيس الدولة العباسية

تمهيد

١ - عصر الخلفاء الراشدين

بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر خلف رسول الله، وبعد مناظرات حادة جرت بين المهاجرين والأنصار، قر رأي الأكثرية على إسناد هذا المنصب الخطير إلى أبي بكر الصديق ﷺ فتولاه.

وظلت فئة قليلة من المسلمين على الرأي القائل بإسناده إلى عضو من أسرة بني هاشم ورشحت له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، على الرغم من وجود عمه العباس الذي كان في ذلك الوقت أسن بني هاشم، وكان علي يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد ابن عمه، وناصرته زوجه السيدة فاطمة الزهراء في وجهة نظره، فظل ممتنعًا عن مبايعة أبي بكر حتى توفيت زوجه ثم بايعه بيعة صحيحة على ملأ من الناس.

انقضى زمن أبي بكر وعند وفاته عهد بأمر المسلمين إلى عمر بن الخطاب فتولى الخلافة ولم ينازعه في أمرها أحد، وأدار شئون الدولة بعدل وحزم، وفتح الأمصار ونشر لواء الإسلام شرقًا وغربًا، وبعد حكم زاهر دام عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام مات متأثرًا بطعنة أبي لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة في شهر ذي الحجة سنة ٢٣هـ، وكان قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين بعد أن رشح لها وهو على فراش الموت واحدًا من ستة أشخاص قائلًا: "رأيت ألا أتحمل أمركم حيًا وميتًا، عليكم هؤلاء الرهط الذي قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة: علي وعثمان أبنا عبد مناف، وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام حواريه وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيد الله. فلتختاروا منهم

رجلًا، فإذا ولوا واليًا فأحسنوا مؤزراته وأعينوه، وإن ائتمن أحد منكم فليؤد أمانته".

وجمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة وطرح عليهم الأمر، فتناظروا وكثر الكلام بينهم، وانتخب عثمان بن عفان وعدل عن علي، وأقبل الناس يبايعون عثمان، وبايعته علي وكان ذلك في أوائل المحرم سنة ٢٤هـ.

تولى عثمان بن عفان الأمر، فدب دبيب الخلاف بين المسلمين وغرست بذور الفتنة بينهم، ورأى أنصار على أن صاحبهم كان أحق بالخلافة منه، وظلوا يترقبون الفرصة حتى يصلوا إلى مأربهم عاملين جهد الطاقة على استمالة جمهور المسلمين إلى نظريتهم، وفي السنة السادسة من خلافة عثمان قامت حركة عنيفة كان الغرض منها نقل الخلافة إلى علي، ونشط الدعاة في كل من الكوفة والبصرة والفسطاط يشوهون أعمال الخليفة وولاته ويرجفون في البلاد وينتشرون فيها الأباطيل، منتهزين فرصة لين الخليفة فاكتسبوا أنصار كثيرين، وأخذت عوامل السخط تزداد يومًا فيومًا حتى هب فريق من الناقمين وحاصروا الخليفة في داره لمدة اثنين وعشرين يومًا، ثم دخلوا عليه وقتلوه وهو يتلوا القرآن في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ.

كان قتل عثمان سببًا لتفاقم الخلاف بين المسلمين، إذا اتهم أنصاره وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان والسيدة عائشة أم المؤمنين عليا بممالأة الثوار وأمسكوا عن مبايعته، عندما قبل منصب الخلافة بعد تردد، ولم يستطع علي على الرغم من الجهود الكثيرة التي بذلها أن يبرئ نفسه من الشكوك التي حامت حوله من أن له يدًا في قتل عثمان، وعصفت بالبلاد ريح الثورة، وقامت الفتن في أنحاء الخلافة الإسلامية وتلتها الحروب الداخلية، وسارت الأمور من سيء إلى أسوأ، ولم يذق الخليفة الرابع للراحة طعمًا بل ولم تصف له الخلافة يومًا واحدًا، ثم هجم عليه أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم وضربه في رأسه بسيف مسموم وهو خارج للصلاة في صبح يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠هـ وغليك نبذة في أخبار الخوارج.

الخوارج:

قال المرحوم الأستاذ الشيخ مُحَّد شريف سليم ناظر دار العلوم سابقًا "إن الخوارج قوم من المسلمين في سيرة الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما ومن بعدهما من أمراء المؤمنين وولاة أمورهم ما لا يراه عامة المسلمين، ويزعمون أنها مخالفة للدين، فيخرجون من الجماعة ويتألبون عليهم، فيضطر أولوا الأمور إلى قتالهم خشية اضطراب الأمن وانتشار الفساد، ومن ذلك أطلق عليهم اسم الخوارج".

وكان بدء ظهورهم في خلافة علي عندما قامت الحروب الداخلية في الدولة الإسلامية بين الخليفة يعاضده أهل العراق، وبين معاوية ومن انضم إليه من الزعماء يعاضده أهل الشام، وبعد حروب شعواء بين الفريقين رضيا مبدأ التحكيم بينهما بعد موقعة صفين سنة ٣٧هأ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعري حكما لهم على كره شديد من عليٍّ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكما لهم، واجتمع الحكمان بحصن يسمى دومة الجندل بقرية من قرى الشام، وتفاوضا فيما يكون عليه أمر المسلمين، فخدع عمرو أبا موسى، واتفق معه على أن يخلع كل منهما صاحبه ليولي المسلمون من يختارونه، وتقدم أبو موسى وأعلن خلع علي، وقام عمرو وأعلن تثبيت معاوية، فاضطرب الناس، وانقسم أنصار علي إلى فريقين، فريق استمر يناصره وهذا هو فريق الشيعة التي سنتكلم عليها في موضع آخر، وفريق خرج عليه وحكم إذ قال طيف يحكم الرجال في أمر الله عز وجل. لا حكم إلا الله.

أخذ الخوارج بعد ذلك يظهرون الزراية علي على في التحكيم، ويقاطعونه في خطبة معلنين العداء له، وفي سنة ٤٠هـ اجتمعت طائفة منهم بمكة وتأمرون على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص زاعمين أنهم سبب اضطراب الأمة الإسلامية، ووقع اختيارهم على عبد الرحمن بن ملجم ليقتل عليا، والحجاج بن عبد الله الصريمي المعروف بالبرك ليقتل معاوية، وعمرو بن بكر التميمي ليقتل عمرو بن العاص، وأن يكون قتل الثلاثة في ليلة واحدة.

كثر عدد الخوارج بعد موت الإمام علي، وكانوا مصدر الثورات والاضطراب في عهد الدولة الأموية، وظلوا كتلة واحدة حتى سنة ٦٤هثم انقسموا إلى فرق كثيرة أشهرها خمس، وهي الأزارقة، والأباضية والصفرية، والنجدية، والبيهسية، وانتشرت في البلاد وانتشرت في البلاد والأقطار، وأخذ دعاتها ينشرون مذاهبها المختلفة، كما تراه مفصلًا في الملل والنحل للشهر ستاني والفرق بين الفرق للبغدادي وغيرهما، وازدادت شوكة الخوارج، ونجحوا في التغلب على قوات الحكومة، وظلوا يعيشون في الأرض فسادًا واستولوا على كرمان وولاية فارس، وهددوا البصرة في سنة ٦٥ هـ، فأجمع أهلها وأشرافها على اختيار المهلب بن أبي صفرة وإلى خراسان لمطاردتهم ومحاربتهم، فشمر عن ساعد الجد، وأخذ يضيق عليهم الخناق ويحاربهم بمختلف الوسائل الحربية والسياسية، واستمر على ذا المنوال حتى فرق شملهم وانتصر عليهم، وخلص العراق من شرهم، ولولاه لسقطت البصرة في أيديهم، ولذلك سميت بصرة المهلب.

جاء في كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين "وكان كلام الخوارج يدور حول تشريح أعمال الخلفاء وأنصارهم، والبحث يمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق، ومن يكون مؤمنًا ومن لا يكون، وقد وضعوا نظرية للخلافة وهي أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل أو يحكم، وليس بضروري أن يكون قرشيًا بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدًا حبشيًا، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين، ويجب أن يخضع خضوعًا تامًا لما أمر الله وإلا وجب عزله".

"وكان أكثر من اعتنق مبدأ الخوارج عربًا بدوًا، وانضم إليهم بعض الخوارج الموالي، إعجابًا برأيهم الديمقراطي في الخلافة، وقد اشتهر الخوارج بالتشدد في العبادة والانهماك فيها والإخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة يضاف إليها العربية الخالصة جعلت لهم أدبًا خاصًا يمتاز بالقوة شعرًا ونثرًا وقوة في السبك وفصاحة في الأسلوب".

مات الإمام عليٌ متأثرًا بجرحه بعد أن ضربه ابن ملجم بيومين وكان قد في الخلافة

أربع سنين ونحو تسعة أشهر، وبموته انقضى عصر الخلفاء الراشدين أو عصر الجمهورية الإسلامية كما يطلق عليه بعض المؤرخين، وبدأ عصر الحكم الملكي الوراثي وقامت الدولة الأموية.

٢ – عصر الدولة الأموية:

انتخب أهل الشام معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية ابن عبد شمس بن عبد مناف للخلافة بعد صدور حكم الحكمين، وظل جمهور المسلمين ما عدا الخوارج مواليًا لعليٍّ حتى قتل، فبايع جند العراق ابنة الحسن، ولكنه رأى من مصلحة المسلمين وتوحيدًا لكلمتهم أن ينزل عن الخلافة لمعاوية، وتفاوض معه في أمر التنازل، واشترط لنفسه ولأهله شروطًا ارتضاها، ثم بايعه في شهر ربيع الأول سنة ٤١هـ وترك أن الخلافة له، فغضب لذلك فريق الشيعة، وترقب الفرصة لإقامة أخيه الحسين خليفة على المسلمين. وكان معاوية ذا موهبة سياسية كبيرة، وذا عقل راجح ورأي صائب، استطاع بحسن تدبيره وبفضل حزمه وكثرة بذله أن يوطد دعائم ملكه، وأن يؤسس بين المسلمين حكمًا ملكيًا وراثيًا، واضعًا نصب عينيه الوصول إلى الغاية التي كان يطمح إليها، متخذًا لنفسه شعار سياسي الوقت الحاضر "الغاية تبرر الوسيلة". وفي عهده تقدمت الدولة الإسلامية تقدمًا إيجابيًا، وفتحت البلاد، وانتشر الإسلام انتشارًا عظيمًا، ومات في رجب سنة ٦٠هـ بعد حكم دام عشرين سنة في السنة الخامسة والسبعين من عمره، وكان قد فكر قبل موته بأربع سنوات أن يأخذ على الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد.

ومن الأسباب التي دفعته إلى القيام بهذه الخطوة الجريئة والأقدام على هذا الانقلاب الخطير الشأن، البعيد الأثر في النظام الحكومي الإسلامي. ما أجمله ابن خلدون في مقدمته إذ قال كما ورد في كتاب عصر المأمون "إن الذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها،

وعدل عن الفاضل إلى المفضول، حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء".

وقد أضاف السير وليم موير إلى هذه العوامل عوامل أخرى تتلخص في رغبة معاوية الأكيدة في قصر أمر الخلافة على أفراد أسرته، وفي خوفه من تفرقة كلمة المسلمين بعد موته، وقيام الحروب الأهلية مما يضعف مركز الدولة الإسلامية، ويطمع فيها أعداءها الخارجين من عجم روم الذين كانوا يتحفزون للإغارة عليها متى سنحت الفرصة المناسبة لهم.

لقد كان لهذا الانقلاب أثر كبير في توطيد ملك بني أمية، ولكنه "كان في نفسه سببًا يعتد من أسباب سقوط الدولة الأموية".

خلف يزيده أباه في الحكم وبايعه الناس، ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهالي المدينة، ومن بينهم الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، وكان أول عمل قام به يزيد بعد أن استوى على عرض الخلافة أن كتب إلى الوالي على المدينة من قبل أبيه وهو الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان أن يأخذ له البيعة ممن امتنعوا عن مبايعته، فصدع بالأمر كل من عبد الله بن عمر وابن عباس، وأما عبد الله بن الزبير والحسين فرفضا وخرجا إلى مكة ونزلا بها، ولما علم أهل الكوفة بانتقال الخلافة إلى يزيد عزموا على دعوة الحسين إلى مدينتهم لمبايعة الخلافة، واجتمعت الشيعة في منزل زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وكتبوا إلى الحسين يرجون قدومه، ونصح له أصدقاؤه بمكة أن يعتذر ويرفض الدعوة، لما كانوا يعلمونه من تردد الكوفيين وعدم ثباتهم.

ولكن ابن الزبير نصح له بالقبول حتى يتخلص منه وهو أكبر منافس له في أمر المطالبة بالخلافة.

قبل الحسين الدعوة، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى الكوفة ليمهد له الأمر، وأوصاه بتقوى الله وكتمان أمره، وعلم يزيد بخطوات مسلم فعزل وإلى الكوفة، وولى عليها عبيد الله بن زياد أمير البصرة، وكان رجلًا شديدًا، وحاكمًا مدبرًا فتغلب على مسلم وقتله وقتل معه صديقه هاني بن عروة المردى. وفي ٨ ذي الحجة سنة ٦٠هـ خرج الحسين ومعه أهله وأولاده طالبًا الكوفة، مخالفًا رأي مشيريه، ضاربًا بما توسلوا

به إليه عرض الحائط.

وقبل أن يصل إلى الكوفة بلغه خبر قتل مسلم، فكرر مشيروه نصائحهم، وطلبوا إليه العدول والرجوع إلى مكة، ولكن ألح بنو عقيل عليه بالاستمرار مطالبين بثأر أخيهم، ولما قرب من الكوفة قابله الحر بن يزيد التميمي ومعه جيش بلغ عدده ألف فارس ومنعه من التقدم، فاتجه الحسين نحو الشمال تاركًا الكوفة، وظل الحر يراقبه حتى أرسل بن زياد جيشًا لملاقاة الحسين وعلى رأسه عمر بن سعد بن أبي وقاص.

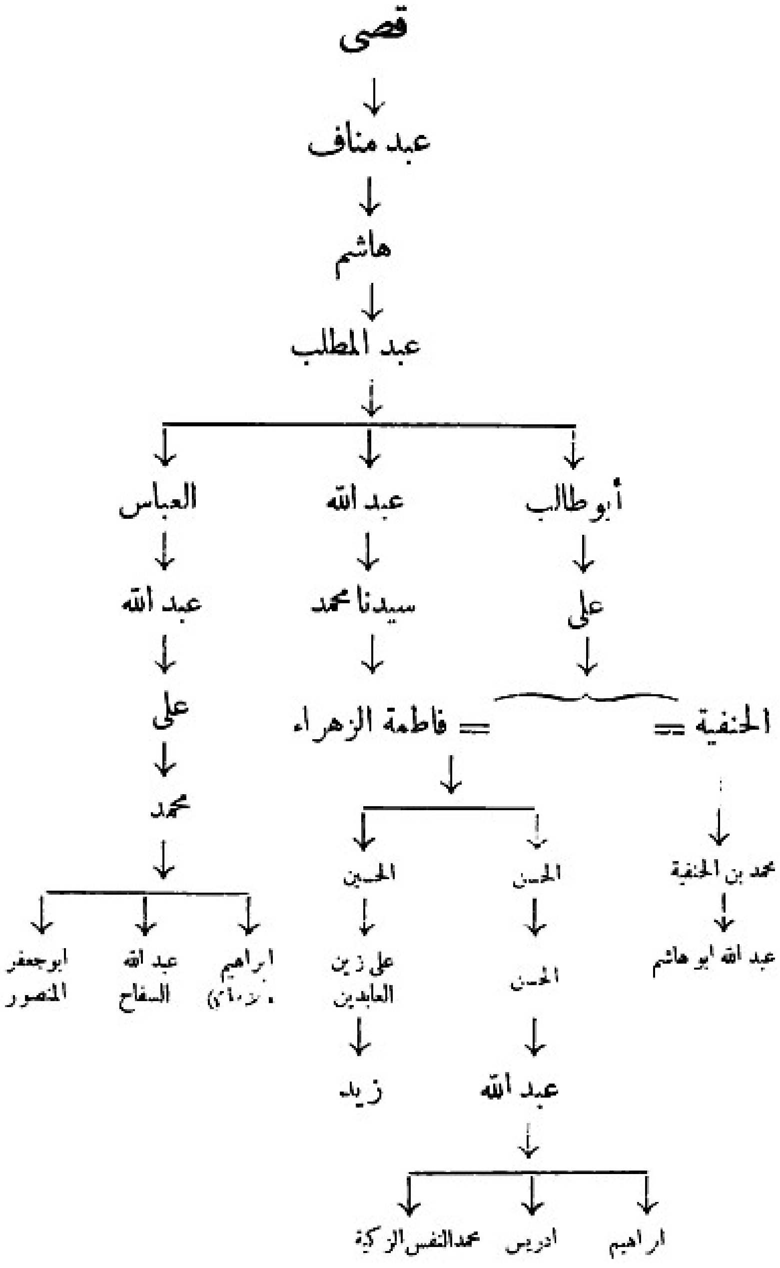
وضرب الحسين خيامه في سهل مدينة كربلاء على شاطئ الفرات وهي تبعد نحو خمسة وعشرين ميلًا عن الكوفة، ودخل الفريقان في مخابرات انتهت بالإخفاق، واضطر الحسين إلى القتال ولكنه غلب على أمره وقتل هو ومن معه قتلًا شنيعًا في ١٠ المحرم سنة ٦١هـ (١٦ أكتوبر سنة ٦٨٠هـ).

تخلص يزيد بقتل الحسين من منافس عنيد له، ولكن مأساة كربلاء كان لها رد فعل شديد في قلوب أهل الشيعة، وندموا ندمًا شديدًا لقعودهم عن نصرة الحسين، واستغل دعاتهم حوادث تلك المأساة، وبالغوا في سردها ونشروها بين أهل العراق وفارس والحجاز، فاكتسبوا أنصار كثيرين وأصبح للعلويين شأن خطير يهدد كيان الدولة الأموية، ويهز أركانها من أقصاها إلى أقصاها، إذ قامت الثورات العنيفة في أنحاء الخلافة الإسلامية وظلت الشغل الشاغل ليزيد وقواده وعماله حتى قضى نحبه في السنة الربعين من عمره في ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤هـ.

خلف يزيد ابنه معاوية الثاني وكان تقيًا تأثر بمأساة كربلاء، ومال بني هاشم، وأتبع معهم سياسة الرفق واللين، ولكنه مات بعد ثلاثة أشهر خلافته، وبموته انقرض فرع أبي سفيان بن حرب، وانقسم الأمويون على أنفسهم، وظهرت الأحزاب بين أفراد أسرتهم وفكر مروان بن الحكم زعيم أكبر حزب بينهم أن يبايع عبد الله بن الزبير الذي كان قد عظم أمره ودخل في دعوته أهل الحجاز والعراق وخراسان وفارس ومصر وكان له أعوان كثيرون في الشام نفسها، ولكن حدثت أمور خدمت مروان بتباطؤ عبد الله، واتفق زعماء

بني أمية ونادوا بمروان خليفة، وخرج لقتال ابن الزبير وانتصر عليه في معركة مرج راهط وهي تقع في الشمال الشرقي لدمشق وتبعد عنها بضعة أميال.

وكان من نتائج هذا الانتصار أن خضع الشام بأجمعه إلى مروان، ثم صار إلى مصر وفتحها أيضًا وبايعه أهلها، وكان يريد أن يتتبع أثر عبد الله بن الزبير، ولكن المنية عاجلته فمات في رمضان سنة ٦٥هـ،، ٦٨٥م بعد أن عهد بالخلافة لأبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز فأوجد بذلك النظام الثنائي في ولاية العهد، ذلك النظام الذي نشأ عنه انحلال الدولة الأموية كما سنتبينه من الحوادث الآتية، والآن نترك سيرة عبد الملك ونقول كلمة موجزة في شيعة بني هاشم.


قصى
عبد مناف
هاشم
عبد المطلب
أبو طالب
عبد الله
العباس
على
سيدنا محمد
عبد الله
الحنفية
فاطمة الزهراء
على
محمد
محمد بن الحنفية
الحسن
الحسين
ابراهيم
عبد الله السفاح
ابو جعفر المنصور
عبد الله ابو هاشم
الحسن
على زين العابدين
عبد الله
زيد
ابراهيم
ادريس
محمد النفس الزكية

٣ – الشيعة:

عرف الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ أن أهل البيت أحق بالخلافة بعده بالشيعة، لأن شيعة الرجل هم أصحابه وأتباعه، وكان العباس عم النبي وعلي ابن عمه أولى أهل البيت.

واجتمعت كلمة الشيعة على تفضيل الإمام علي كرم الله وجهه على العباس في أمر الخلافة، واعترف العباس نفسه بهذه الأولوية ولم يطالب بالخلافة.

مذهب الشيعة وفرقها:

يقول الشيعة إن الإمام أو الخليفة بعد النبي ﷺ هو سيدنا علي، وأنه في نظرهم أكبر معلم، إذ أنه قد ورث علوم الرسول، ويرون أنه ليس شخصًا عاديًا، بل يمتاز عن سائر الناس لأنه معصوم من الخطأ وأن الاعتراف بإمامته والطاعة له جزء من الإيمان، ويقولون إن الأئمة تتسلسل من بعده من نسله بترتيب من عند الله، وقد اختلفوا فيما بينهم اختلافًا كثيرًا في طريقة هذا التسلسل، ومن ثم تشعبت مذاهبهم وكثرت فرقهم مما لا محل لذكره هنا، بل نقتصر على ذكر فرقتين هما أهم الفرق وأكبرها شأنًا: وهما (فرقة الزيدية وفرقة الأمامية)، فالفرقة الأولى تتكون من أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن الإمام علي، ومذهب هذه الفرقة هو أعدل مذهب الشيعة وأقربها إلى السنة إذ "لا يؤمنون بالخرافات التي ألصقت بالإمام فجعلت له جزءًا إلهيًا". هذا وقد خرج زيد في خلافة هشام بن عبد الملك بتحريض أهل الكوفة مطالبًا بالخلافة، والتف حوله أنصار كثيرون، ولكن الجيوش الأموية طاردته وتغلبت عليه وشتت أنصاره وذلك لقعود أهل الكوفة عن نصرته وقت الخطر، وقبض عليه وقتل صلبًا في سنة ١٢١هـ وثار بعده ابنه يحيى ولكنه غلب على أمره أيضًا وقتل سنة ١٢٥ هـ.

وتفرق بعد ذلك أنصار هذا المذهب في طول البلاد وعرضها، ولا يزال كثيرون من أهل اليمن يعتنقونه حتى يومنا هذا.

أما الفرقة الثانية وهي الأمامية فقد قالت إن النبي ﷺ نص على خلافة علي، وأنها

تنتقل منه إلى من بعده، وفي رأي زعمائها أن أبا بكر وعمر كانا مغتصبين للخلافة، وقد طعنوا في إمامتهما وجعلوا الاعتراف بالإمام جزءًا من الإيمان، وقد انقسمت الأمامية إلى فرق صغيرة متعددة منها الفرقة الاثنا عشرية، وأطلق عليها هذا الاسم لأنها تجعل الأئمة اثنى عشر إمامًا وهم علي، والحسن، والحسين، وعلي زين العابدين، ومُحَمَّد الباقر وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومُحَمَّد التقى، وعلى التقى، وحسن العسكري، ومُحَمَّد المهدي، وينتشر مذهب هذه الفرقة في بلاد فارس وعقيدتها هي العقيدة الرسمية لدولة إيران إلى اليوم.

واشتهرت فرقة أخرى وهي الفرقة الإسماعيلية، وهي التي تقف بأئمتها عند إسماعيل بن جعفر الصادق، وجاء في وصفها ما ورد في كتاب فجر الإسلامصحيفة٣٢٥ "ووضع أتباعها لعم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدئ بإثارة الشكوك في الإسلام، كسؤالهم ما معنى رمي الجمار، وما العدو بين الصفا والمروة؟ وتنتهي بهدم الإسلام والتحلل من قيوده، وأولوا كل ما فيه، فقالوا أن الوحي ليس إلا صفاء النفس، وأن الشعائر الدينية ليست إلا للعامة، أما الخاصة فلا يلزمهم العمل بها، وأن الأنبياء هم سواس العامة، أما الخاصة فأنبياؤهم الفلاسفة، وليس هناك معنى للتماسك بحرفية القرآن، فهو رموز لأشياء يعرفها العارفون، إنما يجب أن يفهم القرآن على طريقة التأويل والمجاز، والقرآن ظاهر وباطن، ويجب أن نخترق الحجب المادية حتى نصل إلى أطهر ما يمكن من الروحانية، ومن ثم سمو أيضًا "الباطنية" وكان من آثار دعايتهم الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، ولا يزال لهم بقايا إلى اليوم في الشام والعجم والهند ورئيسهم الآن "أغاخان" الزعيم الهندي المشهور.

وتعتقد الأمامية على وجه العموم بعودة أمام منتظر، ولكنها تختلف في شخص الأمام باختلاف فرقها، فمنها من تنتظر جعفر الصادق ومنها من تنتظر مُحَمَّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

وهناك فرقة ثالثة تنتظر مُحَمَّد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب وتزعم أنه حي لم يمت، وأنه في جبل رضوى بالحجاز إلى أن يأذن الله له بالخروج، وأنه بين أسد ونمر

يحفظانه، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ويعود بعد الغيبة، فيملأ العالم عدلًا كما ملئ جورا، ويقول شاعرهم في هذا المعنى:

ألا أن الأئمـــــــة مــــن قـــريش ولاة الحـــــق أربعــــة ســـواء
علـــيٌ والثلاثـــــة مــــن بنيـــه هـــم الأســباط لـــيس بهـــم خفـــاء
فســـبط سبــــط إيمــــان وبــــر وســـبط غيبتــــــه كربــــلاء
وســـط لا يـــذوق المـــوت حـــتى يقـــود الخيـــل يقـــدمها اللــــواء
تغيـــب لا يـــرى فـــيهم زمانـــا برضـــوى عنـــده عســـل ومـــاء

وتعرف هذه الفرقة الثالثة بالفرقة الكيسانية نسبة إلى كيسان مولى مُحَمَّد بن الحنفية، وهو لقب للمختار بن أبي عبيد الثقفي الذي خرج بالكوفة بعد موت الحسين في كربلاء داعيًا إلى الإمام المهدي وهو مُحَمَّد بن الحنفية، وقد لاقت دعوته أذنًا صاغية بين أهل العراق، والتف حوله أنصار كثيرون، ولكن عبد الله بن الزبير أرسل إليه جيشًا بقيادة أخيه مصعب فتغلب عليه وقتله سنة ٧٦هـ ٦٨٦م، وبايع مُحَمَّد بن الحنفية عبد الملك بن مروان، وعلى الرغم من قيامه بهذه البيعة ظلت شيعته على الرأي بأنه أحق بالخلافة ولكنه مغلوب على أمره، ولما مات انتقل ولاؤها إلى ابنه عبد الله أبي هاشم.

الشيعة والأمويون:

كان خلفاء بني أمية في نظر الشيعة مغتصبين للخلافة ظالمين، ولذلك عملوا على مناهضتهم بجميع الوسائل العلنية والسرية، وأيدوا مذهبهم بتفسير الآيات القرآنية بما يتفق وعقيدتهم، ووضعوا الأحاديث الكثيرة ونسبوها إلى النبي ﷺ في فضائل عليٍ وفي المهدي المنتظر، ولذلك أخذ الأمويون وعمالهم يطاردونهم في كل قطر ومصر، واضطهدوهم اضطهادًا شديدًا، سجنوهم ونهبوا أموالهم، وقتلوهم وشردوا معهم أهل البيت، وما أعمال عبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وأسد بن عبد الله القسري إلا برهان ناطق على شناعة هذه الاضطهادات، وكان من جراء هذا الاضطهاد وتلك المطاردة أن مالوا إلى الدعوة السرية وأحكموا نظامها "وهذه السرية استلزمت الخداع والالتجاء إلى الـ موز

والتأويل"، وقد اصطبغ أدبهم بالحزن العميق والنوح والبكاء وذكرى المصائب والآلام.

أثر الشيعة في الإسلام:

جاء في كتاب فجر الإسلام صحيفة ٣٣٠ ما يأتي "والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادتشية وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته، كالذي كان في المغرب قبل انتقال الفاطميين إلى مصر –كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستار يخفون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقالت الشيعة إن النار محرمة على الشيعي ألا قليلًا، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا أيام معدودات، والنصرانية ظهرا في التشيع في قول بعضهم أن نسبة الإمام إلى الله كنيسة المسيح إليه.

وقالوا إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الأمام، وإن النبوة والرسالة لا تنقطع أبدًا فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله والحلول، ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل الإسلام.

وتستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، وما في نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم والسعي لاستقلالهم، قال المقريزي "وأعلن أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد، وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا تعاظمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحارب في أوقات شتى وفي كل ذلك يظهر الله الحق.. فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم عليٍّ، ثم سلكوا مسالك شتى حتى أخرجوهم من طريق الهدى".

٤ – انتقال الدعوة الشيعية إلى العباسيين:

مات مُحَمَّد بن الحنفية بن عليٍّ، فانتقل ولاء الفرقة الكيسانية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله، وكان من عادته أن يفد على الخلفاء الأمويين، ولما تقابل مع سليمان بن عبد الملك أحد هؤلاء الخلفاء (٩٦ – ٩٩) أكرمه وقضى حوائجه، ولكنه حقد عليه لفصاحته وخافه، فأمر أن يدس له السم في لبن في أثناء رجوعه من الشام فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله ذهب إلى الحميمة وهي قرية تقع في جنوب فلسطين، ونزل على بني عمه من العباسيين، وأوصى بحقه في الخلافة إلى أحدهم وهو علي بن عبد الله بن العباس، وهذا أوصى بها عند وفاته إلى ابنه مُحَمَّد العباسي وعرفه أسرار الدعوة، وبذلك انتقل الكيسانية من العلويين إلى العباسيين، ونشط هؤلاء العباسيون منتهزين تلك الفرصة الجليلة السانحة، وبذلوا جهد طاقتهم في رواج دعوتهم والوصول إلى منصب الخلافة، ونهض مُحَمَّد العباسي بالدعوة الشيعية نهضة قوية، وكان ذا نظر ثاقب، وعقل سليم، وإليه يرجع الفضل في تنظيم صفوف الشيعة تنظيمًا محكمًا أدى إلى النجاح المنشود، وهو صاحب فكرة الدعوة السرية، إذ عين للشيعة نقباء ودعاة وأوصاهم ببث الدعوة سرًا، وبالتظاهر بها لآل البيت عامة من غي تعين فرد حتى لا يفتك به الأمويون، وكانت طريقة حكيمة أنتجت ثمرتها المطلوبة.

وانتشر النقباء، وعددهم اثنا عشر نقيبًا ومعهم الدعاة وعددهم سبعون رجلًا في مختلف الأقطار والأمصار، ينشرون دعوتهم، وينفذون خططهم، مسترشدين في عملهم بكتاب مُحَمَّد العباسي لهم، ويدل هذا الكتاب كما جاء في عصر المأمون (صحيفة ٨٣ المجلد الأول) على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره، وبعد بأخلاق الشعوب التي كانت خاضعة للسلطان الإسلامي، وبما كانت تجيش به النفوس في كل صقع وحاضره، وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباهم للدعوة العباسية، قد كتب الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر. ومما قاله هذا الزعيم في كتابه: "أما الكوفة وسوادها فشيعة عليٍّ وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول: كن عبد

الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون ألا آل أبي سفيان، وطاعة بني مروان، وعدوان راسخة وجهلًا متراكمًا. وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فأن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان، وأجسام، ومناكب، وكواهل، وهامات، ولحي وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة... وبعد فأني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصالح الخلق".

ابتدأت الدعوة السرية في خلافة عمر بن عبد العزيز وكان عادلًا ومتسامحًا مع أهل البيت، وجعل الشيعة لدعوتهم مركزين أحدهما بالكوفة التي اعتبرت نقطة الاتصال، وأقام فيها بأمر الدعوة ميسرة مولى علي بن عبد الله العباسي وأما المركز الثاني فكان بخراسان وهي محل الدعوة الحقيقي، وتولى الدعوة فيها مُحَمَّد بن خنيس وأبو عكرمة السراج. يقول المرحوم الخضري بك صحيفة ١٦ "أما الكوفة فهي مهد التشيع لأهل البيت من قديم، فيمكنهم أن يأووا إليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان سهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين: الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراساني من المسلمين بسهولة، لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي ﷺ صاحب الرسالة وسيد الأمة، وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذي يتوارثه أهل بيته، ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك ألا أن كان ذلك عن اختلاس — الثاني أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين، ولذلك فائدة كبيرة في حياة النفوس، وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد، فكان العنصر العربي بينهم هو صاحب الكلمة العليا، والنفوذ السائد، ولا يتولى من ليس منهم شيئًا من الولايات العامة، فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة، كي يكون طرفها فيها حظ أحسن من حظهم في دولة بني أمية".

جاب الدعوة البلاد في أوائل القرن الثاني للهجرة يزاولون التجارة ظاهرًا، وينشرون

الدعوة سرًا، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعون الناس إلى مناصرتهم بشتى الأساليب، وظلوا كذلك نحو سبعة وعشرين عامًا، وكان ولاة الأمويين في خراسان يطاردونهم متى ظهر أمرهم مطاردة شنيعة من تعذيب وتقتيل، فأن أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان كان يقطع أيدي كم ظفر به منهم وأرجلهم وكان يصلبهم، وهو من أشد ولاة خراسان قسوة ولكنهم مضوا في دعواهم على الرغم مما لا قوة من التنكيل ومما صادفهم من النكبات. وفي سنة ١٠٥هـ أنضم إلى الشيعة بكير بن ماهان وكان رجلًا قويًا ثريا وخلف ميسرة نقبل الشيعة في الكوفة بعد موته، فقاد الدعوة خير القيادة، يأتمر الدعاة بأمره، ويسيرون في الطريق التي يرسمها لهم.

٥ – انحلال الدولة الأموية وسقوطها:

ظلت الدولة الأموية مهيبة الجانب، ثابتة الدعائم في أيامها الأولى بفضل حزم معاوية بن أبي سفيان وحسن تدبيره للأمور، واستمرت كذلك في عهد ابنه يزيد الأول، ولكن البيت الأموي انقسم على نفسه بعد ذلك وجرى الخلفاء الأمويون على سنة النظام الثنائي لولاية العهد، فكان هذا النظام شرًا مستطيرًا، وعاملًا كبيرًا من عوامل الضعف، إذ كان لكل ولي عهد حزب يناصره، وبطانة تنشر دعوته "وربما تطرف في منهجها السياسي تطرفًا يبث العداوة في القلوب، ويستثير السخائم في النفوس"، فقد خرج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان علي ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الذي تولى الخلافة بعد أخيه هشام، ونسب إليه الفسق والكفر وإحلال ما حرم الله، وقدح فيه علانية وساعده في ذلك أنصاره، ولما تغلب عليه وتولى العرش وقع فيما وقع فيع من سبقه من الخلفاء، واضطربت الأحوال في الدولة في الدولة اضطرابًا شديدًا وانتشرت الفتن وقامت الحروب الأهلية، إذ قام أهل حمص يأخذون بثأر الوليد ممن قتله، وحذا أهل فلسطين حذوهم، وطردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك، وكذلك قامت الفتنة في ولاية الأردن وفي العراق وخراسان، وتقلص نفوذ الخليفة بين أهل تلك البلاد، وخرج عن طاعته نصر بين يسار وإلى خراسان، ولم تطل مدة خلافته وتوفى في ٢٠ ذي

الحجة سنة ١٢٦هـ، بعد حكم قصير دام خمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا، وكان قد عهد بولاية العهد من بعده لأخيه إبراهيم ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك.

تولى إبراهيم الملك ولم يستقم له الأمر ولم يبايعه إلا أهل دمشق، وظل حاكمًا غير معترف به إلا من فئة قليلة نحو ثلاثة أو أربعة شهور وسبب ذلك خروج مروان بن مُحَمَّد ب مروان بن الحكم عليه وكان واليًا على أرمينية والجزيرة، وحاربه وتغلب على القوات التي أرسلت لإخضاعه، وزحفت على دمشق وداخلها منتصرًا، وأخذ على الناس البيعة لنفسه، واعتلى عرش الخلافة في صفر سنة ١٢٧هـ ديسمبر سنة ٧٤٤م وهو آخر الخلفاء الأمويين وعلى يديه سقطت الخلافة الأموية، وكانت مدته كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات، إذ خرج عليه الولاة في جميع أنحاء الدولة، واشتدت دعوة الشيعة في كل مكان، فخرج عليه عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب في الكوفة، وثار في وجهه أهل حمص وأهل فلسطين، وخرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، ونشطت بقايا الخوارج وثار زعيمهم الضحاك بن قيس الشيباني، واستولى على الكوفة عنوة بعد أن طرد حاكمها الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، ثم زحف على الموصل وافتتحها، وانتشرت الفتنة في بلاد الحجاز أيضًا، واشتغل مروان بإخماد تلك الفتن والثورات طول أيام حكمه، وأرسل قواده لإخمادها ومطاردة الثوار وانتصر على كثير منهم، ولكنه لم يوجه العناية الكاملة لما كان يجري في خراسان، فوجدت الشيعة فيها بيئة صالحة لنشر دعواها، واستطاع دعاتها وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني أن ينتزعوها من الأمويين مستعينين بالعصبية القومية، ومنتهزين انشقاق القبائل العربية، ومنها خرجوا إلى العراق واستولوا عليه، وأعلنوا الدعوة لبني العباس. وفي هذا الموضوع، قال الدكتور فريد الرفاعي صحيفة ٧٥ المجلد الأول "والعصبية العربية التي كانت من الأسباب التي اضمحل لها سلطان بني أمية قديمة في القبائل العربية: كانت الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تضيق وتتسع بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعة ومضر وهي قبائل عدنانية، ونراها بين بني أمية وهاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها، وكانت هذه العصبيات

تشتد حينًا وتفتر حينًا. فلما جاء الإسلام، ودخل الناس فيه أفواجًا، وتم له السلطان في جزيرة العرب ألف بين القبائل وأزال ما في صدورهم من أحقاد.. وأزال كل أثر للعصبية القديمة في نفوسهم وبقى أمر العرب كذلك إلى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة إلى عوامل شديدة الأثر في نفوسهم كهيمنة الروح الدينية عليهم وكاشتغالهم بالفتح، وما استتبع الفتح من غنائم، وكحزن الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاة وقسوقم. فلما كان العصر الأموي، واستقر الناس في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح، راجعتهم الشنشنة القديمة "فأخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لآبائهم من مجد في الجاهلية وبلاء في الإسلام، وما لقبائلهم من قوة وأيد.".

الشيعة وأبو مسلم بخراسان:

تولى أمر خراسان في عهد هشام الثاني نصر بن سيار وكان ينتسب إلى كنانة ومضر، وكان الوالي قبله هو عبد الله القسري وهو يماني فكان ضلعه مع قومه وأهل عشيرته وقدمهم على غيرهم من وجوه العرب، فلما جاء نصر إلى تلك البلاد أعرض عن هؤلاء وحابي عشيرته وقدمهم أيضًا على غيرهم، فحدث الانشقاق بين النزارية الذين يؤيدهم الوالي وبين اليمانيين وكان كبيرهم إذ ذاك هو جديع بن شبيب المعروف بالكرماني، ثم انشقت النزارية على نفسها فكانت ربيعة في جانب، ومضر في جانب آخر، وقد نشأ عن هذا الانشقاق أن قامت الحرب بين نصر والكرماني، وانتصر الكرماني على نصر وطرده من مدينة مرو حاضرة خراسان، وهدم اليمانيون منازل المضرية وأصبحوا أعداء الحكم الأموي، وهم الذين ناصروا الدعوة الشيعية في تلك البلاد وكانوا العضد الأيمن لأبي مسلم الخراساني.

توف مُحَمَّد بن علي العباسي أمام الشيعة في سنة ١٢٥هـ ٧٤٣م وأوصى بالإمامة من بعده لابنه إبراهيم، وفي ذلك الوقت توفى أيضًا بكير ابن ماهان، فأقام إبراهيم مكانه حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال وكان صهرًا لبكير، وذا منزلة رفيعة بين الكوفيين، فاستطاع نفوذه أن يكون عونًا ثمينًا وسندًا قويًا للشيعة.

كان إبراهيم الإمام موفقًا حقًا في اختياره لأبي مسلم للقيام بالدعوة له ولآل بيته في خراسان، فقد كان شابًا نابهًا امتاز بالدهاء، وسعة الحيلة، حازمًا وسياسيًا ماهرًا قدير أتبع مع خصومه ومنافسيه القاعدة السياسية "فرق تسد" فنجح نجاحًا باهرًا وأقام صرح الدولة العباسية في المشرق.

هذا وقد اختلف المؤرخون في نسبه فقال بعضهم إنه عربي وقال آخرون إنه فارسي، وذهب بعضهم إلى أنه كردي، وقد قال هو عن نفسه وكفاك خيري عن نسبي"، ويقول السير وليم موير في هذا "غن أصل هذا البطل على حداثة سنه غير معروف، ولكن من المؤكد أنه ليس عربيًا، وقد يكون أصله مولى لأحد وجوه العرب، اتصل ببكير بن ماهان ومنه تلقى أصول التشيع، وفي سنة ١٢٥هـ اتصل بمحمد بن عبد الله العباسي ودخل في خدمة الأسرة وتفاني في الإخلاص لها ونشر دعوتها".

وجهه إبراهيم أمام إلى خراسان سنة ١٢٧هـ في وفد من وجوهها بعد أن خطيهم حاثا لهم على أتباعه والائتمار بأمره قائلًا: "إني قد رأيت أن أولي الأمر هناك أبا مسلم لما جريت من عقله وبلوت من أمانته، وأنا موجهه معكم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد رجوت أن يكون هذا الذي يسوق لنا الملك فعاونوه وكاتفوه وانتهوا إلى رأيه"، ثم أوصى أبا مسلم وصية ثمينة قال فيها:

"يا عبد الرحمن أنك رجل منا أهل البيت فأحفظ وصيتي. وأنظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فأن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وأنظر هذا الحي من ربيعة فأتهمهم في أمرهم، وانظر هذا الحي من مضر فأنهم العدو القريب الدار، فأقتل من شككت فيه، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع في نفسك منه شيء. وأن استطعت ألا تدع بخراسان لسانًا عربيًا فأفعل، فأيما غلام بلغ خمسة أبشار تتهمه فأقتله، ولا تخالف هذا الشيخ (وهو سليمان بن كثير) ولا تعصه، وأن أشكل عليك أمر فأكتف به مني".

ويرى من هذه النصيحة مفتاح السياسة العباسية ومراميها في خراسان وما هي الأسس التي سار على وفقها أبو مسلم، إذ نفذ الوصية تنفيذًا دقيقًا ولم يحد عن العمل بها

قيد أنملة ومثل دور "فرق تسد" تمثيلًا محكمًا. وفي سنة ١٢٨هـ نزل أبو مسلم بخراسان، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها سفيدنج، وأعلن دعوته وهرع إليه الناس من كل حدب وصوت يلتفون حوله ويعاضدونه في دعواه، وفي شهر رمضان سنة ١٢٩ أعلن لبس السواد بين أنصاره واتخذه شعارًا للعباسيين، وكان اللون الأسود هو لون العلم الإسلامي في عهد النبي ﷺ، وأعلن الثورة على الأمويين، ولم ينتهي الشهر حتى اجتمع حوله قوات كافية استطاع بمعونتها أن يطلب إلى سليمان بن كثير الخزاعي كبير دعاة الشيعة أن يصلي بالناس صلاة عيد الفطر (١٥ يونيه سنة ٧٤٧م) متبعًا تقاليد تخالف تقاليد الأمويين في الصلاة، إذ بدأها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة.

كتب أبو مسلم بعد ذلك إلى نصر بن سيار يعلمه بخبره، ونجح في التفرقة بينه وبين رجاله، وانتقل هو وأنصار من قريته إلى قرية أخرى وهي المأخوان من قرى مرو وأحكم تحصينها، وبلغ أنصاره إذ ذاك على قول بعض المؤرخين سبعة آلاف رجل، ولما رأى نصر أن الأمر خطير أرسل يطلب النجدة من الخليفة محذرًا إياه سوء عاقة التواني قائلًا.

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جدث وهام
فإن النار بالعودين تذكي	وأن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقظ أمية أم نيام

لم ينهض مروان بقمع الفتنة وعي في مهدها بسبب اشتغاله بإخماد الثورات الأخرى كما تقدم، واستطاع أبو مسلم أن ينتزع البلاد بمساعدة قواده ورسله من نصر الواحدة تلو الأخرى، وفي جمادي الأول سنة ١٣٠هـ ترك مركزه في الماخوان غلى مرو عاصمة الأمارات بعد أن حرض أبن الكرماني (وكان أبوه قد قتل وهو يحارب نصرًا) على دخولها قبله والاشتباك بنصر، وانتهز فرصة القتال بين الفريقين ودخل المدينة وهو يتلو "ودخل المدينة على حين غفلة" إلى آخر الآية الشريفة، واحتل دار المارة وفر نصر هاربًا، فأرسل أحد قواده المسمى قحطبه بن شبيب وراءه يقتفي أثره فطارده من مدينة إلى أخرى حتى

مرض نصر ومات في ربيع سنة ١٣١هـ ودخل قحطبة مدينة الري.

بهذه الخطوات تم النصر لأبي مسلم واستولى على خراسان، ومنها بعث عمالة إلى جميع الولايات وأرسل قواده يمينًا ويسارًا وشمالًا وجنوبًا يفتحون البلاد وينتزعونها من حكام الأمويين، واستولى الحسن بن قحطبة على همذان، وفتح هو وأبوه نهاوند والموصل، ثم توغل قحطبة في بلاد العراق فقابله أبن هبيرة أميرها من قبل الأمويين قريبًا من الكوفة، وقبل أن يشتبك الفريقان في القتال نوفى قحطبة وتولى القيادة بعده أبنه الحسن، واستعر القتال ودارت دائرته علي أبي هبيرة فانسحب إلى مدينة واسط، ودخل الحسن الكوفة في المحرم سنة ١٣٢هـ وسلم الأمر لأبي سلمة الخلال المعروف بوزير آل مُحَّد متبعًا في ذلك نصيحة أبيه عند وفاته.

تسلم أبو سلمة الأمر وأرسل الحسن وراء ابن هبيرة بعد أن أمده بقوات جديدة وقواد مدربين ليلحق به بواسط، ثم أرسل قوات أخرى تفتح البلاد في سائر أنحاء العراق، وخرج هو بنفسه على رأس جيش صغير وعسكر عند حمام أعين "على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة".

مروان الثاني وإبراهيم الإمام:

كانت الشيعة تدعو إلى آل البيت من غير تعيين فرد حتى لا يفتك به الأمويون، وكان لا يعرف سر الدعوة إلا النقباء وزعماء الدعاة، ولما اشتدت الحركة، واتخذ الشيعة خطة الهجوم، وقع كتاب مرسل من إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم يأمره فيه بمضاعفة الجهود والفتك بالعرب في يد مروان، فعرف منه السر، وأرسل إلى عامله بالبلقاء أن يسير إلى الحميقة مقر الأسرة العباسية، ويقبض على إبراهيم ويسيره إليه. عرف إبراهيم مصيره فأوصى بالأمر إلى أخيه عبد الله العباسي وطلب إلى أسرته أن تترك مقرها إلى الكوفة. ولما تقابل إبراهيم مع مروان أمر بسجنه بحران، ولبث في السجن حتى مات موتة غامضة اختلف المؤرخون في وصفها.

أما أسرته فقد جاءت إلى الكوفة واستقبلها أبو سلمة، وأنزلها في إحدى دورها،

وكتم أمرها عن سائر القواد أربعين ليلة، ويقاول أنه حاول في أثنائها أن يغري أحد زعماء العلويين وهم جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر، وعبد الله بن حسن بن حسن، وعمر بن زين العابدين، بقبول الخلافة متخطيًا عبد الله أبي العباس، ولما عرف القواد ذلك أسرعوا إلى أبي العباس وسلموا عليه بالخلافة فسلم أيضًا عليها بها أبو سلمة.

قيام الدولة العباسية وسقوط مروان الثاني:

خرج أبو العباس عبد الله في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ٢٨ نوفمبر سنة ٧٤٩م ومعه أخوته وأقاربه وأكابر الشيعة من الدعاة والنقباء وأبو مسلم إلى الجامع الكبير، فصعد المنبر وألقى خطبة جاء فيها "يأهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم ينفعكم تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا، وقد زدتكم أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح" فلقب بالسفاح لذلك ولم يستطع بسبب مرضه إتمام خطبة العرش جلس على المنبر، وصعد عليه عمه داود بن علي العباسي وأكمل الخطبة مرتجلًا وكان بليغًا فصيح اللسان قوي الحجة، وقد سرد في خطبته نقائض الأمويين، واستدل على أحقية بني العباس للخلافة ومدح أهل خراسان، ووعد أهل الكوفة المكافأة الحسنة. وبعد أن تمت الخطبتان خرج السفاح إلى القصر وترك أخاه أبا جعفر بالمسجد ليأخذ له البيعة على الناس واستمر به حتى جن الليل.

خرج السفاح بعد ذلك إلى المعسكر حيث كان أبو سلمة بحمام أعين وترك عمه داود عاملًا على الكوفة، وكان مروان الخليفة الأموي يرابط بحران وحوله أنصار وجنود، وتخضع لسلطانه بلاد كثيرة، وكان قائده الكبير ابن هبيرة لا يزال متحصنًا ببلدة واسط، فأرسل السفاح عمه الثاني عبد الله بن علي القتال مروان، وأرسل جيشًا آخر بقيادة الحسن بن قحطبة للقضاء على ابن هبيرة، وذهب عمه وتسلم القيادة من أبي عون الذي كان قد انتصر على عبد الله بن مروان الأموي قبل ذلك في أغسطس سنة ٧٤٩هـ. خرج مروان من حران في جيش بلغ عدده مائة وعشرين ألف مقاتل وعبر الدجلة وتقدم

لمقاتلة أعدائه وعند فرع من فروعه يسمى نهر الزاب التقى الجيشان، وبعد معركة عنيفة انتصر عبد الله على مروان في ١١ جمادي الآخرة سنة ١٣٢ ﻫ ٢٥ يناير سنة ٧٥٠م.

خسر مروان المعركة بسبب تخاذل جند الشام، وفر من الميدان إلى حران، واقتفى عبد الله أثره فخرج منها إلى قنسرين ومنها إلى حمص ومنها إلى دمشق، وكان يحاول أن يجمع جيشًا جديدًا لصد أعدائه فلم يفلح، واستمر عبد الله يطارده حتى أتى دمشق ودخلها عنوة وقتل أميرها الأموي أما مروان فقد فر إلى الأردن ومنها ذهب إلى فلسطين وتركها إلى مصر، واستدعى السفاح عمه وأمره أن يعين صالح بن علي ليلحق بمروان ويقضي عليه، فاقتفى أثره وقابله في قرية بوصير على الضفة الغربية للنيل وهي قريبة من الواسطى وانتصر عليه وقتله في آخر سنة ١٣٢هـ وبموته مات آخر خلفاء بني أمية وماتت معه الدولة الأموية، وكان مروان من أشجع الخلفاء وأقدرهم. لم يبق بعد موته خارجًا على السفاح غير ابن هبيرة وكان متحصنًا بواسط كما سار وتقدم واسر إليه الحسن بن قحطبة وحاربه حربًا عوانًا، ولما طال أمر القتال أرسل الخليفة أخاه أبا جعفر في جيش آخر وضيق عليه الخناق، ولما بلغ ابن هبيرة خبر قتل مروان طلب الصلح، ودارت المخابرات بينه وبين أبي جعفر، واتفق الفريقان وسلم ابن هبيرة بعد أن حصل على عهد أمان من أبي جعفر ولكنه نقض عهده وقتله، وقتل معه عددًا من وجوه أصحابه، وبموته تم الأمر للسفاح وصفًا له الجو.

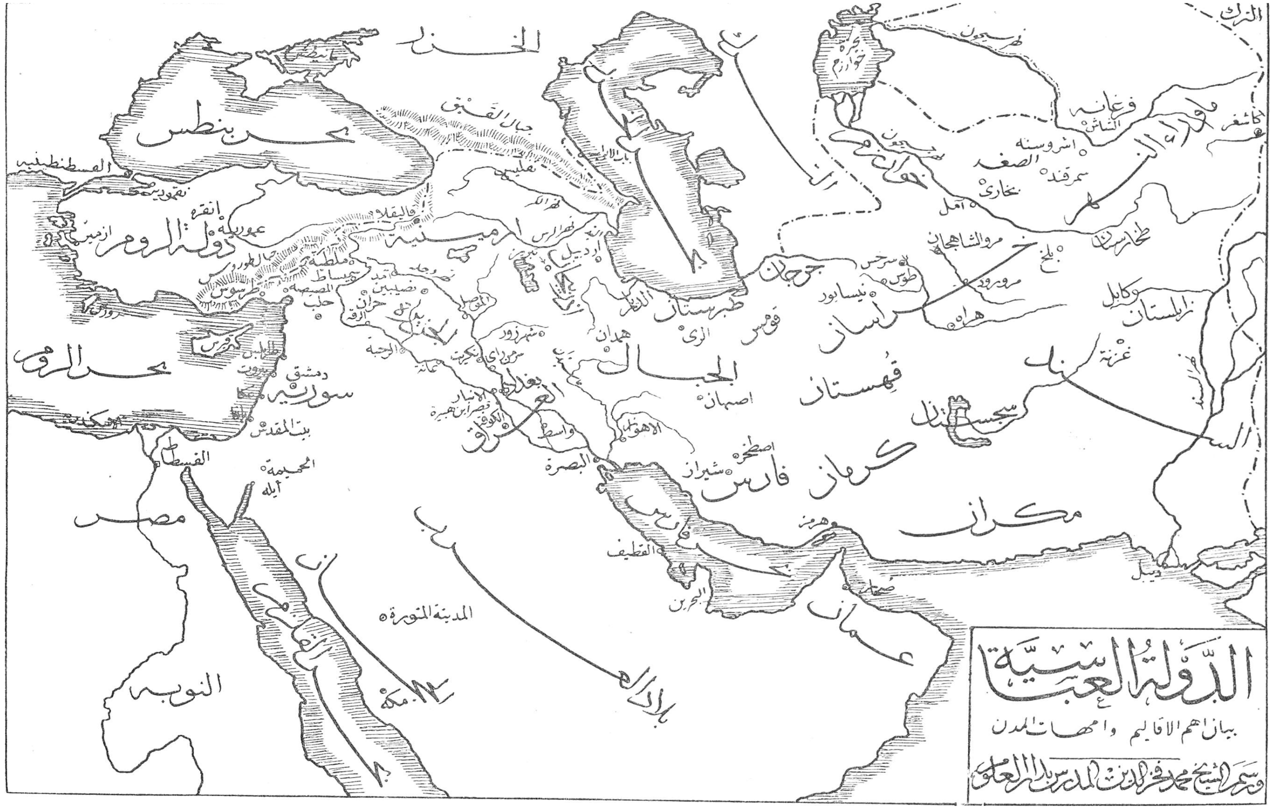
مميزات الدولة العباسية (١٣٢ – ٦٥٦ هـ - ٧٥٠ – ١٢٥٨م)

يقول السير وليم موير "إن الدولة الإسلامية امتازت في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين بتماسك أجزائها ومتانة وحدتها ولكنها لم تكن كذلك في عهد العباسيين إذ لم تعترف أسبانيا بسلطانها ولم تقر لها بسيادة. وكانت سلطتها في شمال أفريقيا اسمية أكثر منها فعلية. وأما في المشرق فقد كانت سلطتها قوية فيه. ولكن تناثرت أجزاؤها بعد عصر المعتصم، وظهر فيها حكام وأسر جديدة، وكان لكل منها تاريخ قائم بذاته منفصل عن غيره، ومع ذلك قد ظلت الدولة العباسية دولة الخلافة الإسلامية من بدء قيامها إلى

سقوطها".

فقد العرب في أيام الدولة العباسية صفاتهم الأولى مدنية كانت أو عسكرية تلك الصفات التي كانت سببًا في نشر الإسلام ورخاء الدولة الإسلامية، وانغمسوا في الترف وتعالوا على غيرهم من الشعوب، وتفرقوا إلى شيع وأحزاب، وأحيوا العصبيات القديمة وراعوا مصالحهم الذاتية وآثروها على المصلحة العامة، وقلت فيهم الغيرة الدينية ولم يبق لهم مطمح أن يكونوا فتاح العالم كما كانوًا قديمًا، وانصرف العباسيون عنهم إلى غيرهم من الأمم والشعوب من فرس وأتراك وقدموهم عليهم، وإلى الفرس والخراسانيين يرجع الفضل في أقامة الدولة العباسية، وما لبث أن اتخذ خلفاء العباسيين وزراءهم وقوادهم وحرسهم وبطانتهم من الفرس والترك والموالي وأهملوا العرب، وبذلك اختفت الارستقراطية القديمة وحلت محلها طبقة من الموظفين على رأسها الوزير الأكبر الذي كان يمثل الخليفة في المظاهر العامة، وظهر بجانب الوزير موظف آخر وهو السياف وهو مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة وكان غير معروف في عهد الدولة الأموية. ولعب المنجمون دورًا مهمًا وكان رأيهم الأعلى في شئون الدولة حتى في الحملات العسكرية. نقل العباسيون نظام البريد ورسله عن الفرس والبابليين، وكان هؤلاء الموظفون عيون الخليفة في كل إقليم وولاية من ولايات الدولة.

كان لنفوذ الفرس في الدولة العباسية أثر كبير في أخلاق العرب، وفي نشر الثقافة العامة، والتسامح الديني، والبحث العلمي الحر.



الدولة العباسية
بيان أهم الأقاليم وأمهات المدن
رسم الشيخ محمد فخر الدين المدرس بدار العلوم
بحر بنطس
دولة الروم
بحر الروم
الخزر
أرمينية
سورية
دمشق
بيت المقدس
الفسطاط
مصر
النوبة
المدينة المنورة
مكة
بلاد العرب
العراق
بغداد
البصرة
الجبال
همدان
أصبهان
الري
طبرستان
جرجان
قومس
نيسابور
خراسان
قهستان
سجستان
كرمان
فارس
شيراز
اصطخر
مكران
عمان
البحرين
القطيف
خوارزم
ما وراء النهر
الصغد
سمرقند
بخارى
فرغانة
الشاش
اشروسنة
طخارستان
بلخ
مرو الشاهجان
هراة
طوس
كابل
زابلستان
غزنة
السند
الترك

كانت الدولة العباسية دول عسف شديد وخيانة ونكث للعهود. قال الخضري بك "ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم. وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب في جاهليتهم، وفي بدء إسلامهم وفي فتوحهم، فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم".

وقال مؤرخ آخر "أعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر، وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة".

الباب الثاني

عصر السفاح والمنصور

١- أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢- ١٣٦ه) (٧٤٩-٧٥٤م)

وُلِدَ أبو العباس عبد الله بن مُحَمَّد بالحميمة، وهي مقر أسرته كما تقدم في سنة ١٠٤هـ، وتولى الحكم في سنة ١٣٢هـ، وقد قابلته المصاعب من كل جانب، وامتلأ زمنه بالثورات والاضطرابات، إذ كان لا يزال في الدولة الإسلامية قواد وولاة ضلعهم مع الأمويين.

وقامت الثورات في سورية والجزيرة، وكان أبن هبيرة لا يزال متحصنا في واسط، وأبي حاكم السند والهند أن يتعرف بخلافته، وهددت الدولة البوزنطية البلدان والثغور الإسلامية، فشمر أبو العباس عن ساعد الجد، ونهض ببأس شديد يكافح المصاعب ويغالبها حتى تغلب عليها، ووطد دعائم ملك أسرته بفضل ما استعمله من القسوة وما سفكه من الدماء.

وكان موفقا في استخدام عمال وولاة من أعمامه وبنيهم، وقد أخلصوا له الإخلاص كله، ونفذوا سياسيته تنفيذا محكما، وبهم طارد الأمويين ومن ناصرهم مطاردة أهلكتهم وفرقت عصبيتهم، وأراحت العباسيين من شر انتفاضهم، ولقد كان سفاكا للدماء، ناكثا للعهود، غادرًا، فأنتقده المؤرخون انتقادًا مرًا، وصوروا لنا عصره بأبشع الصور، وأظلم الأوصاف .

ترك الكوفة بعد البيعة واتخذ مدينة الأنبار عاصمة لملكه، وفي ضاحية من ضواحيها بني مدينة جديدة وسماها الهاشمية، ثم عين حكامًا ومن أنصاره وأقاربه لأقاليم الدولة المختلفة، وقد اشتهر من هؤلاء العمال خمسة رجال كان لهم نفوذ والسلطان الأكبر في

تأسيس الدولة، وهم:

(١) أبو مسلم الخراساني.

(٢) أبو جعفر المنصور في الجزيرة وأرمينية والعراق.

(٣) عبد الله بن على بسورية ومصر.

(٤) داود بن علي في الحجاز واليمن.

(٥) سليمان بن على في البصرة وملحقاتها.

علاقته بالأمويين:

استعمل السفاح هو وأعوانه مع الأمويين من القسوة وسفك الدماء ما لم يشهد مثله في دولة تقوم على أنقاض أخرى، فانه أعمل السيف في غير هوادة في الأمويين وأنصارهم.

ونسج على منواله عماله في أنحاء الدولة وإليك شيئا من خبر تلك المذابح الشنيعة، فقد روى أبو الفرج الاصبهاني في كتابة الأغاني قال: كان أبو العباس جالسًا في مجلسه وحوله نفر من بني هاشم وبني أمية، فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف إلا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك، قال هذا مولاي سديف، يدخل، فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حير اللثام عن وجه، وقال شعرًا منه:

لا يغرنك ما ترى من رجال	إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع الصوت حتى	لا ترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت إليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وقد كان بين الحاضرين وقال قتلتني يا شيخ، فأمر به السفاح فقتل هو ومن معه

أما عامله عبد الله بن علي، فيقول ابن خلكان أنه أغد الخناجر فيمن ؟؟ بالشام من أسرة خلفاء بني أمية، ولم يفلت منه أحد إلا من كان رضيعًا، ثم عمد إلى قبور بني أمية في دمشق فنبشها، وأخرج ما فيها من عظام وأحرقها وذراها في الريح، وروى عنه فريق

من المؤرخين خبر هذه الحادثة المروعة وهي أنه دخل عليه شبل بن عبد الله مولي بني هاشم الشاعر، وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلًا، كان قد دعاهم إلى مأدبة بعد أن أمنهم وأنشد شعرًا منه:

ولقـــد ســـاءني وســـاء قبيلـــي قـــربهم مـــن نمـــارق وكراســـي

أنزلوهـــا بحيـــث أنزلهـــا الله بـــدار الهـــوان والأتعـــاس

واذكرن مصرع الحسين وزيدا وقتيلا بجانب المهراس

والقتيـــل الـــذي بحـــرّان أمســـي رهـــن رمـــس في غربـــة وتناســـى

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط النطوع عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا

وقتل سليمان بن علي مع أنه كان أشفق الناس على بني أمية كل من عثر عليه من الأمويين في البصرة، ويُقال إنه أحضر يومًا جماعة من أشرافهم، وعليهم الثياب الموشاة وقتلهم، ثم أمر بهم فجروا بأرجلهم فالقوا في الطريق فأكلهم الكلاب.

واستمر يطارد الأمويين حتى دخل عليه عمرو ابن معاوية بن عمرو بن عتبه بن أبي سفيان واستماله إليه بخطبة رقيقة، منها «أن الحرم اللواتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا، قد خفنا لخوفنا ومن خاف خيف عليه»، فتأثر سليمان تأثرًا شديدًا، وأمن الرجل ومن معه، وكتب إلى السفاح يطلب منه الأمان لهم، فأجيب طلبه وكتب الخليفة إلى عماله بوقف المطاردة والتقتيل

ولم تكن أعمال باقي الولاة أقل قسوة وأخف شدة مما ذكرنا، فإن داود ابن علي قتل من ظفر به من بني أمية بمكة والمدينة، وكذلك كانت أعمال يحيي أخي السفاح بالموصل، فإنه غدر بالناس غدرًا شنيعًا وقتلهم قتلًا ذريعتا، وكذلك ضرب العباسيون جماعة الخوارج بعمان ضربة قاضية، واستطاع زياد أمير سمرقند إخضاع صغد وفرغانه، بعد أن قتل خمسين ألفا وأسر عشرين ألفا.

هذا ولم تكن الشدة مقصورة على بني أمية، بل شملت من ناصر العباسيين وكان له

فضل في إقامة ملكهم، فإنه لما تم الأمر لهم شكوا في أخلاص أبي سلمة الخلال وزير آل محمد، واتهموا بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب، فأرادوا قتله، ولكنهم بعثوا لمشاورة أبي مسلم قبل الأقدام على هذا العمل الجرئ، وبعث السفاح أخاه أبا جعفر إلى خراسان لمقابلة أبي مسلم واستشارته في ذلك، وبعد أن تمت المقابلة أرسل أبو مسلم رجلًا قتل أبا سلمة وهو خارج من عند السفاح، وأشاعوا أن الخوارج قتلوه.

وقتل أبو مسلم عماله بفارس، وقتل كبير الشيعة في خراسان وهو سليمان بن كثير، وكان هذا القتل لأتفه الأسباب وأوهاها، وغضب أبو جعفر غضبًا شديدًا لجرأة أبي مسلم وأسرها في نفسه إذ القتل وقع أمامه ولما عاد إلى الخليفة أخبره بخطورة شأنه في خراسان، وكان من رأيه الفتك به أيضًا، ولكن الخليفة تريث في الأمر ولم يقدم على ذلك في أيام خلافته خوفًا من خروج أهل خراسان عليه.

علاقته بالدولة البوزنطية:

لم تسلم الدولة في عصره مع الاحتياطات الشديدة التي أخذها من خطر الغزو الأجنبي، فقد أغارت الدولة البوزنطية على أطرافها، واستولت على ثغر ملطية وكليكية، وكانت تقتل المسلمين تقتيلًا على يد قائد أرمني يسمى كوشان، وقد استطاع هذا القائد أن يدخل أرضروم وقتل رجالها، وهتك أعراض نسائها، وساق الغنائم إلى ملك الروم

المنافسة بين أبي مسلم وأبي جعفر في عهده:

أراد أبو مسلم أن يتولي أمر الحج عام ١٣٦هـ، فكتب إلى السفاح يستأذنه في ذلك فأذن له، ولكنه أوعز إلى أخيه أبي جعفر أن يطلب إمارة الحج حتى لا يأخذها أبو مسلم، ولما طلبها أبو جعفر أجابه إليها، واعتذر لأبي مسلم، وخرج الاثنان للحج في عام واحد، وأظهر أبو مسلم من الكرم وقوة الجاه وكثرة الأنصار في أثناء الحج ما حرك مواطن الغيرة والحسد في قلب أبي جعفر، وجعله يتدبر الأمر، ويتخذ العدة للفتك به، والخلاص من خطر تألبه.

إصلاحاته الداخلية وموته:

قام السفاح ببعض إصلاحات داخلية في أنحاء دولته، فأنه أمر بوضع منارة بين الكوفة ومكة لتهدي المسافرين في تلك الفيافي الواسعة، وأقام بعض الحصون في الطريق لحماية الحجاج، وأمر بمسح الأرض وزرعها ونظم طرق الجباية، وهو أول من استعان بالوزراء، فأنه استوزر أبا سلمة الخلال، ولما فتك به استوزر خالد بن برمك جد البرامكة، الذين ظهر مجدهم في عهد هارون الرشيد، وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين خدموها خدمات جليلة الشأن في بدء تأسيسها، وهو من أبناء الفرس، وأول من اعتنق الإسلام من أهل بيته، وقد اشتهر بالحزم والكرم وسعة الحيلة وحُسن التدبير.

اختار السفاح للخلافة بعده أخاه أبا جعفر وجعله ولي عهد المسلمين في سنة ١٣٦هـ، واختار بعد أبي جعفر عيسى بن موسى بن مُحَمَّد بن علي، وكتب العهد بذلك وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى بن موسى، وقد ارتكب السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التي سبق بها في عهد بني أمية وهي تولية اثنين العهد، «وكانت من أسباب ما أصاب بني أمية من الخلاف والفرقة».

مرض السفاح بعد ذلك بالجدري، وتوفى بالأنبار في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦هـ، ٩ يونيه ٧٥٤م، وقد ترك ابنا يسمى مُحَمَّد وبنتا تسمى ريطة وهي التي تزوجت بابن عمها مُحَمَّد المهدي.

قد انتقد المؤرخون السفاح انتقادًا شديدًا، لقسوته وغدره ونكرانه للجميل، ووصفه المؤرخ الشهير "ويل" بقوله «لم يكن أبو العباس مستبدًا متوحشًا فحسب، بل كان خائنًا متعمدًا، وغادرًا ناكرًا جميل من أحسن إليه».

ولكن لعله وهو يعلم أنه يؤسس دولة جديدة كثيرة الأعداء والخارجين أسرف في أخذ حذره ولم يبال أن يخيس بعهده إذا أوجس في نفسه خيفة ممن أمنه.

٢ - أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) (٧٥٤-٧٧٥م)

هو أبو جعفر عبد الله بن مُحَمَّد بن على، ولد بالحميمة سنة ١٠١هـ، ولما انتقل أخوه إلى الكوفة انتقل معه، وكان عضده الأقوى وساعده الأشد في تدبير الملك، ولقد كان أميرًا على الحج عمد موت أخيه، فأخذ له البيعة أبن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إليه يخبره بوفاة السفاح والبيعة له، فأسرع بالعودة إلى مدينة الكوفة، وتسلم زمام الأمور وتلقب بالمنصور وقد اكتنفته المصاعب الداخلية والخارجية، ولكنه قابلها بالعزم والحزم، وتغلب عليها الواحدة بعد الأخرى بمهارة وكياسة خلدت اسمه بين كبار السواس والأمراء، ويعتبره المؤرخون المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، وهو أول خلفائها العظام، وإلى حسن سياسته وبعد نظره، ترجع القوة والشهرة التي نالتها أسرته في الشرق والغرب، وذلك للأعمال الخالدة التي قام بها في الدين والسياسة، وقد استطاع في وقت قصير أن يخمد الثورات الداخلية، ويتخلص من منافسيه وخصومه الألداء الواحد بعد الآخر، ثم التفت بعد ذلك إلى سياسة العمران والإنشاء فوطد دعائم الملك، ونظم أحوال الدولة المالية تنظيمًا اقتصاديًا متينًا.

الثورات والفتن الداخلية في عهده

أولًا: خروج عبد الله بن علي

غضب عبد الله بن علي عم المنصور عندما علم بأمر البيعة للمنصور دونه، كان يطمع في الخلافة بعد السفاح لما قام به من الأعمال الخطيرة الشأن في تأسيس الدولة العباسية، وكان المنصور يعلم هذا الميل عنده، ولذلك استشار أبا مسلم فيما يجب أن يعمل فأخذ أبو مسلم هذه المسألة على عاتقه، ولما أعلن عبد الله الثورة على الخليفة في صفر سنة ١٣٧هـ (نوفمبر سنة ٧٥٤م) وكان واليًا على سورية، خرج إليه أبو مسلم في جيش مدرب وزحف عليه حتى لحقه بمدينة نصيبين، ويذكر السير وليم موير أن عبد الله لما علم بزحف أبي مسلم قتل الخراسانيين من جنده، وكان عددهم نحو سبعة عشر ألفا، وذلك خوفًا من تألبهم عليه إذا رأوا أبا مسلم، وقد استطاع أبو مسلم أن يخرج عبد الله

من موقعه الحصين ويحتله، وذلك أنه أظهر أنه يريد الزحف على الشام فخاف جند الشام على أسرهم وأموالهم، وطلبوا إلى عبد الله أن يترك مكانه ويسير إلى الشام، ولما فعل ارتد أبو مسلم واحتل الموقع الحصين كما تقدم، ودار القتال بين الفريقين وكان سجالا ودام محو خمسة أشهر كانت نهايتها أن انتصر أبو مسلم على خصمه واضطره إلى الفرار، واستولى على معسكره وأمن الناس، ولم يقتل أحدا، وأمر بالكف عنهم.

فر عبد الله هو وأسرته إلى مدينة البصرة، ونزل عند أخيه سليمان بن علي وكان واليا عليها، وظل مختفيا مدة حتى علم بخبره أبو جعفر المنصور فأرسل في طلبه فأحضره إليه سليمان سنة ١٣٩هـ، فأمر بحبسه وقتل بعضا ممكن كان معه، ونفى بعضا إلى خراسان، وظل عبد الله سجينًا حتى مات في سجنه سنة ١٤٧هـ، فكانت عاقبة هذا القائد عاقبة محزنة بعد أن خدم الدولة خدمات عظيمة كما مر بنا.

ثانيًا: سقوط أبي مسلم الخراساني

كان أبو مسلم من قواد الدولة العظام، وإلى علو همته وحزمه يرجع الفضل في القضاء على سلطان الأمويين في خراسان والعراق كما بينا سابقا، وكان أبو جعفر يحقد عليه لعلو منزلته، ويخشاه لخطر شأنه، وكان يترقب لفرصة للخلاص منه، بعد أن استعان به في الخلاص من المنافسين الآخرين، وقد جاءت تلك الفرصة عقب موقعة نصيبين، فإن الخليفة أرسل رسولا من قبله يحصى الغنائم التي جمعها من معسكر عبد الله، فغضب أبو مسلم غضبًا شديدًا، وكاد يفتك بالرسول، وصمم على الرحيل إلى خراسان وهي حصنه المنيع، وله فيها أتباع وأنصار أقوياء، ولما علم المنصور بذلك بذل جهده ليثنى أبا مسلم عن عزمه، وكتب إليه يعرض عليه ولاية الشام ومصر حتى يبعده عن خراسان، ولكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب الجديد وأخذ في تنفيذ عزمه، فعمد المنصور إلى الدهاء وكتب إليه كتابًا رقيقًا، وأرسله مع عيسى بن موسى، وأوصاه أن يكلم أبا مسلم باللين ويجزل له الوعود ويرغبه ويمنيه بجميع وسائل الأغراء. فخضع أبو مسلم واطمأن لوعود الخليفة، وحول وجهه عن خراسان وقصد المنصور وكان ينتظره بالمدائن، وأعد له الخليفة

استقبالا عظيمًا حتى يزيد في طمأنينته، ووصل أبو مسلم، وقضى ليلة بالمدائن استراح فيها من متاعب السفر بعد يخرج لقتله عند إشارة متفق عليها، ثم أخذ يؤبنه على ما ارتكبه من المخالفات، وصفق فخرج أربعة من الحراس من وراء الستار وهجموا عليه وقتلوه سنة ١٣٧هـ ٧٥٥م.

ولما بلغ منعاه جنده هاجوا واستلوا السيوف واعتزموا الأخذ بثأر واليهم، ولكن المنصور استرضاهم بالمال، وأقنعهم بخيانة أبي مسلم وفساد طويته فانصرفوا راضين، وبقتله أمن المنصور شر أقوى منافسيه، وشعر لأول مرة أنه أصبح الحاكم الحقيقي لدولته، وقبل أن نطوى صحيفة هذا القائد الكبير لابد لنا أن نقول كلمة قصيرة عن أخلاقه ومطامعه كان أبو مسلم كبير النفس أبيا، طموحًا إلى المعالي، اتصف بصفات أكابر القواد، ولكنه كان سفاكا للدماء محبًا للانتقام، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه قتل نحو ستمائة ألف نفس، وكان محبوبا بين قومه لسخائه وكرمه، متصفا بالحزم والكتمان، فقد جاء في كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي ما نصه: «قيل لأبي مسلم صاحب الدولة: بأي شئ أدركت هذا الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان، واتزرت بالحزم، وحالفت الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت ظني وحزت حد بغيتي».

قامت ثورة في الجزيرة وفارس في سنة ١٣٨، إذ قام أهل فارس بقيادة سونبادة المجوسي للأخذ بالثأر لمقتل أبي مسلم، واستطاع الثوار أن يستولوا على البلاد ما بين الري ونيسابور، وقتلوا الرجال وسبوا النساء، وقام الخوارج بالثورة في بلاد الجزيرة ولكن المنصور أرسل قواده لإخضاع الثورتين وتمكنت جنوده من القضاء على الثوار، وأعيد الأمن والسلام إلى نصابه.

ثالثًا: ثورة الراوندية سنة ١٤١هـ

خرج المنصور حاجا في سنة ١٤٠هـ، وبعد أن أدي فريضة الحج زار بيت المقدس، وسار من فلسطين إلى سورية ورجع منها إلى الجزيرة ولما عاد إلى مقر ملكه، هددته ثورة خطيرة، قام بها فريق الراوندية وهم جماعة من أهل خراسان يقولون بتناسخ الأرواح،

ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك قائدهم، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور، وأن الهيثم بن معاوية هو جبريل، وأتوا قصر المنصور في الهاشمية، فجعلوا يقولون هذا قصر ربنا ويطوفون به فأرسل المنصور إلى رؤسائهم، وقبض على مائتين منهم وسجنهم، فغضب الباقي وهجموا على السجن وأخرجوا أصحابهم، فخرج المنصور بنفسه لإخماد الثورة، وكاد يقتل لولا أن أنقذه القائد العظيم معين بن زائدة الشيباني، وجاءت قوات الجيش وحملت على الثائرين وقتلهم جميعًا.

رابعًا: الثورة في خراسان وطبرستان (١٤١- ١٣٤هـ)

سار عبد الجبار بن عبد الرحمن الازدى وإلى خراسان سيرة رديئة أغضبت المنصور، فأرسل إليه أحد قواده المشهورين وهو حازم بن خزيمة وأرسل معه أبنه المهدي وكان في العشرين من عمره، ولما اقتربا من البلاد هب أهلها وثاروا في وجه حاكمهم وقبضوا عليه، وأرسلوه إلى الخليفة هو وأتباعه وابنه فأنتقم المنصور منه وقتله، وعذب أتباعه ونفي ابنه إلى جزيرة في البحر الأحمر.

سارت الجيوش بعد ذلك إلى طبرستان، وكان حاكمها قد ثار على حكم المسلمين، ولكن القوات الإسلامية تغلبت عليه، وفتكت بالثوار فتكا ذريعتا

هدأت الأحوال بعد ذلك في أنحاء الدولة، وخرج المنصور حاجا على حسب عادته، ولكنه فوجئ بخروج مُحَمَّد وإبراهيم ولدى عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإليك البيان.

خامسًا: ثورة العلويين سنة ١٤٤هـ

عاش العلويون، وهم أبناء الحسن وأولاد عمهم الحسين، عيشة هادئة في المدينة المنورة بعد مأساة كربلاء، ولم يتدخلوا في الأمور السياسية إلا قليلًا في عهد الأمويين، واقتصروا في أعمالهم على الأمور الدينية، والقيام ببعض الأعمال التجارية، ولما قام أهل الشيعة يدعون الناس إلى الالتفاف حول أهل بيت رسول الله ﷺ لم يشترك هؤلاء في الدعوة، بل تركوها تجرى مجراها الطبيعي، وعاش معهم في المدينة أبناء الخلفاء الراشدين

وأبناء وباقي الصحابة رضوان الله عليهم، وصاهروهم وامتزجوا بهم وأصبح لهم عصبية قوية، وكان أهل المدينة يجلونهم، وينظرون إليهم نظرة عطف وإكبار، فلما تأيدت الدعوة الشيعية، واستأثر العباسيون بالخلافة دون بني عمهم، أدرك هؤلاء وأنصارهم ومن يلتفون حولهم أن العباسين خدعوهم، فحفظوها لهم وأخذوا يترقبون الفرصة للخروج عليهم، ولما تولي المنصور الخلافة رأي أنه لا يتم له الأمر ولا يصفو له الجو إلا إذا تخلص من هؤلاء أيضًا كما تخلص من منافسيه الآخرين اشتهر من العلويين في عهده عبد الله بن الحسن وولداه مُحَمَّد الملقب بالنفس الزكية وإبراهيم، واشتهر أيضًا جعفر الصادق، وهو من نسل الحسين، وكان الأمام في نظر الفرقة الأمامية، ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا، وكان يوصي أصحابه بالخلود إلى السكينة منتظرا الفرصة المناسبة للخروج، أما النفس الزكية فكان قد بويع بالخلافة من بني هاشم في أواخر عهد الأمويين، وكان أبو جعفر من الذين بايعوه جميعًا، وكان أبو جعفر هو الذي يأخذ البيعة لأخيه في الحجاز.

تخلف النفس الزكية هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور، وشعر الخليفة أنهما مصدر خطر عظيم يخشى منه، وأخذ ينتحل المعاذير للفتك بهما، وأمر بمراقبتهما وبث العيون والأرصاد للقبض عليهما أينما وجدوا، وأخذ عماله يطاردون أسرهما فسجنوا أباهما وعذبوا الباقي عذابًا أليما، فلم يجد مُحَمَّد بدا من الظهور بعد أن اتفق مع أخيه إبراهيم على الظهور والمطالبة بالخلافة.

ظهر مُحَمَّد بالمدينة في سنة ١٤٥هـ، ودعا لنفسه بالخلافة، فالتف حوله أنصار كثيرون وبايعوه. وأفتى أبو حنيفة ومالك بصحة البيعة، واستطاع مُحَمَّد أن يقبض على حاكمها وزج به في السجن، ووصلت الأخبار إلى أبي جعفر فكتب إليه يؤمنه ويرغبه، وأسرع إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة العلويين، وأغلق أبوابها حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد.

تواترت الرسائل بين الفريقين، وكتب أبو جعفر إلى مُحَمَّد كتابا طويلا جاء فيه: «ولك عهد الله وميثاقه وحق نبيه مُحَمَّد ﷺ إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على

نفسك وولدك وأخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيك ألف ألف درهم، وأن أنزلك من البلاد حيث شئت، وأقضي لك ما شئت من الحاجات، وأن أطلق من سجن من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه، فأن شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ما أحببت والسلام».

فكتب إليه النفس الزكية جوابا طويلًا جاء في آخره ما يلي «ولك عهد الله أن دخلت في بيعتي أن أؤمنك على نفسك وولدك، وكل ما أحببته إلا حدا من حدود الله، أو حقا لمسلم أو معاهد، فقد علمت ما يلزمك في ذلك، فأنا أوفي بالعهد منك، وأحرى لقبول الأمان، فأما أمانك الذي عرضت على فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله ابن علي، أم أمان أبي مسلم؟ والسلام".

دارت مكاتبات أخرى بينهما، ولم تنته إلى اتفاق، فأرسل الخليفة جيشا عظيما على رأسه ابن أخيه عيسى بن موسى لقتاله وزحف على المدينة، وكان مُحَمَّد قد أساء اختيار موقعه الحربي، ولما اقترب قائد المنصور من المدينة ذعر أهلها وتركوا مُحَمَّدا إلا نفرا قليلا منهم، ودار القتال بين الفريقين وانتهى بقتل مُحَمَّد بعد أن أظهر بسالة عظيمة في القتال، وكان ذلك في ١٢ رمضان سنة ١٤٥هـ ودخل عيسى المدينة وانتقم من أهلها، وأرسل رأس مُحَمَّد إلى أبي جعفر وقطع الهبات والصدقات التي كانت ترسل إليها، وظلت موقوفة حتى أعادها المهدي بن المنصور في أيام خلافته.

لم يبق أمام أبي جعفر إلا إخضاع إبراهيم وكان إبراهيم قد أظهر الدعوة لأخيه في مدينة البصرة، وجمع حوله عددًا كبيرًا من الأنصار، وعاضده علماء الدين، وكان قد اتفق مع أخيه على رفع راية العصيان في يوم واحد، ولكنه تأخر عن ذلك بسبب مرضه وبذلك استطاع عيسى بن موسى أن يلحق به بعد أن فرغ من قتال مُحَمَّد، وكان قد استولى على دار الأمارة، وهزم قوات الخليفة، وأخذ ما في بيت المال، ووزعه بين أتباعه وجنده، واستولى الثوار من أتباعه على فارس والأهواز وواسط، ولما بلغ المنصور خبره خرج إلى الكوفة كما تقدم، وأمر قائده بالإسراع بالزحف لملاقاة إبراهيم قبل أن يصل إلى الكوفة،

والتقى الجيشان، وهناك كما ورد في ابن خلدون في الصحيفة الخامسة من الجزء الرابع «على شواطئ دجله عند مكان يسمى باخمرى يبعد عن المدينة بستة عشر فرسخا، حدثت معركة دموية بين الفريقين، انتصر إبراهيم في مبدئها ولكنها انتهت بخذلانه وقتله، وتفرق أنصاره في ذي القعدة من السنة عينها».

وأرسل عيسى رأس إبراهيم إلى المنصور فكان فرحه بالانتصار عظيمًا جدًا، وثأر لنفسه من أهل المدينة والبصرة وقتل كثيرًا من أهل المدينتين ووجوههما، وسجن الأمام أبا حنيفة وجلده ثم شرد أتباع العلويين وقضى على معظمهم بالتقتيل والتعذيب.

تأسيس بغداد سنة ١٤٥ه (٧٥٠م)

كان أبو جعفر قد اتخذ مدينة الهاشمية مقرا لخلافته، ولكنه كان يرغب في الابتعاد عم الكوفة، ولذلك أخذ يبحث عن موضع جديد يتخذه عاصمة لدولته، ولما انتهى إلى موضع بغداد استقر رأيه على بناء المدينة، ووضع حجر أساسها بيده وهو يقول «بسم الله والحمد لله وله الملك كله ويهب الملك لمن يشاء من عباده»

وموقع بغداد موقع جميل، إذ تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، والمواصلات بينها وبين الخليج الفارسي سهلة، وهي مكان وسط بين بلاد العرب والشام وأرمينية وبلاد المشرق، وكانت تشرف على الكوفة، وواسط والبصرة، وقد بذل المنصور جهده في تجميلها وجعلها عروس المدائن فبناها، مستديرة الشكل ومد إليها الأنهار والجداول، فصارت تجرى في الشوارع والدروب صيفا وستاء، ثم بني في وسطها قصره المسمى بقصر الخلد والجامع الكبير ويقال إنه انفق على بنائها نحو ثمانية عشر مليونا من الدنانير على قول بعض المؤرخين، ونحو مائتي ألف جنية على قول آخر ولما تم بناؤها أحضر إليها المنصور العلماء من كل بلد، وأمها الناس أفواجا وازداد عمرانها حتى صارت سيدة البلاد، ومهد الحضارة الإسلامية. ويقول الخطيب البغدادي في وصفها «لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها، وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها، وتميز خواصها وعوامها، وعظم أقطارها وسعة أطرافها، وكثرة دورها ومنازلها، ودروبها، وشوارعها ومحالها

وأسواقها، وسككها وأزقتها، ومساجدها وحماماتها، وطرقها وخاناتها، وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها، واعتدال صيفها وشتائها، وصحة ربيعها وخريفها.... إلخ».

وفي سنة ١٥١هـ بني المنصور الرصافة على الضفة الشرقية لدجلة أمام بغداد لابنه المهدي، ومد إليها الماء وغرس فيها البساتين وكان مثلها في بغداد، مثل الجزيرة في القاهرة.

الأحوال الخارجية في عهد المنصور:

خرجت الدولة الأندلسية على الدولة العربية، وانفصلت عنها، وذلك أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، استطاع أن ينجو بحياته من مذابح عام ١٣٢هـ وهرب إلى مصر، ومنها إلى افريقية، ووصل إلى المغرب الأقصى، وبعد أن استمر ينتقل بين قبائل تلك البلاد لمدة ست سنوات، دخل الأندلس سنة ١٣٨هـ وانتصر على واليها ذ ذاك يوسف ابن عبد الرحمن الفهوى، وأقام الدولة الأموية الثانية في الأندلس. وفي عام ١٤٦هـ حاول المنصور إخضاع الأندلس، فأرسل إليها جيشًا بقيادة أبي العلاء مغيث، ونزل الجيش بالأندلس، واشتبك مع عبد الرحمن في معركة بالقرب من اشبيلية، ودارت الدائرة على الجيش العباسي فهزم، وقتل قائده، ولما علم المنصور بذلك: أحمد الله الذي جعل بيني وبين صقر قريش هذه البحار الواسعة.

وكانت أفريقية مصدر اضطراب دائم له، إذ كان أهلها من عرب وبربر يميلون إلى تأييد العلويين، فأرسل إليها المنصور أحد قواده المسمى الأغلب التميمي واليا عليها في سنة ١٤٨هـ، واشتبك مع الثوار في معارك كثيرة ثم قتله الخوارج في سنة ١٥١هـ، وخلفه عمر بن حفص، وظل واليا لمدة ثلاث سنوات، ثم قام الخوارج بفتنة أخرى، واستولوا على القيروان، وقتل عمر، فغضب المنصور وأرسل إليها جيشًا قويًا بآمرة يزيد المهلبي، فتغلب على الثائرين، وقتل زعمائهم، واستمر واليا على افريقية حتى مات. وخلفه داود المهلبي.

قامت الثورات بعد ذلك في أرمينية وهراه، ولكن الخليفة أوفد ابن خزيمة فقضى

على الثوار وشتت شملهم، وقامت ثورة أخرى في بلاد الموصل، وانتشرت في فارس ووصلت إلى بلاد السند وناصرها الأكراد ولكن قوات الخليفة تغلبت على الثوار، وأرسل المنصور خالدًا البرمكي حاكمًا على الموصل، فأدار البلاد بحزم، وأسكن الفتن ونشر لواء السلام بين ربوعها وكان قد أرسل إليها قبل ذلك ابنه جعفر واليا عليها، وأرسل معه حرب بن عبد الله نائبًا له، وقد سكن جعفر في قصر بديع لحرب، وفيه ولدت ابنته زبيدة زوج الرشيد فيما بعد وفي سنة ١٥٨هـ أغار البيزنطيون على آسيا الصغرى، وخربوا قراها، فأرسل إليهم الخليفة من ردهم على أعقابهم. وفرضت الجزية على الإمبراطور البوزنطي، وكانت الجند والجيوش التي تتولى محاربة الروم تسمى الصائفة، لأنها كانت لا تخرج للقتال إلا في الصيف، لشدة برد هذه الجهات وكثرة ثلوجها، واستحالة الزحف في طرقها في أثناء الشتاء.

ولاية العهد:

كان السفاح قد أوصى بولاية العهد إلى عيسى بن موسى، بعد أخيه أبي جعفر المنصور كما تقدم، ولكن المنصور عمل على نقل ولاية العهد إلى ابنه المهدي، وأدرك بغيته بعد سلسلة من الدسائس والمؤامرات، وخلع عيسى من منصبه بالكوفة، وتعين المهدي واليا للعهد في سنة ١٤٧ هـ (٧٦٤م).

الإصلاحات الداخلية في عهد المنصور:

استطاع المنصور بعد أن فرغ من مشاكله الداخلية والخارجية، أن يوجه مجهوداته لتنظيم ملكه، ووضع إدارته على أفضل الأساليب، ثم اخذ يصلح ما خربته الاغارات الأجنبية، وقام بسياحة في مملكته ليفحص الأمور بنفسه، ويشرف على التعمير والتجديد، فأعاد بناء ملطية التي كان الروم قد دخلوها وهدموا أسوارها، ثم جدد مدائن أخرى ووضع فيها الجنود الحاميات، بعد أن قوى حصونها وقلاعها، وأعاد تنظيم الحكم في البلاد، وعين كتابًا للبريد ليخبروه بكل دقائق الحوادث وأقام طائفة من العيون والجواسيس ليخبروه بكل كبيرة وصغيرة من أمور الدولة، وأعاد تحصين البصرة والكوفة، وأمر بإحصاء

السكان في أنحاء الدولة، ونظم جباية الضرائب، وكان حريصًا على الأموال العامة حرصًا شديدًا حتى اتهمه الناس بالشح والبخل.

وفاة المنصور وأخلاقه:

استمر المنصور مجدا في عمله يواصل ليله بنهاره لتوطيد دعائم ملكه حتى بلغت الدولة شأوا عظيما من المجد. وعند ما شعر بدنو أجله أرسل في طلب ولي عهده، وأوصاه وصية دلت على خبرة عملية وحنكة سياسية. ثم خرج للحج في سنة ١٥٨ ولكنه مات في الطريق قبل أن يصل إلى مكة في مكان يعرف ببئر ميمونة في ٦ ذي الحجة من السنة عينها (أكتوبر سنة ٧٧٥ بعد أن حكم اثنين وعشرين عامًا، وترك خزينة عامرة، وجيشًا قويًا، ومملكة شاسعة الأطراف واسعة الأكناف.

وقد وصفه المؤرخون بأنه كان شديد التمسك بديانته، بعيدًا عن الشبهات، خلت حاشيته من مظاهر الانحطاط الخلقي، وكان يعطي في موضع العطاء، ويمنع في موضع المنع ولكن المنع كان أغلب عليه، حتى سار المثل بشحه وسمى «أبا الدوانيق» لشدته في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق؛ ومن هذه الناحية كان يختلف عن معاوية ابن أبي سفيان فقد كان معاوية من أكرم الناس، وأشدهم تسخيرًا للأموال العامة والخاصة في الأغراض السياسية، أما هو فقد كان من أحرص الناس على الأموال العامة والخاصة، «وقد يؤثر التضحية بالدماء والكفايات في سبيل إغراضه السياسية على التضحية بالأموال». ولقد كان مكيافليا في سياسته إذ كانت الغاية عنده تبرر الوسيلة مهما كان في ذلك نقض للوعود أو نكث للعهود، وفوق ذلك كان مقدامًا حازمًا، لا يتردد في التنفيذ، ولا يتهيب الوسائل. وفي عهده تأثر العرب بعادات الفرس وعلومهم وفلسفتهم.

واعتنق الإسلام كثير من المجوس، وبدأ يتحول النفوذ من أيدي العرب إلى الفرس، وأخذ فقهاء الدين يدونون الأحاديث ويجمعونها، وألقوا الكتب في التاريخ والدين، وبدأ الناس يعنون بأدب اللغة والتاريخ والطب والفلك، وبذلك وضع المنصور الأساس لإقامة الحياة العلمية والعمرانية التي أزهرت فيما أتي من عصور.

الباب الثالث

عصر المهدي والهادي

١- محمد المهدي (١٥٨-١٦٩ه) (٧٧٥-٧٨٥م)

هو أبو عبد الله مُحَمَّد المهدي بن المنصور، وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى بأم موسى، ولد سنة ١٢٦هـ بالحميمة، وقد عنى أبوه بتربيته عناية كبرى، وأختلف عن أبيه اختلافًا كبيرًا في الأخلاق، إذ كان كريمًا متسامحًا، ولكنه كان حازمًا مع أعدائه ومنافسيه والخارجين عليه وقد تولى العرش بعد أن استتب الأمر للعباسيين بفضل سياسة أبيه،فبذل جهده في تهدئة الخواطر الثائرة بسبب قسوة المنصور وشدته، فعفا عن المسجونين لجرائم تافهة، وأبدا السجن بعقوبة الإعدام لبعض المسجونين السياسيين، وأفرج عن الحسن بن إبراهيم وأجرى عليه راتبًا، وأعاد إلى الأماكن المقدسة امتيازاتها، وأمر بصرف ما كان لأهلها من الأرزاق التي كانت تعطى لهم من إيرادات القطر المصري، وأرجع إلى العلويين ممتلكاتهم التي كان أبوه قد صادرها.

وكان المنصور قد جرى على عادة فرض غرامات على المخطئين والمرفوتين من الموظفين وعمال الإدارة، وحفظها حاملة أسماء أربابها في خزانة أطلق عليها اسم بيت المال للمظلومين فلما جاء المهدي فتح هذه الخزائن ووزع أموالها على أربابها وعلى ورثة من مات منهم، وروى المؤرخون أنه مر ببيت خرب لأبي سلمة وهو خارج في حملة عسكرية ضد الروم، فوقف عنده، وأحضر أولاده وأتباعه، ووزع بينهم عشرين ألف دينار اعترافا منه بفضل أبيهم، ومكافأة لهم نظير ما كان لوالدهم من مساعدة لأفراد أسرته عند بدء قيامها بالحكم، وفي سنة ١٦٠هـ خرج حاجا إلى بيت الله الحرام فصرف على الفقراء والمعوزين من أهل مكة ثلاثين مليونا من الدراهم ومائة وخمسين ألف ثوب، وأعاد بناء

الحرم الشريف، ووسع المدارس والمساجد الأخرى في مكة والمدينة وباقي مدن الحجاز، وأقام منازل للاستراحة بين بغداد ومكة، وكان هناك منزل واحد في أيام السفاح بين القادسية ومكة وهي مسافة تقرب من ثلاثمائة ميل، ووضع حول هذه المنازل الحراس والحاميات لحراسة الحج وحمايته، وحفر الآبار، وأقام الزوايا بجانبها. وقد اتخذ له حرسًا من الأنصار من أهل المدينة بلغ عدده نحو الخمسمائة، وكانت سنة جميلة تلك التي سنها المهدي، لو جرى عليها خلفاؤه فاتخذوا حراسهم من العرب، ولم يستبدلوا بهم الأتراك والديلم، ما تضعضع حكم العباسيين، وما استطاع هؤلاء الدخلاء الاستئثار بالسلطة والنفوذ في دار الخلافة كما فعلوا بعد ذلك.

الفتن والثورات في عهده:

أولًا: حاول أحد أبناء مروان الثاني الخروج على العباسيين وثار في سورية، ولكن المهدي قمع الفتنة وتغلب على الثائر وقبض عليه وأودعه السجن، ولكنه أخرجه بعد قليل وأجرى عليه الأرزاق، وعامل زوج مروان الثاني معاملة رقيقة، وأسكنها قصره مع زوجه حيث عاشت عيشة إعزاز وإكرام.

ثانيًا: ثار في خراسان بين سنتي ١٥٨و ١٦٠هـ هاشم بن حكيم، وهو المعروف بالمقنع لأنه كان يخفي قبح وجهه ودمامة خلقته بقناع من ذهب وكان يعتقد أن روح الله ظهرت في آدم ثم في نوح ثم في أبي مسلم ثم انتقلت إليه، وأن الدين اعتقاد لا أعمال، وكانت تعاليمه ثورية، وشاع ذكره وتبعه خلق كثير من بخاري وسمرقند وأتراك بحر قزوين، ولما امتد نفوذه واشتهر أمره أرسل إليه الخليفة معاذ بن مسلم أحد قواده، وأرسل بعده سعيد الحرشي فطارده وشيق عليه الخناق وحاصره في قلعة كشي، فلم ير المقنع بدا من التسليم، وفضل أن يسم نفسه وأهل بيته ومن كان معه فماتوا، وكان قد اتخذ له ولأتباعه اللباس الأبيض شعارا فعرفوا بالمبيضة.

ثالثًا: ثورة "الزنادقة"

ظهرت فرقة أخرى من الفرق الدينية في ولاية جرجان، وهي ولاية تقع شرقي بحر

قزوين، عرفت بالمحمرة لاتخاذها اللباس الأحمر شعارا لها، ونشرت تعاليمها بين الناس فر خراسان وفي المقاطعات الغربية لبلاد فارس وتسربت إلى بلاد العراق، وكانت هذه التعاليم مزيجا من تعاليم مزدك وماني من أصحاب المذاهب الدينية التي ظهرت في فارس وانتشرت بها قبل الإسلام، فقد ظهر مزدك وهو من أهل نيسابور سنة ٤٨٧م، ودعا إلى مذهب ثنوى جديد فكان يقول بالنور والظلمة كما قال غيره من أنبياء الفرس، ولكنه امتاز بآرائه الشيوعية، إذا كان يرى أن الناس ولدوا سواء فيعيشوا سواء، وأهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء، قال الشهر ستاني "وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال فقد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنور والكلأ" وقال الطبري "قال مزدك وأصحابه إن الله إنما جعل الأرزاق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتآسى، ولكن الناس تظلموا فيها، وزعموا أنهم يأخذون للفقراء من الأغنياء، ويردون من المكثرين على المقلين، وأن من عنده فضل من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو أولى به من غيره، فافترض السفلة ذلك واغتنموه، وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم، فأبتلى الناس بهم، وقوى أمرهم، حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله» وقد طارد كسرى أنو شروان مزدك وأتباعه مطاردة عنيفة، ولكنه لم يستطيع القضاء على أنصار هذا المذهب قضاء مبرمًا.

أما مانى فقد ظهر في أوائل القرن الثالث الميلادي وخلاصة مذهبه كما ورد في كتاب فجر الإسلام صحيفة ١٢٥ "أن العالم كما قال زرادشت نشأ عن أصلين: وهما النور والظلمة، وعن النور نشأ الخير، وما يصدر عن الإنسان من خير فمصدره إله الخير، وما يصدر من شر فمصدره إله الشر، فإن هو نظر نظرة رحمة فتلك النظرة من الخير والنور، ومتى نظر نظرة قسوة فتلك النظرة من الشر والظلمة، وكذلك جميع الحواس– وقد امتزج الخير والشر في هذا العالم امتزاجا تاما، وقد أطال هو وأصحابه في كيفية هذا الامتزاج بما يشبه الخرافات».

أطلق المسلمون على المحمرة اسم الزنادقة. وللمؤرخين تعليلات كثيرة في أصل هذه التسمية فمنهم من قال إنها تطلق على أصحاب ماني، ومنهم من قال إنها اسم لمذهب خاص كاليهودية والنصرانية «ويقول بعضهم إن زنديق في الأصل معناها بالفارسية الذي يتبع زند ثم أطلق على المانوية، لأنهم كانوا يأخذون زند وغيره من الكتب المقدسة ويشرحونها على مذهبهم بطريقة التأويل"، ونهض المهدي يقاوم مروجي هذه التعاليم إذ انتشرت الرزيلة بسببها، وانغمس الناس في حمأتها، وتفككت روابط الأسرة، وسقطت هيبة الحكومة، وتقوضت أسس الحياة الاجتماعية والعقائد الدينية، واختطفت الأولاد والنساء، وقسا الخليفة على هؤلاء الفوضويين وطاردهم من غير رحمة ولا هوادة، وعدهم أعداء الدين والفضيلة والنظام العام.

أحوال الدولة الخارجية في عهده

أولًا: أغار البوزنطيون على حدود الدولة في سنة ١٦٣هـ، واستولوا على مرعش وأحرقوها، واعملوا السيف في رقاب أهلها، فأرسل إليهم المهدي قائده القدير الحسن بن قحطبة، ولكنهم تراجعوا قبل أن يلحق بهم واكتفي الحسن بتهديم بعض معاقلهم ومدنهم، وبعد قليل عادوا إلى أغارتهم فسار إليهم المهدي بنفسه في جيش بلغ عدده مائة وخمسين ألفا، وترك ابنه موسى في بغداد يقوم بأعباء الحكم فيها، واحترق بلاد الموصل واتخذ مدينة حلب مركز أعماله الحربية، وأرسل ابنه هرون ومعه قواد آخرون مثل الحسن بن قحطبة وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح ويحيي بن خالد البرمكي لمقاتلة الروم، وقد انتصر هرون ودخل شمالا، وطلب الأعداء الصلح على أن يدفعوا غرامة حربية في نظير إخلاء بلادهم وإطلاق سراح أسراهم، وقبل هرون الصلح، وعاد إلى حلب، وتوجه المهدي بعد ذلك لزيارة بيت المقدس، وأقام هرون واليا على الغرب، بما فيه أرمينيا وأزربيجان يعاونه ثابت بن موسى ويحيي بن خالد.

نقض الروم شروط الصلح ورجعوا إلى الاعتداء على أملاك المسلمين فزحف هرون لملاقاتهم في سنة ١٦٥هـ، وظهر عليهم وذبح منهم خلقا كثيرين، وسار بجيشه نحو

القسطنطينية، ولما رأت الملكة إريني أرملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع أن الخطر يهدد ملكها طلبت إلى هرون إيقاف القتال، وتعهدت بدفع جزية سنوية وبتموين الجيش الإسلامي عند تراجعه، فقبل منها الشروط وهادنا لمدة ثلاث سنوات.

ثانيًا: حاول المهدي بين سنتي ١٦١هـ و ١٦٣هـ استرجاع الأندلس إلى حظيرة الدولة الإسلامية، ولكن المحاولة لم تنجح وانتهت بالفشل، وكان قد أرسل حملة عسكرية قبل ذلك بسنة واحدة إلى الهند بقيادة عبد الملك ابن شهاب المسمعي عن طريق البحر، ووصلت الحملة وهاجمت مدينة باربذ وأحرقت تمثالا لبوذا ومعه عدد من أتباع مذهبه، ولكن المرض انتشر بين أعضائها فرجعت الحملة، وعند ساحل الفرس حطمت الريح سفن الأسطول

وزراء المهدي:

اعتمد المهدي كثيرا على وزرائه، ولذلك أخذت الوزارة في عهده شكلا واضحا، وأصبح للوزير شأن كبير في إدارة الشئون وتصريف الأمور في الدولة، وقد اشتهر من وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار، وكان وزيرا قديرا بارعا في المسائل المالية، نظم جباية الأموال، وجعل الخراج على النخل والشجر، وصنف كتابا في الخراج، ولكن المهدي غضب عليه لأمور نسبت لابنه، وعزله في سنة ١٦١هـ، واستوزر بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بني سليم، وكان عالي الهمة، دبر أمور الملك تدبيرا محكما، واستأثر بالسلطان والنفوذ في طول البلاد وعرضها، ولكنه كان يميل إلى الزيدية من العلويين، وأتى بهم من أنحاء الدولة وولاهم المناصب في الشرق والغرب، فأوقع به حساده ومنافسوه عند الخليفة واستعانوا بالشعراء لنيل بغيتهم، ومن هؤلاء الشعراء بشار بن برد إذ قال:

بني أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود

غضب الخليفة على يعقوب بعد أن فعلت الدسائس فعلها، وعزله وسجنه في

المطبق، وهو باستيل العباسيين، وظل به حتى أفرج عنه في خلافة الرشيد، واتخذ المهدي بعده الفيض بن أبي صالح وزيرا له واستمر في منصبه حتى مات الخليفة.

وفاة المهدي وأخلاقه:

جاء في كتاب الخضري بك صحيفة ١٠٦ ما يأتي: «كان المهدي لا يشرب النبيذ وأن كان سماره يشربون في مجلسه، وكان يسمع الغناء، وكان من خلقه الحياء والعفو، وكان يتأثر بالقرآن، وكان ميالا للسنة وكان شديد الغيرة على النساء.» وجاء في كتاب عصر المأمون نقلا عن السير موير: «أن المهدي كان في إدارته لشئون رعيته كمن يعمل بوجه عام على رفاهية الأمة وإسعادها، وكان معينا ومعجلًا للعصر الذهبي الذي تلا أيامه».

خلع المهدي عيسى بن موسى من ولاية العهد، وعين ابنه موسى الهادي وليا لعهده وجعل بعده ابنه هرون وفي سنة ١٦٩هـ خرج إلى جرجان وفي طريقه مات في ٢٢ المحرم في ماسبذان، وصلى عليه ابنه هرون لأنه كان في صحبته، وكان المهدي في الثالثة والأربعين من عمره عند وفاته.

٢- موسى الهادي (١٦٩- ١٧٠هـ) (٧٨٥- ٧٨٦م)

كان الهادي في ولاية جرجان عند ما توفى أبوه فأخذ له أخوه هارون البيعة على الجند، وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة وكتب إليه يعزيه ويهنئه، وتولى عرش الخلافة وكان في الرابعة والعشرين من عمره، ودانت مدة خلافته قصيرة، واشتهر بصلابة الرأي والشجاعة والكرم والميل إلى الأدب وتشجيع الشعراء وكان شديد البطش جرئ القلب «مجتمع الحس ذا أقدام وعزم وحزم».

الأحوال الداخلية في عهده

أولًا: كانت الخيزران أمه تقابل وجوه الدولة، وتتدخل في إدارة الشئون في أيام زوجها المهدي، وقوي نفوذها لدرجة كبيرة، فلما تولى الهادي الحكم أرادت الاستمرار في طريقها، وظنت الفرصة سانحة للاستئثار بجميع السلطة، ولكن الخليفة أوقفها عند حدها وحرم عليها مقابلة الرجال وأمر قواده ورؤساء الدولة ألا يحضروا مجلسها أو

يدخلوا عليها، وهدد من يخالف أمره بالإعدام ولذلك كرهته والدته وأخذت تدس الدسائس حوله، ووجدت الأحزاب في الدولة، حزب يؤيد الخليفة ويناصره في أغراضه السياسة، وآخر يؤيد الملكة الأرملة، واتسع الخرق بين الاثنين وظل كذلك حتى مات الهادي.

ثانيًا: حاول الهادي أن يجعل الخلافة لابنه جعفر من بعده متخطيا أخاه هرون مع أن هرون برهن على عظيم ولائه له إذ أخذ البيعة له على الجند الموالين له شخصيا عند وفاة أبيهما كما تقدم، وكان هرون يميل إلى إجابة رغبة الخليفة، ولكن صديقة يحيي بن خالد نصح له بالخروج عن مقر الخلافة، وأخذ يسعى لدى الهادي مبينا له خطأ التغيير، ولكن الخليفة مضى في سياسته وأخذ البيعة لابنه ضاربا برأي يحيي عرض الحائط وسجنه وظل الرشيد بعيدًا عن مقر الملك حتى مرض أخوه ومات.

ثالثًا: ثار الخوارج في الجزيرة، وثار العلويون في مكة والمدينة، ونهض الهادي متتبعا سياسة أبيه، ونكل بالخوارج والزنادقة تنكيلا شديدًا، أما العلويون فقد خرج منهم بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩هـ، ويرجع سبب ذلك على ما رواه المؤرخون إلى القسوة التي عامل بها وإلى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله الحسن بن مُحَمَّد النفس الزكية وجماعة من أصدقائه متهما إياهم بشرب الخمر. إذ قبض عليهم الوالي وشهر بهم بين أهل المدينة، وتوسط الحسين في الأمر ولكنه غضب من تصرفات عمر، وعزم على الخروج، وشجعه وجود بعض أهل الشيعة العلوية من الكوفة وكانوا قد أتوا للحج، وأقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوما ثم تركها قاصدا مكة وفي طريقه إليها قابله جماعة من العباسيين من بينهم مُحَمَّد بن سليمان بن علي والعباس بن مُحَمَّد وموسى بن عيسى وكان الهادي قد سمع بخبر الثورة فأمر مُحَمَّد بن سليمان بمقابلة الحسين وقتاله. تقابل الطرفان ودارت رحى المعركة عند مكان يعرف بالفخ وانتهت بقتل الحسين ومن

معه، وكان من نتائج تلك الثورة أن فريحي بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي إلى بلاد الديلم وثار بها، وظلت الثورة قائمة حتى أخمدها الرشيد في أثناء حكمه سنة ١٧٥هـ وفر أخوه إدريس ابن عبد الله إلى بلاد المغرب واستطاع أن يؤسس في تلك البلاد دولة الادارسة التي كان لها شان كبير في تاريخ العرب في الأندلس.

موت الهادي وأخلاقه

توفي الهادي بعيسى باذ في ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، وقد اختلف المؤرخون في سبب موته ومنهم من ينسب موته إلى سم دسته له أمه في طعام أرسل إليه، وورد في وصف أخلاقه «أنه ورث عن أبيه كرمه وغيرته وحبه للأدب، وورق عن جده المنصور حزمه وشيئا من ميله إلى الغدر» وفي عصره اشتد نفوذ الفرس وانتشرت في البلاد كثير من عاداتهم ظهر أثرها جليا في عصر الرشيد.

الباب الرابع

عصر الرشيد والأمين

١- هرون الرشيد (١٧٠-١٩٣ه) (٧٨٦-٨٠٩م)

وُلِدَ الرشيد في سنة ١٤٥هـ بمدينة الري. وولد قبله بسبعة أيام الفضل ابن يحيي البرمكى، وتبادلا الرضاع من أميهما، فكانا اخوين في الرضاعة، ولما مات لهادي تولى الرشيد العرش وأسرع بالعودة إلى بغداد ودخلها، ووجد أن الأمر هيئ له، وذلك أن خازم بن خزيمة أحد القواد سار في عدد من الجند إلى بيت جعفر بن الهادي وحاصره وهدد الأمير بالقتل إن لم ينزل عن الخلافة لعمه، واجتمع القوم حول البيت فأطل عليهم جعفر وقال "من كان لي بيعة في عنقه فقد أحللته منها» وبذلك تم الأمر للرشيد وأصبح الخليفة لا ينازعه في أمر الخلافة منازع. ويعتبر المؤرخون عصره أزهى عصور حكم المسلمين في آسيا، ويعدونه من أشهر ولاة التاريخ، إذ بلغت الخلافة الإسلامية في عهده قمة المجد وذروة الفخامة، ولقد كان ورعا متدينا محسنا محبا للفقراء، وكان عسكريًا مدربًا شجاعًا، كثيرًا ما قاد الجيوش بنفسه، وكثيرًا ما اخترق مملكته الشاسعة لرد المظالم ومعاقبة المجرمين ودفع الاغارات عنها، وكان حاكمًا مدبرًا حازمًا عالمًا بدقائق الأمور.

وقد عم الأمن البلاد بفضل سهره وعنايته بمصالح الرعية، وأن الجوامع والمدارس والكليات الكثيرة العدد، والطرق والجسور والمستشفيات والملاجئ ودور العجزة التي أسسها لخير دليل على ما بلغته الدولة من العظمة وعلو الشأن في عصره الخالد الذكر.

هذا وقد امتاز عصره برواج سوق الأدب وكثرة الشعراء والمفكرين، وعم الرخاء البلاد، وأصبح اسم الرشيد مضرب الأمثال بين الغربيين وعنوان الأبهة والفخامة بين الكتاب والمؤرخين، وكانت بغداد في عصره نادرة الدنيا، فريدة في حضارتها وعمارتها

الأحوال الداخلية في عهده

أولًا: نقل مقر الخلافة من بغداد إلى مدينة الرقة واتخذها مسكنا له حتى يشرف على سوريا، ويكون قريبا من حدود الدولة البوزنطية التي كانت تهدد أملاك المسلمين في آسيا الصغرى من آونة إلى أخرى، واتخذ يحيي البرمكى كبيرًا لوزرائه، وعين أولاده حكامًا وولاة على مختلف أقاليم الدولة.

ثانيًا: جدد العلويون نشاطهم، وأصبح يحيي الذي فر إلى بلاد الديلم في عصر الهادي مصدر خطر كبير على الخلافة العباسية، إذا استطاع أن يوسع حدود إمارته حتى وصلت إلى بحر قزوين، واشتهر بلاطه شهرة طبقت الأفاق، وهرع إليه العلماء من الشرق والغرب، فحقد الرشيد عليه وندب الفضل بين يحيي البرمكى لمقابلته وكان الفضل واليا على فارس وجرجان، ونجح الفضل في استمالة يحيي العلوي بعد أن فاوضه في أمر الصلح والتسليم إلى الخليفة، وقبل العلوي طلب الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه، وكتب الخليفة الأمان، وأشهد عليه القضاة والفقهاء ورؤس بني هاشم، وأرسله إليه ومعه الهدايا، فقدم يحيي على الرشيد واستقبله استقبالا شائقا وأكرم وفادته، ولكنه ما لبث أن غضب عليه وتحركت عوامل الغيرة في قلبه، فنقض عهده بعد أن حصل على فتوى بنقضه من فريق من العلماء وسجن يحيي. إما إدريس فقد استطاع أن يصل إلى بلاد الغرب بمساعدة واضح عامل البريد على مصر، ونزل بمدينة وليلى سنة ١٧٢هـ ونشر دعوته وبايعه الناس بالأمارة، والتف حوله الجند وعزم على غزو افريقية وانتزاعها من العباسيين، ولما بلغ الرشيد خبره أرسل إليه سليمان بن جرير المعروف بالشماخ وطلب إليه أن يحتال على قتله، فأدعى الرجل الطب وانتهز مرض إدريس وسمه، ولما مات بايع أنصاره ابنًا له يسمى إدريس الثاني، واستمرت دولة الادارسة قائمة ببلاد المغرب ولم يستطع الرشيد إرجاعها إلى حظيرة الخلافة الإسلامية، ولذلك اشتد غضبه على العلويين وأخذ يراقبهم مراقبة دقيقة.

ثالثًا: قامت الخوارج بفتن عديدة في عصر الرشيد في أنحاء الدولة، واشتهر منهم الوليد بن طريف الشيباني وكان مقدامًا شجاعًا، واستطاع أن يستولى على نصيبين في سنة ١٧٨هـ وقتل حاكمها، ولما اشتد ساعده وكبر شأنه اهتم الرشيد بأمر ثورته وأرسل إليه قائدًا كبيرًا وهو يزيد بن مزيد الشيباني فتغلب عليه وقتله بمكان قريب من مدينة الأنبار في سنة ١٧٩هـ، ولما قتل تولت أخته ليلى قيادة أنصاره، ويطلق عليها سيد أمير على «جان دارك المسلمين» لأنها أثارت حماسا عظيمًا بين الثوار، وحاربت جند الرشيد حربًا عوانا، وظلت تقاتل حتى أعراها قائد الخليفة بترك القتال فتركته، وكانت مشهورة بالجمال وكانت تقول الشعر، ورثت أخاها بشعر رقيق بعد موته نذكر منه ما يلي:

فيا شجر الخابور مالك مورقا ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان السباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف

رابعًا: الأحوال في المشرق

عين الرشيد علي بن عيسى بن ماهان واليا على خراسان، وكان واليا ظالما ظلم الناس وجمع ثروة طائلة واستفحل أمره في البلاد وأصبح ذا نفوذ يشبه نفوذ أبي مسلم، فكتب أهل خراسان إلى الخليفة يتظلمون من قسوة واليه، ويرفعون شكايتهم، ورأي الرشيد أن الأمر يتطلب تحقيقا، فخرج من الرقة قاصدا مدينة الري واستصحاب معه ابنه المأمون ومكث في المدينة أربعة شهور، وبعث في طلب علي بن عيسى فجاءه مثقلا بالأموال والهدايا والطرف وأهدى كل من كان مع الرشيد، وكسب الخليفة ونفى عن نفسه نا وجه إليه من التهم، وعاد إلى مقر حكمه في مرو وأخذ ينتقم منة وجوه خراسان ومن ظن فيهم أنهم مصدر الشكوى، وفي تلك الأثناء ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار وعظم شأنه في سمرقند، وأرسل علي بن عيسى لقتاله فتغلب عليه وقتله، وكان قد قتل

والى سمرقند قبل ذلك، فرأى علي بن عيسى أن يأخذ الأمر على عاتقه وتأهب لقتاله وأسرع بالرجوع من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها، وكان ابن علي بن عيسى قد ترك ثروة طائلة بلغ أمرها الرشيد، فغضب وأكد من خيانة واليه على خراسان وظلمه للرعية وعزم على خلعه، واختار أحد قواده وهو هرثمة بن أعين وعهد إليه بالقبض على الوالي وعينه واليا مكانه، واستطاع هرثمة أن يقبض على علي بن عيسى وعلى أبنائه وأهل بيته، وصادر أملاكه وأمواله وأرسله إلى بغداد في الأغلال وحمل ثروته على ١٥٠٠ بعير وأرسلها إلى الخليفة، وفرح أهل خراسان فرحا عظيما ودعوا للخليفة بالنصر وحسن الجزاء لتخلصهم من شر علي، أما رافع فقد ظل ثائرا حتى انقضى عصر الرشيد ثم خضع للدولة في عصر المأمون.

خامسًا: الرشيد والبرامكة

البرامكة أسرة فارسية كان مؤسسها –ويسمى برمك– من مجوس بلخ وكان يخدم هو وأولاده معبدا مجوسيا فيها وذلك في أوائل القرن الثاني للهجرة، ولما دخل الإسلام بلاد فارس وانتشر بها أسلم بنو برمك، وكان أكبرهم سنا يسمى خالدا، ولما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان كان خالد هذا من أكبر أنصارها ودعاتها، ولما استقر الأمر للسفاح استوزره بعد قتل أبي سلمة الخلال، وظل وزيرا حتى مات السفاح وتولى المنصور فعينه واليا على فارس ثم الموصل، فكان واليا قديرا حسن السيرة والتدبير، ومات في خلافه المهدي وكان قد أنجب يحيي ورباه خير تربية فاختاره المهدي ليكون مربيا ومؤدبا لابنه هرون فأحسن القيام بذلك، وأخلص لأميره إخلاصا كاملا، وظل بجانبه في أيام الهادي يؤيده في أمر ولاية العهد وكاد الهادي يفتك به لو لا أن عاجلته المنية، وتولى الرشيد مكانه فولاه الوزارة، وفوض إليه تفويضا صريحا في تصريف شئون الدولة قائلا له: «قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وامض الأمور على ماترى"، ولم يلبث أن دفع إليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان وأصبح بهما عرف عنه من كرم الخلق وسماحة النفس

وجودة الكتابة كعبة القصاد ومنتج الرواد، وكان ليحيي خمسة أنجال وهم الفضل وجعفر وموسى وخالد ومُحَّد، وكان لهؤلاء أولاد وكانوا كلهم رؤساء بالدولة العباسية في أثناء حكم الرشيد، وكانوا يجمعون من الصفات المحمودة والخصال الممدوحة ما استحق ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وكان أكبر أفراد هذه الأسرة شأنا يحيي وشأنه مع الرشيد قد مر بنا ذكره ثم ولداه الفضل وجعفر، فإما الفضل فقد كان توأم الرشيد رضاعا، شبًا معا كالأخويين، ولم يزالا كذلك إلى أن ولد الأمين للرشيد فألقى به في حجر الفضل ليعنى بأمر تربيته، ولما خرجت خراسان على الرشيد أرسل الفضل واليا عليها وعلى ثغورها فأصلح حالها، وهدأ ثورتها ونجح نجاحًا باهرًا في غزواته فيما وراء نهر جيحون ولما عاد منها في سنة ١٧٩هـ أحسن الرشيد استقباله في جمع من بني هاشم وعلية القوم، وأبقاه في بغداد يساعد أباه في إدارة الشئون ولقب بالوزير الصغير، وأما جعفر فقد كان سمح الأخلاق كثير العطاء، لا نظير له في الفصاحة والبيان، وكان الرشيد أميل إليه من أخيه الفضل، أرسله إلى إخضاع فتنة قامت بين القبائل العربية بالشام، فأخضع لثوار، وأصلح الأمور، وعاد إلى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالًا عظيمًا، وولاه مصر، لكنه أبقاه بجانبه، وعهد بتربية المأمون إليه، ثم حدث أن تناول يحيي عن منصب الوزارة لابنه الفضل ولكن الرشيد طلب إلى يحيي أن يطلب من الفضل التنازل عنها لأخيه جعفر، فكتب يحيي إلى الفضل يقول:«قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين في أخي، وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه، ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه»، تولى جعفر الوزارة وأخذ يعمل إلى خير الدولة وسعادتها «وضبط الأموال ورتب ديوان الأعمال والجبايات، واقتصد من النفقات فضلا يحطات به، وأقام على السجلات مهرة الحساب لدقة المقارنة بين خرج الدولة ودخلها، وجعل لهذا الديوان شعوبا عدة تتشعب منه وترجع إليه، وأمر بحفظ الدفاتر القديمة للمراجعة، ثم نظر إلى ضبط المعاملات بين بعض الناس وبعض، فأقام جماعة يعرفون برجال العدالة في كل الجهات لمراقبة حركات البيع والشراء، ونظر إلى بغداد ونظم شرطتها، وأقام العسس بجميع دروبها، وبث فيها العيون والأرصاد لمراقبة حركة الأغراب فيها" إلى غير ذلك من الأعمال التي ضاعفت ثقة الرشيد به حتى أنابه عنه في القضاء يرد

المظالم الأمر الذي لا يباشره إلا الخلفاء، وبذلك عظم شأن جعفر حتى أصبح يلقب بالملك ولا يفرق بينه وبين الخليفة في نفوذه، وارتفعت مكانة الأسرة ارتفاعًا عظيمًا نتيجة لمكانة أفرادها، وأثرت ثراء كبيرًا، وأصبح سلطانها لا حد له، ولقد اشتهرت بالسخاء والكرم وبذل الأموال للسائلين، فأحبها الناس حبا جما والتف الشعب حولها التفافا لم يسبق له نظير، فأثاروا بذلك حسد الكثيرين من أمراء العرب خصوصا آل الربيع وآل المزيد الشيباني، فتضافروا حتى أوقعوا بينهم وبين الرشيد ففتك بهم فتكا ذريعا وصادر ممتلكاتهم، وإليك ما أورد بعض المؤرخين في وصف النكبة وأسبابها.

سقوط البرامكة

حج الرشيد عام ١٨٦ هـ وانصرف إلى الحيرة، وكانت عادته كل سنة يحج فيها أن يقيم في ضيافة جعفر أياما ببيت له في الحيرة، فلم ينزل كعادته في هذه السنة، وسار إلى الأنبار فوصلها ليلة السبت آخر المحرم سنة ١٨٧ واعتذر لجعفر عن عدم منادمته تلك الليلة، وقال إنه يريد الراحة في بيته، فانصرف جعفر وترك الرشيد فأرسل وراءه مسرورا خادمه وأمره أن يذهب لوقته إلى بيت جعفر ويخرجه إخراجا عنيفًا ويأتي به، فذهب مسرور وأخرجه وأتى به منزل الرشيد وأخبر الخليفة بمجيئه فأمره بضرب عنقه ونفذ سرور الأمر، ثم أرسل الرشيد في الليلة عينها من أحاط بيحيي ابن خالد وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بالطريق فلم يفلت منهم أحد، وأودعهم السجون، ثم فرق الكتب إلى جميع العمال والولاة أن يقبضوا أموالهم، ووجه رجاء الخادم إلى الرقة وأمره أن يقبض أموالهم ويأخذ رفيقهم ومواليهم، ثم أمر السندي أن ينقل جثة جعفر إلى بغداد فنقلها وقطعها إلى نصفين على الجسر الأعلى والأخر على الجسر الأسفل، وقد ظلت مصلوبة بضع سنين حتى مر بها الرشيد فأمر بإحراقها فأحرقت، وحذر الناس من إيواء أي فرد من البرامكة مستثنيا مُحَمَّد بن خالد بن برمك وولده وحشمه لما ظهر له من نصيحة مُحَمَّد له، وعرف براءته مما دخل فيه وغيره من البرامكة.

وهذا وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في الأسباب التي أدت إلى نكبة تلك

الأسرة وذكروا منها:

أولًا: إن الرشيد غضب غضبا شديدا عندما علم أن جعفرا أطلق سراح يحيي العلوي وسهل له الهرب إلى افريقية، وكان الرشيد يخشى بأس العلويين، وقد فعل جعفر هذا من غير استئذان الرشيد، ووجد الفضل بين الربيع أن الفرصة سائحة للإيقاع بجعفر، وأبلغ الحادثة إلى الخليفة فتظاهر الخليفة بالاستخفاف بالأمر ولكنه شك في إخلاص البرامكة من يومها، واتهمهم بأنهم يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وكانت هذه التهمة أشد من الزندقة عند المهدي، وهى التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة.

ثانيًا: نسب بعض المؤرخين سبب النكبة إلى مجرد الملل والغيرة: سئل سعيد بن سالم عن خيانة البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم مايو جب بعض عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب ﷺ وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال وفتوح، وأيام عثمان ﷺ حتى قتلوهما.

ثالثًا: علو المكانة والجاه والثروة التي وصل إليها البرامكة في عهد الرشيد مما جعل الخليفة يوجس خيفة على مركزه ومركز أسرته، وجعله يترقب الفرصة للخلاص منهم، وكان الناس يتوقعون تلك النكبة لهم، ودليلنا على ذلك ما يروى أن إبراهيم بن المهدي زار جعفر البر مكي في قصر له، فسأله جعفر "هل ترى في دارى عيبا؟ " فقال إبراهيم "الذي يعيبها عندي أنك أنفقت عليها نحوا من عشرين ألف ألف درهم، وهو شيء لا آمنه عليك غدا بين يدي أمير المؤمنين " فقال "سأقول هذه نعم أمير المؤمنين على وضعتها فوق تل عال، وقلت يا قوم انظروا نعم الخليقة على، إن الناس يخفون نعمه، وأنا أتحدث بها".

رابعًا: أورد المؤرخون العرب ونقل عنهم مؤرخو الفرنج قصة عباسة بنت المهدي أخت

الرشيد وما كان بينها وبيم جعفر البر مكي من علاقات سرية، ومن أنها كانت تحضر مجالس الشراب مع أخيها ونديمه جعفر، وأنها تزوجت من جعفر سرا بعلم الرشيد، وأنها حملت ووضعت وأرسلت مولودها مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، وأن الرشيد عرف السر بعد ذلك من جارية لأخته وهو يحج في سنة ١٨٧هـ، فغضب علي جعفر وعزم علي الفتك به – الخ القصة، وهى قصة ظاهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد، وما سار عليه بنو العباس من بداية عهدهم حتى زمن ضعفهم، إذ ليس من المعقول أن يكون الرشيد مرن الخلق إلى هذا الحد، وان يأذن لأخته بالحضور إلى مجالس شربه وهو مع أصدقائه.

ولقد أجمل ابن خلدون أسباب النكبة وعللها تعليلا أقرب إلى التاريخ منه إلى الرواية والوصف، فقال في صفحة ١٢ "إنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم علي الدولة واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واجتازوها عن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابه وسيف وقلم ... .

فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب، وقصرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم وفكوا العاني، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم، واستولوا علي الفري والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حني أسفوا البطانة واحقدوا الخاصة وأغضوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوال جعفر من أعظم الساعين

عليهم".

حلل ابن خلدون أسباب النكبة وخالف المؤرخين في روايتهم عن العباسة وترى من تحليله الأسباب الحقيقية التي أسقطت هذه الأسرة بعد أن خدمت الدولة العباسية خدمات جليلة نحو سبعة عشر عاما، ولم تكن نكبتهم حادثة تقدمنها أسباب طويلة أنتج عنها بعضها بعضًا.

كان أفراد الأسرة يعاملون معاملة حسنة في سجونهم حتى غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح وسجنه فضيق عليهم، وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن على بن عبد الله بن عباس، وقداتهم بأنه يعمل علي نيل الخلافة وأن البرامكة كانوا يساعدونه، وحقق الرشيد التهمة ولما اقتنع بصحتها أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وأرسل يسأل يحيي البرمكي عما نسب إلى عبد الملك وطلب إليه أن يصدقه حتى يعفو عنه ويعيده إلى سابق حاله، ولما أجابه يحيي بأنه لا يعرف من أمر التهمة شيئا غضب الرشيد وقسا في معاملة البرامكة ظل يحيي مسجونا حتى مات في سجنه سنة ١٩٠هـ ومات بعده ابنه الفضل في سنة ١٩٣هـ وظل عبد الملك مسجونا حتى عفا عنه الأمين وأخرجه من سجنه و ولاه سوريا، ولما تولي المأمون العرش أرجع للأحياء من البرامكة ممتلكاتهم، ورفع منزلتهم، وأنك لو قرأت تاريخ البرامكة في كتب مؤرخي العرب وما نالهم من الرشيد لذابت نفسك حسرات عليهم، وبكيتهم مع الباكين بين أطلالهم، ولقد كان الرشيد نفسه يبكى عليهم عند ذكرهم وقد رثاهم شاعره أبو نواس بأبيات رقيقة منها.

الآن استرحنا واستراحت ركابنا ... وأمسك من كان بحدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد أمنت من السري ... وطي الفيافي فدفدا بعد فدفد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ... ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تفضلي ... وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفا بر مكيا مهندا ... أصيب بسيف هاشمي مهند

ترك البرامكة فراغا كبيرا في إدارة الشئون لم يسهل علي الرشيد ملؤه بعد نكبتهم

إذ استوزر الفضل بن الربيع ولكنه كان أقل من جعفر شأنًا ومقدرة.

الحوادث الداخلية الأخرى:

الأحوال في أفريقية: ظل يزيد المهلي حاكما على أفريقية حتى مات سنة ١٧٠هـ، وتولى بعده أخوه حكمها، فسار سيرة أخيه وقمع كل الثورات والفتن التي قامت عقب موت يزيد، ولكن البلاد ثارت مرة أخري في عهد ابنه، فأرسل الرشيد قائده القدير هرثمة بن أعين فأخضع الثورة، وأعاد الأمن إلى نصابه، وتولى الحكم لمدة ثلاث سنوات، ثم استقال ورجع إلى بغداد، فتقدم إبراهيم بن الأغلب إلى الرشيد، وطلب منه أن يوليه حكم أفريقية حكما وراثيا، وتعهد بأن يرسل إلى بيت المال في بغداد أربعين ألف دينار سنويا، ولما كانت أفريقية تكلف خزينة الدولة مائة ألف دينار ترسل إليها سنويا من مصر، قبل توليته بناء على مشورة هرثمة، وقصر الحكم عليه وعلي أفراد أسرته من بعده، مشترطا موافقة الخليفة الجالس علي العرش علي من يتولى الحكم عند خلو المنصب، وأصبحت أفريقية بذلك مستقلة استقلالا ذاتيا، وتهيأ الأمر بقيام دولة الأغالبة في القيروان.

أحوال الدولة الخارجية:

أولًا: حروب الرشيد مع البوزنطيين (١٧٥-١٩٢هـ)

خالف البوزنطيون شروط المعاهدة التي عقدتها ايريني في زمن المهدي، وغزوا أراضي الدولة واعتدوا على حدودها، ونهبوا وسلبوا وأسروا كثيرا من المسلمين، فنهض الرشيد واتخذ مدينة طرسوس مركزا لأعماله الحربية، وسير عليهم جيشا تحت أمره قائد تركي في سنة ١٧٥هـ فردهم على أعقابهم، واستولى على مدينتين من مدنهم، وفي تلك السنة سارت سفن المسلمين واستولت على قبرص وكريت. وأسر أمير البحر الإغريقي وعرض عليه الإسلام، ولما رفض قتله المسلمون، ثم رجع البوزنطيون إلى اعتدائهم على حدود الدولة، فخرج إليهم الرشيد بنفسه في سنه ١٨١هـ ومعه جيش قوى يقوده رجال مهرة، فأنتصر الرشيد وطلبت أيريني الصلح على أن تدفع الجزية بطريقة منتظمة، وتبادل الفريقين الأسرى وتهادنا لمدة أربع سنوات.

انفردت أيريني بإدارة الشؤون في الدولة البوزنطية بعد أن تغلبت على ابنها ولقبت نفسها أوغسطا، ولكن الروم ثاروا عليها بعد أن حكمت بلادها خمس سنوات وخلعوها في سنة ١٨٧هـ، وتولي زمام الأمور بعدها وزير ماليتها المسمى نايسفوراس (نقفور) وعزم على فسخ المعاهدة المعقودة وكتب إلى الرشيد كتابا مهينا مهددا ومتوعدا، إذ قال فيه " من نقفور ملك الروم إلى هارون الرشيد ملك العرب. أما بعد فأن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا أن تحمل أضعافه إليها، ولكن ذلك لضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

يقول ابن خلدون فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه أو أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل منهم، ولم يجرؤ احد من وزرائه علي إبداء الرأي ثم تناول الكتاب وكتب علي ظهره: "بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد، فقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب دون ما تسمعه والسلام ".

تأهب الرشيد للقتال في اليوم نفسه وخرج علي جيش كبير وتابع السير حتى وصل هرقلة إحدى معاقل الروم. وهناك تقابل مع جيوش أعدائه فتغلب عليهم وانتصر نصرا مبينا، واضطر نقفور إلى عقد الصلح على أن يدفع جزية مضاعفة ورجع الخليفة المنتصر، وما كاد يصل الرقة حتى نقض نقفور الصلح ظنا منه أن البرد قارص.وأن الخليفة لن يرجع إليه في هذا الوقت، ولكنه كما قال جبون المؤرخ الشهير أخطأ فهم الرشيد وحزمه، فقد رجع الخليفة بسرعة أدهشت ملك الروم وتقابلت الجيوش وانتصر الرشيد بعد معركة دموية، وطلب نقفور الصلح مرة أخرى، فأجاب الرشيد طلبه، ولكن الروم نقضوا العهد مرارا عديدة ويقول موير «وفى كل مرة كان الرشيد ينتصر ثم يعفو»، وفى سنة ١٨٩هـ أرسل الرشيد ابنه لقاسم لتأديب الروم فأدبهم، وفى السنة التالية أنتهز نقفور قيام ثورة في المشرق وغزا بلاد المسلمين وارتكب فضائح عديدة فلم يطلق الرشيد صبرا

وترك الأمور لابنه المأمون، وسار على رأس جيش كبير لمعاقبة هؤلاء الأعداء الذين لا يعرفون عهدا، ولا يحترمون وعدا، وقد انتصر عليهم انتصارًا كبيرًا، واستولى على المدائن المهمة في آسيا الصغرى، وأبلى قواده بلاء حسنا، ففتح يزيد بن مخلد كونيه ويوفسيوس وليديا، وفتح شر حبيل ابن مع بن زائدة أربع مدائن أخرى من أشهر مدن الروم، وفتحت هرقلة وهزم الأعداء في كل مكان فطلبوا الصلح وأجاب الرشيد طلبهم وفرض الجزية على نقفور وعلى أفراد أسرته وبطارقته وأهل بلده فدفع ٣٠٠ ألف دينار.

جدد الروم القتال في سنة ١٩٨هـ وأغاروا على أطراف الدولة وأنزلوا بالمسلمين خسائر فادحة في مرعش وطرسوس ولم يستطع الرشيد الرجوع إليهم بسبب ثورة رافع بن ليث في خراسان وتأهبه للخروج إلى محاربة هذا الثائر بنفسه.

هذا وينتقد المؤرخون الرشيد مر الانتقاد بسبب تساهله مع الروم وقعوده عن مطاردتهم والقضاء عليهم، إذا كان في استطاعته طردهم جملة من آسيا الصغرى بل والاستيلاء على القسطنطينية عاصمة ملكهم.

ثانيًا: علاقة الرشيد بشرلمان

أرسل شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة سفراء من قبله إلي بغداد لأغراض مختلفة منها أنه طلب حماية المسيحيين الذين يخرجون إلي بيت المقدس بقصد المتاجرة أو تأدية فريضة الحج، ومنها أن طلب شارلمان من الرشيد المعاونة لإسقاط نقفور والتغلب على الدولة البيزنطية، وقد هرع طلاب العلم من الفرنجة إلي بغداد ينتهلون موارد العلم فيها ويعملون على نقل الثقافة العربية إلي بلاد الغرب، وكان رسل شارلمان يحملون الهدايا الثمينة إلي الرشيد، كما أن الرشيد أرسل له هدايا ردًا على هداياه، منها ساعة وفيل وأقمشة شرقية، ويقول موير ولم تتعد الصداقة بينهما هذا الحد.

أولياء عهد الرشيد:

ولد عبد الله المأمون بن الرشيد في اليوم الذي تولى فيه أبوه عرش الخلافة وولد أخوه مُحَمَّد الأمين بعده بشهور من أم أخرى وهي زبيدة حفيدة المنصور فكان المأمون أكبر

من أخيه الأمين وأحق منه بولاية العهد ولكن الرشيد عقد ولاية العهد لابنه الأمين في سنة ١٧٣هـ وكان سنه لا يتجاوز ثلاث سنوات، ولما استوزر الرشيد جعفر البرمكى أشار عليه أن يعقد لأخيه المأمون أيضا ليكون ولى العهد بعد أخيه، ففعل الرشيد ذلك أيضا في سنة ١٨٣هـ ثم طلب عبد الملك بن صالح من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم ففعل الرشيد ذلك أيضا في سنة ١٨٦ وسماه المؤتمن.

ثم قسم البلاد بين أولاده الثلاثة «فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والري إلي همذان، وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام، وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم".

رأى الملـــك المهـــذب شـــر رأى	لقســـمته الخلافـــة والـــبلادا
فقـــد غـــرس العـــداوة غـــير آل	وأورث شمـــل الفـــتهم بـــدادا
وألقـــح بيـــنهم حـــربا عـــوانا	وسلـــّس لأجتنـــابهم القيـــادا
ســـتجرى مـــن دمـــائهم بحـــور	زواخـــر لايـــرون لهـــا نفـــادا
فـــوزر بلائهـــم أبـــدا عليـــه	أغيـــا كـــان ذلـــك أم رشـــادا

وفي تلك السنة حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون وقوداه ووزراؤه وقضاته. وهناك كتب للمأمون كتابين اشهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما احدهما على مُحَّد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة. والشروط للمأمون على الأمين، وجعل الكتابين في البيت الحرام، وطلب من الأخوين القسم على احترام ما جاء بالكتابين، والعمل بهما، وفي الكعبة اقسم الأخوان (راجع نص القسم والكتابين في ابن الأثير) أن يحترما ما رغبة الخليفة. ثم كتب الرشيد إلى العمال والولاة بذلك. ويلاحظ أن زبيدة كانت من حجاج ذلك العام وشيدت على نفقتها الخاصة البئر المعروف باسمها حتى يومنا الحالي.

وفاة الرشيد وأخلاقه:

خرج الرشيد من بغداد في شهر شعبان سنة ١٩٢هـ قاصدا خراسان لإخماد ثورة

رافع بن ليث كما تقدم. وترك ابنه القاسم في الرقة ومعه قائد يسمى خزيمة بن حازم. وترك الأمين ببغداد. واستصحاب المأمون وزحف على خراسان ولكنه عندما وصل إلي قرية تسمى سنباد بجوار طوس (مسقط رأس الفردوس الشاعر) مرض واشتد عليه المرض ومات في ريعان شبابه في السنة الثانية والأربعين من عمره في يوم السبت رابع جمادي الثانية سنة ١٩٣هـ (٨٠٩م) بعد أن حكم حكما زاهرا لمدة ثلاث وعشرين سنة وستة شهور.

يعد الرشيد من أكبر ملوك التاريخ وأبطاله. وكان شديد الانفعال إذا غضب ولكنه كان جامحا لنفسه متفانيا في خدمة شعبه، عاملا على رقية وتقدمه، ساهرا على أمور مملكته الواسعة، عالما بدقائق أحوالها، وقد حج تسع مرات وكان يصلى في اليوم مائة ركعة فاشتهر بالورع والتقوى وكان بلاطه أفخم بلاط في عصره، أمه الشعراء والكتاب والمغنون من كل فج ليستفيدوا من عطاء الخليفة وسخائه، وفي أيامه ازدهرت العلوم والآداب، وارتقت الفنون الجميلة ارتقاء عظيما، وكان يجل العلم والعلماء ويميل إلي الأدب وأهله، وكان يكره المراء في الدين. وفي عصره قام الفقهاء وعلى رأسهم قاضى القضاة أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ونظموا مذهب الحنيفة، وكتب أبو يوسف كتابا في الخراج وهو من أجل الآثار التاريخية والاقتصادية للدولة الإسلامية. وقد شجع الرشيد حركة النقل والترجمة التي كانت قد ابتدأت في عهد المنصور، وفي أيامه عاش الأصمعي والشافعي وعبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس وإبراهيم الموصلي وجبريل بن بختيشوع الطبيب وغيرهم، ولهؤلاء مكانة في عالم الأدب والفقه والنحو مما لا يجهله العلماء. هذا وقد بلغت بغداد في عهده من الحضارة وسعة العمران ما لم تبلغه مدينة أخرى في تلك العصور.

٢- محمد الأمين (١٩٣- ١٩٨ه) (٨٠٩- ٨١٣م)

وُلِدَ الأمين سنة ١٧٠هـ بعد أخيه المأمون بستة شهور، وأمه هي زبيدة بنت جعفر بن أبي المنصور، فكان هاشميا من أبيه وأمه، وهو أمر لم يتفق لخليفة عباس غيره، ولما توفى

الرشيد في مدينة طوس كان الأمين في بغداد، فحمل صاحب البريد خبر وفاة الخليفة إلي العاصمة، وجاء صالح ابن الرشيد– وكان مع والده عند الوفاة– بالعباءة والسيف وسلمها إلي الأمين، وانتقل من قصر الخلد الذي كان يسكنه إلي قصر الخلافة، وفي اليوم التالي خرج إلي الجامع الكبير، وصلي بالناس، واعتلى المنبر وخطب خطبة العرش، وبويع بالخلافة، وأرسل إليه المأمون– وكان في مرو– بالهدايا الثمينة وهنأه بالخلافة وبايعه بها، وكذلك أسرع أخوه القاسم وكان في قنسرين وبايعه بالخلافة، وأما زبيدة فكانت بالرقة، ولما بلغها خبر اعتلاء ابنها العرش رجعت إلي بغداد، وخرج الأمين للقائها وقابلها عند مدينة الأنبار، ودخلا بغداد في موكب عظيم، وقد ظلت بجانب ولدها حتى مات

تربية الأمين وأخلاقه

عهد الرشيد بتربية الأمين للفضل بن يحي بن خالد البرمكى كما مر بنا وقام بتربية المأمون جعفر بن يحي بن خالد، وقد نال الأخوان تربية عالية، وتهذيبا تاما، وتعليما بالغا، فتلقيا علوم البيان والبديع والمعاني والفقه والحديث، وكانا يجيدان الخطابة، غير أن التعليم أثمر ثمرته المطلوبة في عقل المأمون، واقتصرت فائدته عند الأمين على ما كان من تهذيب خلقي، وذلك لما كان يظهره من انصراف عن الدرس، وميل إلي السرور واللهو، أما المأمون فقد حفظ القرآن و أجاد تفسيره، واشتهر بالحكمة و بعد النظر وقد فطن الرشيد إلى ما بين الأخوين من تفاوت في الأخلاق و الكفاية الشخصية، فعهد بأمر الشرق وحربه و دفاعه و خراجه إلى المأمون حتى لا يجد أعداء للدولة فرصة للإيقاع بها

كان الأمين تنقصه الدربة السياسية، " وأنت تعلم أن الدربة السياسية هي ناحية يؤبه لها كثيرا، في تنمية روح الحكم، و تقوية المواهب الإدارية و تنظيم ملكات السلطان في ولي العهد، خصوصا ذلك العصر الذي لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوفرة توافرها اليوم: من سياحة لولي العهد إلى الممالك المتمدينة، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية، كما هي حال ولي عهد انجلترا و نظرائه مثلا، مع أن الحاجة إلى الثقافة السياسية في ذلك العصر كانت أشد منها اليوم، لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطان فعلى

مطلق غير مقيد بقانون أو دستور إلى ما يرجع إلى دينه و ورعه."، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان مستهترا مسرفا، "مع خور خلقي وعدم تبصر في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور"، و لا أدل على إسرافه مما رواه أحد المعاصرين له وهو سعيد بن حميد فأنه يقول: لما ملك مُحَمَّد وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه، و أجرى عليهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فره الدواب وأحد الوحوش والسباع والطير وغير ذلك، واحتجب عن أخواته و أهل بيته و قواده واستخف بهم، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر على خصيانه وجلسائه ومحدثيه، وحمل إليه ما كان في الرقة من الجواهر والخزائن والسلاح، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه و لعبه بقصر الخلد والخيزرانية، وبستان موسى و غيرها، و أمر بعمل خمس حراقات في دجلة، على خلقة الأسد.

والفيل والعقاب والحية و الفرس، و انفق في عملها مالا عظيما و قال أبو نواس شعرا في هذا المعنى يمدحه منه

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب

فإذا ما ركابه سرن برا سار في الماء راكبا ليث غاب

وذكر الحسين بن الضحاك، وهو شاعر الأمين، شيئا عن إسراف الخليفة، قال: "ابتني الأمير سفينة أنفق عليها ثلاثة آلاف إلف درهم، و اتخذ أخرى على خلقه شئ يكون في البحر يقال له الدلفين"، وقال أبو نواس في ذلك شعرا أيضا، وقد روى المؤرخون روايات أخرى كلها تدل على تبذير الخليفة و عدم تقدير للمال. وقال المسعودي في وصف أخلاق الأمين ما يأتي: "إن الأمين كان باسطا يده بالعطاء، قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سفاكا للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الخطوب على غيره، و يثق بما لا ينصحه"، وقال ابن الأثير" لم نجد للأمين شيئا من سيرته نستحسنه فنذكره". و وصفه الفضل بن الربيع وزيره و وزير أبيه من قبله بقوله: "ينام نوم الظربان لا يفكر في زوال نعمة، و لا يتروى في أمضاء رأي و لا مكيدة، قد ألهاه كأسه و شغله قدحه، فهو

يجري في لهوه، و الأيام تسرع في هلاكه"، وورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ۲۰۳ المجلد الأول ما يأتي: "وهناك ظاهرة خليقة في أخلاق الأمين، و هي حبه للاستخارة و احتفاله بالبحث عن أمر طالعه، و ركونه حتى في آخر لحظة من حياته، و هي لحظة التقرير في مصيره، إلى منام رآه ...... وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام أموره بالاستخارة و وحي الأحلام، بل كان يجعل جل اعتماده على مشورة رجالاته و ذوي النصيحة من أنصاره"، "وكان طيب القلب، يعفو حتى عن الخارجين عليه، و المسيئين إليه، وأن موقفه مع حسين بن علي بن ماهان لمعروف مشهور".

أحوال الدولة الداخلية في عهده

أولًا: التنافس بين الأمين و المأمون

جرى الرشيد على سنة تقسيم البلاد بين بنيه، وسن لهم نظاما لولاية العهد كما تقدم، فكان ذلك سببًا في قيام المشاكل والحروب بين الأخوين وذلك أن الرشيد أوصى وهو بطوس بالجيش الذي كان معه و بالمال و السلاح إلى ابنه المأمون، و جدد له البيعة على القواد الذين كانوا معه، وكان الأمين يتوقع وفاة أبيه، فأرسل رسوله بكر بن المعتمر بخطابين يسلمان لصاحبهما بعد وفاة الخليفة، وكان أحد الخطابين للمأمون يعزيه فيه عن أبيه، ويأمر أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة، و للمأمون بولاية العهد، و للقاسم المؤتمن بعده، أما الخطاب الثاني فكان لصالح ابن الرشيد يأمره فيه بالاجتهاد، و أن يأخذ البيعة على من معه، ثم للمأمون ثم للمؤتمن على الشريطة التي اشترطها الرشيد، وطلب منه أن يسير إليه بجميع الجنود و الذخائر و السلاح، و إلا ينفذ رأيا أو يبرم أمرا إلا برأي الفضل بن الربيع، فانتهز الفضل هذه الفرصة و أمر الناس بالرحيل، ففعلوا ذلك، "محبة منهم للحاق بأهلهم و منازلهم ببغداد، و تركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون"، و لما وصل الفضل إلى بغداد بايع الأمين بالخلافة و فرح به الأمين فرحا شديدا و استوزره و وكل إليه تدبير الملك، و أمره بتوزيع مرتبات الجند لهم مدة سنتين مقدمًا.

بلغ المأمون خبر عودة الجند إلى أوطانهم، فلم ينزعج بل جمع ثقاة أصدقائه ومنهم الفضل بن سهل – وكان فارسي الأصل اشتهر بحصافة الرأي وإصالة الفكر – وشاورهم في الأمر فرأى فريق أن يرسل المأمون ألفين من رجاله إثر الجيش ليردوه إليه، و لكن الفضل رأى أن يكتفي بإرسال رسل يذكرون القوم بسابق عهدهم، وأخذ المأمون برأي الفضل ابن سهل، وأرسل رسولين بكتاب إلى زعماء الجيش وقواده، ووصل الرسولان وكان الجيش بنيسابور، فلم يعر القواد طلب المأمون التفاتا وصمموا على العودة إلى بغداد وعلى رأسهم الفضل بن الربيع، ولما وقف الفضل بن سهل على الخبر، قال للمأمون "أعداء استرحت منهم"

وأخذ المأمون بعد ذلك عززه مركزه في خاراسان، فاتبع سياسة رسمها له مستشاره الأمين الفضل بن سهل، و تقرب من رؤساء العشائر وتحبب إلى رعيته وخفض الضرائب، و بعث إلى من بالحضرة من الفقهاء، و دعاهم إلى الحق و العمل به، وإحياء السنة و أخذ يقيم العدل بين الناس و يرد المظالم، حتى سر به أهل خراسان سرورا عظيما، و عاضدوه و ناصروه، وقالوا " ابن أختنا وابن عم نبينا صلى الله عليه و سلم، إذا كانت أمة فارسية الأصل، و أصبح مركزه في تلك البلاد قويا ومع ذلك فقد أظل أمينا على عهده، وتواترت كتبه إلى أخيه محمد الأمين بالتعظيم و الهدايا إليه من طرف خراسان، من المتاع و الآنية و المسك و الدواب والسلاح، ولم يكن في نية الأمين أن يسير إلى أبعد مما كان فيه نحو أخيه وكان في عزمه الوفاء لأخويه المأمون و القاسم ولكن "البطانة لعبت دورًا شنيعًا، في إشعال جذوة الحقد والسخيمة بينهما، وعملت على إضرام أوارها، و سعد جهدها في توسيع مسافة الخلف بين الأخوين".

أخذ الفضل بن الربيع، بعد أن نكث بعهده للمأمون، يزين للأمين خلع المأمون من ولاية العهد، إذ علم أن الخلافة أن أفضت إلى المأمون يوما و هو حي لم يبق عليه، و كان يترقب في ظفره به عطبه، و خضع الأمين لمشورة و زيره الداهية، و صرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، و كتب إلى جميع العمال في الامصاء كلها بالدعاء لابنه موسى

بالإمرة، بعد الدعاء له و للمأمون و القاسم بن الرشيد، وكان ذلك في سنة ١٩٤هـ، ثم عزل أخاه القاسم عما كان ولاه أبوه من الأعمال، و أقدمه بغداد، فلما بلغ ذلك المأمون و عرف أن أخاه يدبر خطة لخلعه قطع البريد عنه، و أسقط اسمه من الطُّرز، ومن ثم ابتدأ بين الأخوين نوع من الصراع السياسي، يديره الفضل بن الربيع من جانب الأمين، و الفضل بن سهل من جانب المأمون و قد اتصف هذا الوزيران بالحنكة السياسية و المكر والخداع، وبذل كل منهما جهد طاقته للانتصار على منافسه، و نشبت بين الطرفين حرب كلامية كانت بلا ريب مقدمة لوقوع الحرب العامة، و أرسل الأمين في السنة عينها وفدا سياسيا إلى المأمون، على رأسه العباس بن موسى بن عيسى، ليطلب إليه تقديم موسى بن الأمين، على رأسه العباس بن موسى بن عيسى، ليطلب إليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه "الناطق بالحق" على نفسه في ولاية العهد، و استقبل المأمون الوفد وأكمه إكرامًا كبيرًا، و امتنع عن إجابة طلب الخليفة، و لما عاد الوفد واخبر الأمين بامتناع المأمون، ألح عليه الفضل بن الربيع و على بن ماهان في البيعة لابنه موسى وخلع المأمون، فأجاب الأمين إلى ذلك، وورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٢٩ ما يأتي: "لم يكتف الفضل بهذا و لا بالكثير من أمثاله، مما ينتظر من مثله في مثل تلك الظروف، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون و القاسم بن الرشيد، و حظر الدعاء لهما على المنابر، بل دس من ذكر المأمون بسوء، و حط من قدره، ولصق به أقبح النقائص والمثالب، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب. ولم يكتف الفضل بهذا، بل وجه إلى مكة كتابًا مع مُحَمَّد بن عبد الله، أحد سدنة البيت الحرام، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على مُحَمَّد الأمين، وكان حظهما من الأمين لما صار إليه حظ غيرهما من العهود في ذلك العصر "والمعاهدات" و"قصاصات الورق" في عصرنا الحاضر فمزقهما وأبطلهما، وأجاز سراقهما".

اشتدت الحرب الكلامية بين الأخوين اشتداد عظيمًا، وبالغ المأمون في حذره، وأخذ هو وحزبه الحيطة والاستعداد للطوارئ، فوجهوا حراسًا من قبلهم على الحدود، حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصة للاتصال بأحد من أتباع المأمون، ودس الفضل بن

سهل قومًا اختارهم، ممن يثق بهم من القواد والوجوه ببغداد، ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته يومًا فيومًا، "وكان التجسس لذلك العهد فنًا منظمًا متقدمًا".

ازداد الخلاف بين الأخوين زيادة أدت بالخليفة أن يعمد إلى استعمال القوة الحربية لإخضاع المأمون، وأعلن المأمون نفسه خليفة، وجعل ابن سهل وزيره، وأسند إليه الأعمال الحربية و الإدارية، وتلقب بذي الرياستين وأمتد ملك المأمون من حمدان إلى تبت، ومن بحر قزوين إلى الخليج الفارسي، ولما علم رافع بن ليث بعدل المأمون سلم ودخل في طاعته، ثم أخذت العداوة تتعاظم بين الأخوين، وقطعت الدروب بينهما من بغداد إلى خراسان، وأبطل كل منهما اسم أخيه من الخطبة، وبقدر ما كان عند المأمون اليقظة والحزم، كان عند الأمين من الإهمال والتفريط والغفلة، واستمر في ملذاته بين الجواري، يدير الكؤوس ويسمع الموسيقى والغناء، ويشهد الرقص من مائة جارية، يرقصن معًا ثم يختفين ويعدن في عشرات كل تحمل أوراق النخيل أو الزيتون حتى هزمت جيوشه في الميادين، وظفر به أعداؤه في النهاية.

ثانيًا: الحرب بين الأمويين والمأمون (١٩٥ – ١٩٨هـ)

رفض المأمون مطالب الأمين، فعمد إلى استعمال القوة لإخضاعه، وعقد لعلي بن عيسى بن ماهان على نهاوند وهمذان وغيرهما من البلدان، وضم إليه جماعة من القواد، وأمر له بمائتي ألف دينار وسيوف محلاة وخلق وثياب، وفي ١٠ جمادي الآخرة سنة ١٩٥هـ خرج القائد ومعه أربعون ألف مقاتل من بغداد لمقاتلة المأمون، وحمل معه قيدًا من الفضة ليقيد به المأمون عندما يقبض عليه، وتابع سيره حتى نزل همذان، ومنها زحف حتى وصل مدينة الري، وكان المأمون قد أرسل طاهر بن الحسين ليدافع عن الحدود، وكان معه نحو أربعة آلاف من الجنود، فخرج لملاقاة جند الأمين، ووقع القتال بين الطرفين وانتصر طاهر نصرًا مبينًا، وقتل قائد الأمين، وكتب طاهر إلى الفضل بن سهل يبشره بالنصر كتابًا قصيرًا جاء فيه: "أطال الله بقاءك، وكبت أعداءك، وجعل من يشناك فداك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى في حجري وخاتمه في يدي، والحمد لله رب العالمين" فلما

وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمير المؤمنين، وأمد طاهرًا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمنين وصاحب حبل الدين، وكان من نتائج هذه الهزيمة ان ثار الجند ببغداد وطلبوا الأرزاق لاعتقادهم أن مُحمَّد أصبح في حاجة إليهم، فأجاب الأمين مطبهم، وأعطاهم أرزاق أربعة أشهر، ثم وجه قائدًا من قواده يسمى عبد الرحمن بن جبلة النباري في عشرين ألف رجل إلى همذان لقتال طاهر، ووصل عبد الرحمن إلى همذان وحصنها، واستعد للقتال وخرج إليه طاهر، واقتتل الفريقان قتالًا عنيفًا انتهى بخذلان عبد الرحمن وقتله، وانتصر طاهر ثم زحف على قزوين ودخلها بعد أن فر عاملها من قبل الأمين، وجعل فيها جندًا كثيفًا وولاها رجلًا من أصحابه.

اضطربت الأحوال في بغداد، ورأى الفضل بن الربيع أن يسند قيادة الجند إلى قائد قدير، وهو أسد بن يزيد بن مزيد، فقبل القيادة على شروط لم يوافق عليها الأمين، وغضب عليه وسجنه، واسند القيادة إلى أحمد بن مزيد، وأمر الفضل أن يدفع إليه ذخائر أسد، وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب، وبلغ عددهم نحو عشرين ألفا، ثم ضم إليه قائدًا آخر هو عبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفًا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرًا عنها، فتوجها حتى نزلا قريبًا من حلوان، فدس طاهر الجواسيس إلى عسكريهما، فأوقعوا الخلاف بين القائد فتقاتلا ورجعا من حيث أتيا، فتقدم طاهر ودخل حلوان في سنة ١٩٦هـ،

أرسل المأمون هرثمة بن أعين، ومعه كتاب إلى طاهر يأمره فيه أن يسلم له الكور والمدن ويتوجه إلى الأهواز، فسلم ذلك إليهن وأقام هرثمة بحلوان فحصنها، ووضع مسالحه ومراصده في طرقها وجبالها. وتوجه طاهر إلى الأهواز ليستعد للهجوم على بغداد من الجهة الأخرى، وبذلك استعد القائدان هرثمة وطاهر للزحف على عاصمة الخلافة من الشرق والغرب.

ازدادت الحالة سوءًا في دار الخلافة، وضعف مركز الخليفة لإهماله واستمراره في غيه، وثارت الشام في وجهه بقيادة السفياني على بن عبد الله ابن خالد بن يزيد بن

معاوية، الذي طلب الخلافة لنفسه، ودخل دمشق وطرد عاملها من قبل الأمين، واخضع ما حول الشام، ولم يستطع الخليفة إخماد تلك الثورة بسبب ضعف السلطة المركزية في بغداد، وظلت تلك الثورة قائمة ثلاث سنين، وكاد الثائر ينجحن لولا ما كان من شقاق بين مضر وحمير، وفي تلك الأثناء خرج داود بين عيسى بن موسى عامل الأمين على مكة والمدينة على الخليفة، عند ما علم بخلع الأمين للمأمون، وأخذه للكتابين اللذين كانا بحوف الكعبة وتمزيقهما، وأعلن خروجه على الأمين، وبايع المأمون، وأجابه إلى ذلك أهل مكة، وفي رجب سنة **١٩٦**هـ نادى في البيت الحرام بخلع الأمين وبيعه المأمون، ثم كتب إلى ابنه سليمان، وكان في المدينة، يأمره أن يفعل بها ما فعل بمكة، ثم سار إلى مرو وقابل المأمون وأخبره بما تم في الحجاز، فسر المأمون سرورًا عظيمًا، وأقر داود على ولاية الحجازن وكان الأمين قد أرسل الحسين بن علي بن عيسى إلى الشام لإخماد الثورة بها، ولكنه أساء جند الشام بتفضيل الخراسانيين عليهم، وعاد فجأة إلى بغداد فوصلها ليلًا، وأرسل الأمين في طلبه فأجابه بقوله: "الوقت ليل، ولما لم أكن نديمًا ولا مضحكًا ولا مغنيًا فموعدنا الصبح"، وكان قد عزم على خلع الأمين، فإذا كان الصبح هيج القوم ببغداد، وأبان لهم ما سيكون من نصر قريب للمأمون، وطلب إليهم أن يعلنوا انضمامهم إليه، وسار يقودهم حتى عبر دجلة، وشتت حرس الأمين، وقبض عليه وعلى أمه زبيدة وسجنهما في قصره ببغداد، وأعلن الخلافة للمأمون، ولكن القوم في بغداد ما لبثوا أن ثاروا في وجه الحسين وقبضوا عليه، وأعادوا الأمين إلى عرشه، وقدموا إليه الحسين فعفا عنه، وأنعم عليه وولاه قيادة الجند ثانية، ولكنه ما كاد يخرج من المدينة حتى سخر من جنده، وصاحوا به فهرب، وجد الجند في اللحاق به فأدركوه وقتلوه، وعلى أثر ذلك الحادث اعتزل الفضل ابن الربيع العمل، لأنه كان من المشجعين لخطة الحسين في الخروج على الأمين.

ثالثًا: الاستيلاء على بغداد وقتل الأمين سنة ١٩٨ ه

سلم طاهر القيادة إلى هرثمة في حلوان، وذهب إلى فارس فاستولى عليها بعد أن

قتل عاملها مُحَمَّد بن يزيد المهلبين ثم خرج من فارس بعد أن نظمها، متوجهًا إلى وسطها ودخلها، ومنها وجه قائدًا إلى الكوفة وكان عليها العباس بن موسى الهادي من قبل الأمين، فبادر إلى خلعه ومبايعة المأمون وبذلك تم لطاهر ما بين واسط والكوفة، وبايع أمير البصرة المأمون، وكان ذلك كله في رجب سنة ١٩٦هـ ثم سار طاهر إلى المدائن واستولى عليها من غير قتال، ثم تقدم نحو بغداد، وعسكر بجنده على الجهة الغربية المقابلة لها وحاصرها، وكان هرثمة قد وصل بجيشه من الجهة الشرقية، وحاصرها من جهته كذلك، واستمر الحصار سنة لاقت فيها المدينة كل ضروب الشدة، وعمت فيها الفوضى، وفتحت السجون وفر السجناء، ودافع أهل بغداد عنها دفاعًا قويًا، مات من الطرفين خلق كثير، ثم دخل طاهر المدينة، ودال القتال في شوارعها، وخرب طاهر أحياء كاملة، ومنع القوت عن القوم فزادت مصائبهم، وكان منظر الأطفال والنساء وهم يموتون جوعًا يذيب القلوب، وهدمت القصور الفخمة، وأصبحت بغداد في حالة يرثى لها.

عندئذ أخذ قواد الأمين ينضمون إلى طاهر، ولما خلت الخزينة من الأموال، أذاب ما عنده من أنية ذهبية وفضية، ليستعين بها على الدفاع عن نفسه، بتوزيعها على الرجال، فوقف أهل المدينة إلى جانبه، واستمر القتال حتى سنة ١٩٧هـ، وأخيرًا صمم طاهر على أخذ المدينة عنوة، واتفق مع هرثمة على الهجوم، وقاما معًا بذلك، ولما وجد الأمين أن الأمر قد أفلت من يده، ودع أهل بيته وداعًا مؤثرًا، وخرج من قصر الخلد إلى قصر القرار حيث أقام ثلاثة أيام كانت الباقية له من حياته، وكان يقيم معه عمه إبراهيم ابن المهدي، ولم يكن للأمين إذ ذاك سوى أحد أمرين، إما أن يسلم نفسه وأما أن يهرب، ففكر في الهروب إلى الشام، وكان طاهر يعلم بما يدور في نفس الأمين، فهدد من تبقى من رجال الأمين بشديد العقاب إن لم يجبروه على التسليم، فاغروه بذلك ولكنه رفض أن يسلم نفسه لطاهر، وقبل أن يكون ذلك الهرثمة، فعارض طاهر في ذلك مخافة أن ينسب النصر لزميله، وأخيرًا اتفقا على أن يسلم الأمين نفسه لهرثمة، ويتسلم طاهر خاتم الملك وعباءة الخلافة وسيف الخليفة.

سار هرثمة بالأمين إلى شط لنقله إلى معسكره. وكان قد أعد قاربًا لذلك، وعامله بكل أدب واحترام، ولكن ما كاد القارب يبتعد عن الشاطئ قليلًا حتى رجمه جند طاهر من الفرس بالحجارة، وأمطروه وابلًا من السهام، فانقلب الزورق بمن فيه وكاد هرثمة يغرق لولا أن انتشله أحد القوم من شعر رأسه، وعبر الأمين النهر سباحة حتى خرج، وكاد يموت بردًا وقبض عليه الجند وقادوه إلى منزل صغير، فإذا كان الليل هاجمه جماعة من الفرس وقتلوه، وفصلوا رأسه وأرسلوها إلى طاهر فعرضها على أسوار بغداد، ثم أرسلها إلى المأمون مع بقية شارات الملك، وكان موت الأمين ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ — سبتمبر سنة ٨١٣م

يقول موير "إن انتصار المأمون على الأمين كان يماثل انتصار العباسيين على الأمويين، إذ كان انتصار للفرس على العرب".

الباب الخامس

عصر المأمون

١ – عبد الله المأمون(١٩٨ – ٢١٨ هـ) – (٨١٣ – ٨٣٣ م)

وُلِدَ المأمون في اليوم الذي تولى فيه أبوه الخلافة، وكان ذلك في سنة ١٧٠هـ. وكانت أمه فارسية الأصل تسمى مراجل، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره عين واليًا للعهد بعد أخيه الأمين، وتولى عرش الدولة بعد قتل أخيه وكان إذ ذاك في الثامنة والعشرين، ودخل الناس في بيعته عامة واعترف الجميع بخلافته اعترافًا جليًا صريحًا، ولكنه ظل في مدينة مرو عاصمة خراسان ولم يتركها إلى بغداد كما كان يفعل الخلفاء الذين سبقوه، ووثق بالفضل بن سهل وثوقًا تامًا، وأجاز له تصريف شئون الدولة وفق ما أراد، واشتغل هو بالمسائل العلمية والفلسفية، وصرف وقته في المجادلات والمناظرات الكلامية بين جمهور العلماء الذين هرعوا إليه وأموا بلاطة في مرو من كل حدب وصوب، فنشأ عن ذلك أن قامت الفتن في أنحاء العراق وفي بلاد العرب ومصر، وتشاك العلويون نشاطًا كبيرًا ورأوا، هم وشيعتهم، أن الظرف مؤاتي لاسترداد كرسي الخلافة والقضاء على الحكم العباسي، وإليك بيان تلك الحوادث.

أحوال الدولة الداخلية في عهده

أولًا: الفترة الأولى (١٩٨ – ٢٠٤هـ)

أقام المأمون في مدينة مرو حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤هـ، وفي أثناء تلك المدة كان الفضل بن سهل وزيره الأكبر مطلق اليد في إدارة شئون الدولة وتصريف أمورها، واستأثر بالنفوذ والسلطان وعصب عيني الخليفة عما كان يجري في أنحاء الإمبراطورية، وبذل جهد طاقته حتى أقام أقاربه وأصهاره وأعوانه حكامًا وولاة، وأطلق لهم العنان في

جميع الشئون، ورأى أن الأمر لا يتم له إلا إذا أبعد عن العراق كلا من هرثمة ابن أعين وطاهر بن الحسين، وهما القائدان القديران اللذان انتزعا الخلافة من الأمين بحد سيوفهما وحسن بلائهما في الحروب، وأقاما مكانه أخاه المأمون كما مر بنا.

استصدر الفضل أمرين من المأمون، أولهما بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما افتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والأهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن، وطلب إلى طاهر أن يسلم الوالي الجديد جميع ما بيده من الأعمال، وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث العقيلي الذي ثار في سنة ١٩٨هـ مطالبًا بثأر الأمين صديقه، وكان الأمر يتضمن تولية طاهر الموصل والجزيرة والشام والمغرب، وقد أطاع طاهر أمر الخليفة وخرج من العراق غاضبًا لملاقاة الثائر، ولكنه لم يجد في مقاتلته لما كان في نفسه من غضب وألم، وانتصر نصر وظل ثائرًا حتى سنة ٢١٠هـ، فتغلب عليه المأمون وانتصر عليه قائده عبد الله بن طاهر، وسلم نصر بعد أن طلب الأمان وأجيب إلى طلبه وتوجه إلى العاصمة حيث وكل به من يقوم بحراسته.

أما الأمر الثاني فكان إلى هرثمة بن أعين يكلفه به أن يشخص إلى خراسان فصدع بالأمر، وخرج من العراق قاصدًا خراسان، "وبذلك خلا العراق من أسديه –كما ورد في كتاب الخضري بك صحيفة ١٩٦ – وأهل العراق من قديم عبيد القوة، ولا سيما أنهم خارجون من ثورة وهياج، فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدي المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا".

غضب بنو هاشم ومن كان بالعراق من وجوه القوم لاستسلام المأمون لوزيره الأكبر، واستخفوا بالحسن بن سهل، فانفرط عقد النظام والأمن تحركت الفتن والثورات في البلاد والأمصار، فخرج مُحَمَّد بن إبراهيم ابن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن علي الكوفة وعاضده أبو السرايا السري بن منصور الشيباني، وكان سابقًا من رجال هرثمة المخلصين، واستطاع مُحَمَّد ويعر بابن طباطبا بمعاون صديقه أن يستولى على البصرة ومعظم بلاد العراق، وضرب نقودًا باسمه وكتب عليها: "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله

صفًا كأنهم بنيان مرصوص"، وانتصر على جيش أرسله إليه الحسن ابن سهل بقيادة زهير بن المسيب، وأرسل رسله إلى مختلف بلاد العرب ينشرون دعوته، ولكنه مات فجأة في أول رجب سنة ١٩٩، فأقام أبو السرايا مكانه علويًا آخر وهو مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن زيد بن علي بن الحسين، وكان غلامًا أمرد فأرسل الحسن بن سهل جيشًا ثانيًا، فانتصر عليه أبو السرايا انتصارًا باهرًا في رجب من السنة عينها، وقتل قائده، واستباح عسكره، وكبر شأن أبي السراي نتيجة لهذه الانتصارات، واشتد ساعد العلويين، وخاف الحسن ابن سهل عواقب انتشار الفتن، ورأى هرثمة هو القائد الذي يستطيع أن يقضي على تلك الثورة، فأرسل إليه يسأله العودة إلى بغداد، وكان قد وصل إلى حلوان، فأبى العودة، ولكن الحسن ألح عليه راجيًا، فعاد وجهز نفسه للزحف على الكوفة. وبعد أن اختار جنده خرج بهم واستولى على المدائن، وطرد منها عمال أبس السرايا، وعند قصر ابن هبيرة تقابل مع قوات الثائر وتغلب عليها، وفر أبو السرايا إلى القادسية في المحرم سنة ٢٠٠هـ. ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها، ثم خرج أبو السرايا من القادسية إلى مدينة السوس من بلاد فارس، وهناك قابلة الحسن بن علي المأموني وقاتله قتالًا شديدًا، وتغلب عليه، وجرحه جرحًا بليغًا، وفر من الميدان طالبًا منزله برأس العين، ولكنه وقع في يد رجال ابن سهل، وكان مقيمًا بالنهر وان فأحضروه إليه فضرب عنقه، وأرسل رأسه إلى المأمون في مرو وبعث بجسده فصلب على جسر بغداد، واستراح المأمون من شر ثائر قوي دامت ثورته عشرة أشهر، أما غلامه العلوي فقد عفا عنه المأمون وأدخله في حاشيته.

استرجع جيش المأمون البصرة، وأخذ عاملها من قبل أبي السرايا أسيرًا وكان رجلًا ظالما عرف بالحراق، لكثرة من أحرق من العباسيين بالنار، وما أحرقه من دور البصرة، ثم استمرت قوات الخليفة تعمل على استرجاع البلدان في الحجاز واليمن من العمال العلويين الذين كان أبو السرايا قد أقامهم يحكمون باسم خليفته، وكان هؤلاء الولاة قد ساءت سيرتهم، وكثرت شرورهم، وبخاصة في مكة والمدينة، مما أدى إلى إثارة الرأي العام ضدهم. وانتشرت الفوضى في سنة ٢٠٠هـ في موسم الحج، إذ تولاه أكثر من شخص لتتعدد السلطات، "فندب المأمون أبا إسحاق بن هارون الرشيد، ووجه إبراهيم بن موسى الطالبي

الذي خرج باليمن رجلًا من ولد عقيل ابن أبي طالب، كما وجه غيره من يمثله، مما يدل على الفرقة والانقسام، وعلى الفوضى والاضطراب"، ولكن هرثمة ورجالة تمكنوا من إعادة تلك البلاد غلى حظيرة الدولة العباسية بعد أن تعلبوا على العلويين والطالبين الواحد بعد الآخر، وكان آخرهم مُحَمَّد بن جعفر الصادق فإن أهل مكة بايعوه بالخلافة بعد قتل أبي السرايا وقبلها بعد تردد، وقد اشتهر بالورع والتقوى والعلم، وبعد أن تقلب بأمير المؤمنين ومكث خليفة بضة أشهر طلب الأمان من ورقاء بن جميل رئيس القوة التي أرسلها هرثمة لإخضاع مكة فأجيب إلى طلبه، وعفا عنه المأمون، وعامله بالحسنى.

سقوط هرثمة وقتله:

نجح هرثمة نجاحًا عظيمًا في إخماد الثورات التي قامت بالعراق والحجاز واليمن وبعد أن تم عمله سار إلى النهر وإن لم يذهب غلى بغداد لمقابلة الحسن ابن سهل، وهناك أتاه أمر الخليفة بتوليته سوريا والحجاز، ولكنه عزم على السير إلى مرو ليقابل المأمون، ويطلعه على حقيقة الحال في أنحاء الأجزاء الغربية للدولة العباسية، ويبين له ما وصلت إليه الأقطار بسبب استئثار الفضل بالسلطان في الدولة، وما يحيق بالخلافة العباسية من الأخطار بسبب بقاء الخليفة في مرو والابتعاد عن بغداد، فلما أحس الفضل بن سهل بما ينويه هرثمة أخذ يدس له عند المأمون بمختلف الوسائل وشتى الأساليب، حتى تغير قلب الخليفة على قائده الكبير، ولما وصل هرثمة إلى مرو دق الطبول عند دخوله المدينة، حتى يعلم المأمون خبر وصوله خشية أن يكتم الفضل هذا الخبر عن سيده، ولكن قيل للخليفة عندما سأل عن سبب دقة الطبول أن هرثمة جاء يبرق ويرعد، فازداد غضب المأمون واستدعاه، ولما مثل بيد يديه أغلظ له القول، وعنفه تعنيفًا شديدًا، ناسبًا له ثورة أبي السرايا لأنه كان من جنده، وكذلك مخالفته أوامر الخليفة لأنه لم يذهب لاستلام منصبه عندما جاءه الأمر بذلك، ولما هم القائد بالكلام ليشرح مولاه الحالة هجم عليه الحرس، وانهالوا عليه ضربًا ولكما على وجهه وجسمه، ثم سحبوه بسرعة إلى السجن حيث مات بعد زمن قصير متأثرًا بجروحه، ولقد نسب بعض المؤرخين موته إلى أناس بعث بهم الفضل إليه في سجنه فأماتوه، وقد ورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٦٤ ما يأتي:

"وهكذا انطوت صحيفة هذا القائد العظيم الذي ذب عن ملك المأمون، وكافح في توطيد دعائم الدولة من أفريقية إلى خراسان، والذي يرجع إليه الفضل الأكبر في انتصار المأمون على أخيه الأمين. ومات هذا القائد ضحية للسعاية ونكران الجميل، كما مات أمثاله من قبل من صناديد هذه الدولة من جراء السعاية والمنافسة، ومن جراء أعمال البطانة ودسائس الحاشية".

كان من نتائج سقوط هرثمة أن ثار الجنود في بغداد، وطردوا الحسن ابن سهل، وطردوا عماله منها، فخرج الحسن إلى المدائن، وارتد منها إلى واسط، وعمت الفتن والقلاقل المدينة، واستمرت فيه عدة شهور وسارت بغداد بسبب تلك الحروب مسرحًا للنهب والسلب والتقتيل، وأصبح الأمر فيها للغوغاء والفساق واللصوص، وأسرفوا في غيهم إسرافًا عظيمًا، مما فزع له أعيان المدينة ووجهاؤها، فاتفق رأيهم، وجمعوا جموعهم، وأخضعوا الغوغاء، وأعادوا الأمن والسكينة، وطلبوا إلى المنصور بن المهدي أن يقبل الخلافة، فأبى ذلك.

وقبل أن يكون أميرًا على المدينة يحكمها باسم المأمون، ولكنهم ما لبثوا أن رأوا مصالحة الحسن بن سهل على أن يعود إلى بغداد فعاد إلى المدينة في آخر سنة ٢٠٠هـ وأصدر عفوًا عامًا، ووزع الأرزاق على الجند، ودفع لذوي المرتبات رواتبهم، فهدأت الأحوال ولكنها عادت إلى سيرتها الأولى من الاضطراب بسبب بيعة المأمون لعلى الرضا بالخلافة من بعده.

بيعة المأمون لعلى الرضا:

سبق أن قدمنا أن الفضل في نصرة المأمون على الأمين يرجع إلى أهل خراسان ووجوه القوم فيها بسبب تفضيله الفرس على العرب، واتخاذه حاشيته وبطانته منهم مقدمًا إياهم على العرب، وكان الفرس على رأسهم ذو الرياستين يعجبهم أن يكون أمام المسلمين علويًا، وكثيرًا ما قاتلوا في سبيل رجوع السلطان إلى بني عليٍّ، وكان الممون متشبعًا بالروح الشيعية يفضل الإمام عليًا على غيره من الخلفاء الراشدين، إذ تربى في

أحضان جعفر البرمكي، وهو فارسي من أهل الشيعة، ولما كبر استوزر الفضل بن سهل، وهو سيعي آخر، ولذلك أراد المأمون أن يختار للخلافة من بعده علويًا، إرضاء لعقيدته أولًا، وترضية للعلويين ثانيًا، حتى يريح الدولة من شر خروجهم المتكرر، ولكن فات المأمون ومستشاره أن زمن الصلح مع العلويين كان قد فات أوانه، وأن العهد بالخلافة في ذلك الوقت كان بمثابة طعنة نجلاء وجهت إلى صدور العباسيين، "إذ كان الشر قد استطار بين الفريقين، وصار أمر الوفاق بينهم حلمًا، وعاد الإقدام عليه سخفًا وحماقة مهلكة".

اختار المأمون في شهر رمضان سنة ٢٠١ هـ لولاية عهده، وللخلافة من بعده علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو الثامن من أئمة الشيعة الأمامية الأثنى عشرية، وأمر الجند أن يطرحوا السواد لباس العباسيين الرسمي ويلبسوا اللون الأخضر وهو اللباس الرسمي للعلويين، وأعلن للملأ أنه بحث بين العباسيين بحثًا دقيقًا فلم يجد من بينهم لائقًا للخلافة من بعده، ولذلك بايع علي الرضا، وأرسل أمرًا لولاته في مختلف الأمصار بأخذ البيعة لولي عهده، وطلب الفضل بن سهل من أخيه الحسن أن يعلن الأمر في بغداد ويأخذ البيعة على أهلها لعلي الرضا، ولما هم بتنفيذ الأمر غضب أهل بغداد غضبًا شديدًا، وثار العباسيون منهم إذا شعروا أن الضربة موجهة إلى خلافتهم وأجمعوا رأيهم على خلع المأمون وانتخبوا في أواخر شهر ذي الحجة من السنة عينها إبراهيم بن المهدي، وكان صديقًا حميمًا للأمين، خليفة بدلًا من المأمون. وكان إبراهيم تعوزه الكفاية والمقدرة الشخصية، فلم يستطع القيام بأعمال الدولة، واضطربت الأحوال ونشب القتال بين جند المأمون وجند الخليفة الجديد، واضطر الحسن ابن سهل أن يخرج من بغداد، ويرتد إلى واسط مرة أخرى، ثم امتدت الثورة إلى باقي المدن، فثارت الكوفة وثار غيرها، وغرق الغرب في لجج الفوضى وسقطت هيبة الحكومة، وتألمت البلاد والنواحي من جراء هذه الفوضى فأسرع على الرضا ودخل على المأمون وأخبره بحقيقة الحال في إمبراطوريته، وبين له ما جره سوء تصرف وزيره الفضل من البلاء على البلاد والعباد،وسرد له الحوادث المشئومة التي انتابت الدولة بعد قتل الأمين، وكاشفة بحقيقة شأن الفضل بن سهل وكيف

أنه يخفي عنه أمور الدولة فغضت المأمون غضبًا شديدًا لما سمع، وأخذ يسأل القواد ورؤس القوم عن حقيقة ما سمع، فأيدوا الحقائق التي سردها له على الرضا بعد أن أمنهم من غضب الوزير الداهية، ونصحوا إليه بأن خير علاج للتغلب على الأزمة أن يعجل بالعودة إلى دار السلام حتى يعيد الأمن إلى نصابه، ويشرف على محاربة المنافسين والخارجين عليه.

عمل المأمون بنصيحة أصدقائه وترك مقره في مرو عائد إلى بغداد وصحبه وزيره، ولما وصل إلى سر خس وهي مكان يبعد عن مرو بمسافة سفر يوم وقف قليلًا للاستراحة، وفيها قتل الفضل بن سهل قتلة جماعة بالسيوف وهو في الحمام في ٢ شعبان سنة ٢٠٢هـ، ولما بلغ الخبر المأمون غضب لقتل وزيره، وأمر بالقبض على القتلة، ولما قبض عليهم أمر بضرب أعناقهم، وأرسلها إلى أخيه الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة واسترضاه بأن عينه مكان أخيه وخطب ابنته بوران مع أنها كانت لا تزال إذ ذاك في العاشرة من عمرها لنفسه ولم تزف إليه إلا بعد ذلك بثمان سنوات، وفي الوقت عينه زوج إحدى بناته لعلي الرضا، وزوج بنتا أخرى لابنه محمد بن علي الرضا ولقد كان حكيمًا في هذه التصرفات، إذ أرضى بتلك المصاهرات طرفي العلويين والفرس بعد أن تخلص من وزير منافق اشتهر بالمكر والخديعة استطاع بأساليب الفارسية أن يسيطر على الدولة العباسية مدة أربع سنوات كاد في نهايتها يجرها إلى الخراب ومعها سيده ومولاه.

تابع المأمون سيره ولما وصل طوس حيث كان قبر أبيه أقام فيها أيامًا طلبًا للراحة، وفي صفر ٢٠٣هـ مات على الرضا فجأة، وقد روى بعض المؤرخين أن سبب موته أنه أكثر من أكل العنب فمرض بالحمى ومات، وروى آخرون أن المأمون دس له السم في العنب، ولكنها روايات تبعد عن الحقيقة ولا تدل ظواهر الروابط التي كانت بينهما على صحتها إذ أن المأمون حزن حزنًا عميقًا لموت صديقه، وأمر بدفنه وبناء ضريح جميل له يعرف الآن بالمشهد وهو مزار للشيعة في كل أنحاء المعمورة، وقد خلفه في الإمامة ابنه محمد الملقب بالجواد وبالتقي.

تخلص المأمون من مأزق حرج بموت علي الرضا، وأرسل إلى بغداد يخبر أهلها بموته، وطلب منهم العودة إلى طاعته، إذ قد زال سبب خروجهم عليه، فلاقت دعوته أذنًا صاغية، وصادفت هوى في نفوس البغداديين لما كان عليه إبراهيم بن المهدي من ضعف وسوء إدارة، وزحف المأمون نحو بغداد.

ولما قرب من المدائن خرج منها إبراهيم مرتدًا إلى بغداد فدخلها المأمون، ومنها خرجا طالبًا بغداد، فلما قرب منها أخذ قواد إبراهيم وجنده يتركون الصفوف، وينضمون إلى جند المأمون، ولما رأى إبراهيم أن مركزه أصبح لا يمكنه من الاستمرار في القتال ترك المدينة وهرب بعد أن حكم نحو سنتين.

وظل مختفيًا في إحدى دور المدينة، حتى سنة ٢٠١هـ، ثم خرج متنكرًا في زى امرأة في ساعة مبكرة إلى الطريق، فاشتبه في أمره رجال الشرطة، وقبضوا عليه وساقوه إلى المأمون على الحالة التي كان عليها، فطلب العفو من الخليفة، وعفا عنه المأمون وهو يقول "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

دخل المأمون بغداد في شهر صفر سنة ٢٠٤هـ أغسطس سنة ٨١٩م في موكب حافل، واستقبل فيها استقبالاً عظيمًا وعقد مجمعًا من رجال الدولة، وسألهم حاجاتهم، فلطلب طاهر وكان حضر من الرقة إعادة السواد شعار العباسيين وترك اللون الأخضر، فأمر المأمون بذلك ففرح العباسيون بذلك فرحًا شديدًا.

ثانيًا: المأمون في بغداد

ابتدأ ملك المأمون الحقيقي عندما اتخذ حاضره آبائه مقرًا لحكومته وتجلت قدرته العالية ومزاياه العظيمة، "وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف، وقوة لا يشوبها عنف، وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التي كانت لها في عهد أبيه، وعظمت بها الحركة العلمية". وخلع المأمون الخلع السنية على القواد وإشراف الدولة ورجالاتها، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير أخيه، وكان قد ظهر بعد اختفائه وساعد إبراهيم بن المهدي في ثورته، وعفا عن غيره من الذين كانوا مصدر الاضطراب والقلاقل، فدل على تسامح وكرم عظيمين،

ثم ولى طاهرًا حاكمًا على بغداد، وأقام ابنه عبد الله وليًا على الرقة، ولكنه ما لبث أن أظهر كراهية لطاهر، اختلف الناس في أسبابها وأبعده عن جواره، وعينه حاكمًا على خراسان، وقد انتهز طاهر تلك الفرصة وأدار البلاد بحزم وسداد رأى فتقوى مركزه فيها، وسولت له نفسه أن يخرج على الممون، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة، وكان المأمون قد أرسل وراءه العيون والجواسيس ليكون دائم الاتصال بأخبار قائده الكبير، فلما خطا طاهر خطوته الجريئة وصلت أخبارها فورًا إلى الخليفة، وما لبث أن ذاع خبر موت طاهر وهو في فراشه وكان ذلك سنة ٢٠٧هـ ٨٢٢م، وقد اختلف المؤرخون في كيفية الموت، ولكن المشهور أنه مات مسمومًا على يد عين من عيون المأمون، ولقد كان طاهر من رجالات الدولة المبرزين، خبيرًا بأمور الحرب وشئون السياسة، وشغوفًا بالعلم والأدب، ومن آثاره في ذلك تلك الوصية التي كتبها لأبنه عبد الله حينما اختاره المأمون واليًا على مصر وأرسله لمحاربة نصر بن شبث، وتعد هذه الوصية، "من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية"، وقد أعجب ببلاغتها المأمون إعجابًا شديدًا واستنسخها وأرسلها إلى عماله في الولايات، وقد أورد نصها الدكتور الرفاعي في باب المنثور من كتابه الثالث في المجلد الثالث فراجعه في "عصر المأمون".

ولى المأمون أمر خراسان بعد وفاة طاهر ابنة طلحة وقد استمر ملك البيت الطاهري بخراسان حتى سنة ٢٥٩هـ، وكانت تلك الولاية في أثناء هذه المدة حسنة العلاقة بدولة الخلافة، "والسبب في دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد، ومن أجل ذلك كان الاتصال دائمًا بين مرو وبغداد".

الحوادث الداخلية الأخرى

أولًا: علاقة المأمون بالعلويين

ظل المأمون يعامل العلويين معاملة حسنة تتناسب مع اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج عليه أحدهم ببلاد اليمن في سنة ٢٠٧هـ وهو عبد الرحمن بن أحمد، فوجه إليه المأمون أحد قواده المسمى دينار ابن عبد الله فتغلب عليه، ومن ذلك الوقت غضب

المأمون على العلويين ومنعهم من الدخول عليه وأمرهم بلبس السواد، ولكنه أوصى بهم خيرًا عند وفاته، إذ جاء في وصيته لأخيه المعتصم قوله: "وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، وأقبل من محسنهم، وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها، فأن حقوقهم تجب من وجوه شتى".

ثانيًا: ثورة نصر بن شبث ومؤامرة ابن عائشة

ثار نصر بن شبث على المأمون كما مر بنا، وأرسل الحسن بن سهل طاهر لمحاربته، ولكنه لم يحاربه ببأس شديد بسبب الصدمة التي صدمها بها آل سهل حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق، وظل نصر ثائرًا حتى أرسل عبد الله بن طاهر لإخضاعه، فحاربه مدة خمس سنوات وضيق عليه، وقتل رؤساء من معه واضطره إلى طلب الأمان، وسلم نصر نفسه إلى رجال المأمون بعد أن أقلق الدولة بثورته إقلاقًا عظيمًا، وقد احتفل الخليفة بقدومه إلى بغداد في سنة ٢١٠ خاضعًا مستسلمًا احتفالًا عظيمًا. وفي تلك الأثناء كبر نفر مؤامرة لتكدير صفاء السرور الذي عم رجال الدولة بتسليم نصر وذلك بأن يقطعوا جسر الذوارق المقام في عرض دجلة لمرور نصر عليه عند اقترابه بموكبه الحافل، وكان زعيم تلك المؤامرة إبراهيم بن مُحَمَّد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام المعروف بابن عائشة، وكان يرمي بذلك إلى إثارة الخواطر وخلق القلاقل والعمل على إعادة إبراهيم بن المهدي للخلافة، ولكن رجال المأمون اكتشفوا خبر المؤامرة، وقبل على زعيمها، وعند المأمون عذابًا أليمًا وحبسه في المطبق، ثم أمر بعد ذلك بإخراجه وقتله، وقل معه ثلاثة من رؤوس المتآمرين وكان ذلك في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٢١٠هـ.

ثالثًا: ثورة الزط:

ورد في كتاب الخضري بك صحيفة ٢١٨: "الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس، غلبوا على طريق البصرة، وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد. وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التي كانت بين الأمين والمأمون، ولما استقر

المأمون ببغداد بعث عيسى بن يزيد الجلودي لحربهم سنة ٢٠٥هـ ويظهر أنهم كانوا إذا أخرجتهم الجنود تفرقوا في تلك الفيافي". وقد استمر هؤلاء الثوار يعيشون في الأرض فسادًا في أيام المأمون، ولم تخضع ثورتهم إلا في أيام المعتصم مما سنبينه عند الكلام عليه.

رابعًا: الثورة في مصر (٢٠٠ – ٢١٠هـ)

انتهز عبيد الله بن السري بن الحكم اشتغال عبد الله بن طاهر بإخماد الثورة التي قام بها نصر بن شبث وأثار بمصر فتنة، وأصبحت هذه البلاد مسرحًا للاضطراب، وساء النظام فيها، واختل الأمن بسبب قدوم جماعة كبيرة من الأندلس، فأن الحكم بن هشان بن عبد الرحمن الداخل طرد عددًا كبيرًا من العرب من أسبانيا، فجاءوا إلى الإسكندرية ونزلوا بالبلاد وهددوا الناس، وسلبوا الأموال وهتكوا الأعراض وظلموا العباد، وبلغ الأمر المأمون فأمر عبد الله بن طاهر بالإسراع لإخماد تلك الفتنة، وكان قد فرغ من ثورة نصر، فجاء عبد الله إلى مصر وطارد الثائرين مطاردة عنيفة وشتت شملهم، وطلب الأندلسيون الأمان فأمنهم على أن يرتحلوا عن البلاد فرحلوا إلى جزيرة كيت واستوطنوها وأقاموا بها، وكذلك تغلب على ابن السري وأخمد ثورته، وفرح المأمون فرحًا عظيمًا لأخبار النصر وكتب يهنئ قائده بالفوز، كما كتب إليه وزيره أحمد بن يوسف كتابًا بليغًا يهنئه فيه أيضًا، ولكن الفتنة عادت ثانية واندلع لهيبها.

ورد في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٨٠: "وقد خرج المأمون إلى مصر في ١٦ ذي الحجة سنة ٢١٦هـ، إثر شخوصه إلى دمشق للمرة الثانية وكان خروجه إلى مصر، فيما يقول الرواة، لإخماد ما قام فيها من فتن واضطرابات، وذلك إن أهالي الوجه البحري خرجوا وفيهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر، لسوء سيرته فيهم، ولقبح صنيعه معهم سنة ٢٢٠، فجاء المأمون إلى مصر، ونظر في أسباب الثورة وسمع ما نسب إلى سوء تصرف عامله فعمل على أنصاف الناس، واستعمل الحزم والقوة حتى أخمدت الثورة وأعاد الأمن والنظام إلى البلاد".

هذا ويقول المؤرخون إنه لبث في مصر أربعين يومًا انتقل في أثنائها في طول البلاد وعرضها، وقام ببعض إصلاحات فيها وعمر مقياس النيل بالروضة.

خامسًا: ثورة بابك الخرمي (٢٠١ – ٢٢١هـ)

خرج بابك وهو من كورة في شمال فارس تسمى البذ ثائرًا على الدولة العباسية في سنة ٢٠١ هـ داعيًا الناس إلى اعتناق مذهبة الأباحي، وكان هو وطائفته يدينون بما يريدون ويشتهون، وأباحوا المحرمات من الخمر وسائر اللذات، ونكاح ذوات المحارم ويقال لهم الخرمدينية، وجاء في فهرست ابن النديم عن مذهب الخرمية: "الخرمية صنفان: الخرمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم. فأما الخرمية البابكية فإن صاحبهم بابك الخرمي، وكان يقول لمن اتبعوه: إنه إله، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغضب والحروب والمثلة، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك" وقد نشأ في بابك بن بهرام بقرية تدعي بلاد أباد، ثم اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية، ولما مات جاويدان تزوج بابك بامرأته وخلفه في نفوذه وولايته، وأخذ يعيث ومن معه في الأرض فسادا، ونشر مذهبه الأباحي، وعرف المأمون خبره وكان لا يزال بمرو فشمر عن ساعد الجد في مطاردته، ولم تكن غايته إخضاع الثائر لسلطان الخلافة الإسلامية بل كان يرمي إلى القضاء عليه وعلى مذهبه وتعاليمه الضارة بنظام الحياة والاجتماع. ولما رجع الخليفة إلى بغداد عين أحد قواده المسمى يحيي بن معاذ لحربه، فتوجه إليه ولكنه لم يستطع التغلب عليه، فاختار المأمون قائدًا آخر هو عيسى بن مُحَّد بن أبي خالد، وولاة أرمينية وأزربيجان ومره بمحاربة بابك، ولكنه نكب وفشل أيضًا، وأرسل الخليفة قائدًا ثالثًا فتغلب عليه بابك وأسره، وفي سنة ٢١٤ هـ قتل بابك قائدًا رابعًا هو مُحَّد ابن حمدي الطوسي، وفرق شمل عسكره وقتل عددًا كبيرًا منهم، واستفحل أمر الثائر بعد ذلك ودخل في مذهبه خلق كثير من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان وغيرها، ولم يستطع المأمون ورجاله التغلب على بابك لأن الخليفة اشتغل بأمر الدولة البوزنطية.

وظل بابك متحصنًا في ربوعه ثائرًا على الدولة حتى مات المأمون، وكتب قبل موته يوصى أخاه المعتصم بشأنه يقول: "والخرمية فاغزهم ذا خرامة وصرامة وجلد، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود، من الفرسان والرجالة، فأن طالت مدتهم، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، وأعمل في ذلك مقدم النية فيه، راجيًا ثواب الله عليه".

سادسًا: زواج المأمون من بوران ابنه الحسن بن سهل في سنة ٢١٠هـ

تزوج المأمون في شهر رمضان سنة ٢١٠ هـ خديجة المعروفة ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، وكان خطبها بمرو كما تقدم لنا، وقد دلت حفلة عرسه لها على ما وصلت إليه الدولة العباسية من الغنى والجاه، وكان الاحتفال بعرس الزواج بمدينة واسط احتفالًا عظيمًا بلغت تكاليفه خمسين ألف ألف درهم وأنفقت أم جعفر "زبيدة" زوج الرشيد مبلغًا كبيرًا من المال في حفلات العرس، ولما سئلت عما أنفقت قالت: ما صنعت شيئًا قد أنفقت ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف درهم إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم. وقد احتفل أبوها بأمرها .

وقد احتفل أبوها بأمرها، وعمل من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في مصر من الأمصار. "وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحها، وقرأ ما فيها، ثم يمضي إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه، ويتسلم ما فيها، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره، فلم يكن في العسكر من يشتري شيئًا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يومًا".

هذا وقد اشتهرت بوران شهرة كبيرة في التاريخ، وجاء ذكرها على ألسنة الشعراء والمادحين، وذلك لنفوذها الكبير في أيام الخليفة المأمون، ولكثرة ما بذلته من إحسان

وجود، وقد عاشت نحو خمسين سنة بعد المأمون فرأت العصرين: عصر الفخامة والمجد في الدولة العباسية، وعصر اضمحلالها وانحلالها. وماتت سنة ٨٨٣م.

أحوال الدولة الخارجية في عهد المأمون

كانت سياسة الدولة العباسية في عهد المأمون تتجه نحو سياسة التوسع وبسط النفوذ على الدولة الإسلامية الأخرى المستقلة، ولطالما حاول المأمون إخضاع الدولة الأموية بالأندلس، وشجع دولة الأغالبة في إفريقية — وكانت تخضع لسلطانه — على أن تعمل على إضعاف الأمويين، وفي سنة ٢٠٨ هـ ٨٣٣م غزا زيادة الله بن الأغلب جزيرة صقلية، وأخضعها وضمها إلى الخلافة العباسية، أما سياسته فكانت سياسة مهادنة ومصالحة في أول أمرها نحو الدولة البوزنطية، إذ لم تقع حروب بينه وبين الروم حتى سنة ٢١٥هـ، ولكن حدث بعد ذلك أن التجأ بابك الخرمي إلى حدود الدولة البوزنطية وحرك الروم ضد المسلمين، وكان يجلس على عرش الدولة إذ ذاك، توفيل بن ميخائيل الثاني الملقب بالتمتام.

وأغار الروم على أملاك الدولة العباسية واستولوا على عدد من القرى وسلبوا الناس واعتدوا على أملاكهم وأعراضهم كما كانت عادتهم، وعرف المأمون أمرهم فعزم عل الخروج إليهم بنفسه. وفي مارس سنة ٨٣٠م ترك بغداد بعد أن استحلف عليها إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، وسلك طريق الموصل وسار حتى وصل إلى أنطاكية ثم المصيصة، ومنها خرج إلى طرسوس وكانت الثغر الإسلامي ومنها دخل بلاد الروم في شهر يوليه من السنة عينها.

وفتح عدة حصون ومعاقل، وأرسل قواده يفتحون ويغزون. ثم جاء المأمون إلى الشام، ولما وصل دمشق علم بخروج ملك الروم وقتله بعض أهل طرسوس والمصيصة فرجع المأمون لملاقاة العداء وانتصر عليهم وأجلاهم عن البلاد والثغور الإسلامية، ففتح أخوه إسحاق المعتصم ثلاثين حصنًا، وغنم يحيي بن اكثم غنيمة كبرى من العداء. ثم سار المأمون بعد ذلك إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر في ذي الحجة سنة

٢١٦هـ وعاد إلى دمشق في السنة التالية.

ودخل أرض الروم لثالث مرة بسبب انتصار توفيل على قواد الخليفة ثم عزم على أن يقيم سدًا منيعًا في وجه الروم في مدينة طوانة وهي تبعد عن طرسوس بنحو سبعين ميلًا وتقع في شمالها وأخذها يحصنها تحصينًا قويًا. وفي هذه الغزوة كتب إليه إمبراطور الروم كتابًا رد عليه الخليفة بكتاب آخر. وقد ورد نص الخطابين في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٩١.

وفاة المأمون وأخلاقه:

كان المأمون يعسكر في مكان يسمى "البدندون" بين مدينتي لؤلؤة وطرسوس. وكان يجلس مع أخيه المعتصم في يوم حر من أيام الخريف على شاطئ نهر المدينة وخلعا حذاء هما ووضعا أرجلهما في ماء النهر البارد فمرض الاثنان بالحمى، ومات المأمون في شهر رجب سنة ٢١٨هـ أغسطس سنة ٨٣٣م وكانت ٤٨ سنة وأربعة شهور، وحمل إلى طرطوس ودفن بها.

وكان المأمون يميل إلى العفو ويكره الانتقام. وقد عرفنا أنه عفا عن الفضل بن الربيع وزير أخيه، مع أنه عمل جهد طاقته على خلعه ونقل الخلافة إلى غيره. وعفا عن إبراهيم بن المهدي مع أنه خرج عليه وأقام نفسه خليفة في بغداد. ومما روى عنه إنه في الغزوة الثانية ضد الروم اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم، وأعطى كل واحد دينارًا دينارًا، ومن مزاياه إنه كان ميالًا إلى الإقناع، فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة، "وله في ذلك مجالس مأثورة مشهورة"، وله في الجدل حجج قوية ناصعة "مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره في المناقشة"، وكان عالمًا بدقائق الشئون في دولته، يعلم ما كان عليه رؤساء الجند وباقي رجال الدولة، وكان فوق هذا أديبًا يعرف جيد الشعر ورديئه ويحب الأدباء والشعراء. ولقد كان كريمًا سارت بكرمه الأمثال فكان يعطي عطاء من لا يخاف فقرًا ولا يخشى إقلالًا.

هذا وجاء في كتاب "السير موير" وصف لأخلاق المأمون نذكر ملخصه قال: "فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفًا بالعدل والحلم، وإنما يؤخذ عليه بأنه كان متقلبًا في أرائه وشهوره سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية. ويرجع السبب في ذلك إلى نزعته الفارسية التي ورثها عن أمه، والبيئة التي ربى فيها من جهة، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى. على أننا من اعترافنا بعدله، لا نستطيع أن ننزهه عن الجنوح في بعض الأحايين إلى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث نصرف الجبابرة والقسوة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سودوا به صحائف تاريخهم.. ولو أغضينا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفضل، وموت على الرضا غدرًا وغيلة فأننا لا نستطيع أن نغضي عن معاملته الجائزة لابن عائشة، وما لقيه هرثمة وطاهر مع تفانيهما في نصرته وتوطيد حكمه، واضطهاده لكثير من أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين في مجلس المناظرة مما يدل على قسوته، إلا أننا إذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل في عفوه عن الخارجين عليه في بغداد، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره وقسوته، وقصارى القول إن عصر خلافته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ الإسلامي".

وجاء في كتاب عصر المأمون صحيفة ٢٣١ المجلد الأول عن شخصية المأمون فصل ممتع فراجعه.

٢ – حضارة الدولة العباسية في عهد المأمون:

نتناول في بحثنا هذا وصفًا موجزًا عن حالة الدولة السياسية في عهد المأمون، وعن كيفية إدارة الشئون فيها، وعن حالتها العلمية ونهضتها الفكرية من وجهتها البشرية والدينية.

أولًا: وزراء المأمون

جرى الخلفاء العباسيون على سنة الاستعانة في إدارة شئون الدولة بأفراد مبرزين في الأمور السياسية والحربية، وذلك بسبب اتساع أطراف الدولة وتشعب نواحيها، وكثرة شعوبها وأجناسها، وعظم علاقاتها الداخلية والخارجية، ومن ثم نشأت إدارة حكومية مدنية، تنظر في الأمور وتصريفها بإرشاد الخليفة وتحت إشرافه، فكان الخليفة مصدر السلطان في الدولة ومنبع القوة فيها، ومنها تصدر الأوامر الإدارية لمختلفة الولاة والعمال، وعنه يتلقى القواد ورؤساء الجند أوامرهم. وكان على رأس هذه الأداة الحكومية الوزير، وكان عضد الخليفة وساعده الأيمن في إدارة الشئون وكان المسئول من الوجهة العملية عن حسن سياسة الدولة في الداخل والخارج وكثيرًا ما ترك الخلفاء لوزرائهم المسئولية الحكومية، وأطلقوا أيديهم في إدارة الإمبراطورية، فكان الوزير يولي ويعزل الموظفين، ويسيطر على إيرادات الدولة ومصروفاتها، ويشرف على مراسلاتها البريدية، وجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية، وكان فوق ذلك مستشار للخليفة. وقد وصفنا فيما مر بنا نفوذ الوزراء في عهد المهدي والهادي والرشيد والأمين، وقرأنا شيئًا عن سيرة يعقوب بن داود، والبرامكة، والفضل بن الربيع، والآن نذكر بعض وزراء المأمون ونصف مكانتهم في عصره.

اشتهر من وزراء المأمون الفضل بن سهل وأخوه الحسن، وكان الفضل أول وزراء المأمون ومن رجال جعفر البرمكي، وكان سخيًا كريمًا حليمًا بليغًا عالمًا بآداب الملوك، وكان يقال له الوزير الأمير، وكان يميل إلى الشيعة كباقي الفرس، وكان له نفوذ كبير في الدولة العباسية في العصر المأموني وإليه يرجع الفضل في انتصار المأمون على أخيه الأمين، وهو الذي أشار على الخليفة بإقامة علي الرضا ولي عهد للدولة بعده، وحسن له الإقامة بمرو وأوقع بينه وبين القائد القدير هرثمة، ولم يتمتع المأمون بمر عن الخلافة تمتعًا حقيقيًا إلا بعد أن قتل الفضل. أما الحسن بن سهل فيقول عنه ابن طباطبا إنه كان أعظم الناس منزلة عند المأمون، وكان المأمون شديد المنحلة لمفاوضته فكان إذا حضر عند طاوله في الحديث، وكلما أراد الانصراف منعه، وهو ثاني وزراء المأمون بعد أخيه، وقد جاء في كتاب

الأغاني إنه هو الذي توسط عند المأمون في العف عن إبراهيم بن المهدي. ثم اشتهر من الوزراء بعدهما أحمد ابن أبي خالد، وكان كفئًا قديرًا، بصيرًا بالأمور، مقتصدًا في مكانته وسلطانه ويقال إن المأمون دعاه إليه عند ما أراد أن يستوزره وقال له: إني كنت عزمت ألا استوزر أحدًا، ثم عرض عليه الوزارة، فتنصل منها وقال: "يا أمير المؤمنين: أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبني بالواجب فيها واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي، ويخافني لها عدوى، فما بعد الغايات إلا الآفات"، ولذلك كان المأمون يحبه حبًا عظيمًا، وحزن عليه عند موته وحضر جنازته وصلاته بنفسه، ورثاه بعد دفنه.

واشتهر أيضًا من وزراء المأمون أحمد بن يوسف ويحيي بن اكثم التميمي وكان أحمد بن يوسف معروفًا بين أهل عصره بسمو المكانة في العلم والأدب والكتابة والشعر، "وكان بصيرًا بأدوات الملك وآداب السلاطين، ذكيًا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم، وكان لظرفه وفطنته، وبصره بالأمور موضعًا لرضا المأمون وعطفه عليه"، أما يحيي بن اكثم "فقد انخرط في سلك القضاة صغيرًا لنجابته، ثم درج في مناصب القضاء حتى تبوأ أسمى مناصب الدولة، تبوأ منصب قاضي القضاة، ومنصب الوزارة للمأمون منظورًا إليه في كل ما تولاه من المناصب بالتجلة والإكبار من الخاصة والعامة".

ثانيًا: الجيش والقواد العظام في عهد المأمون

كان لأهل خراسان شأن كبير في قيام الدولة العباسية، ولذلك أصبح لهم مقام في الأمور العسكرية لا يقل عما كان لقواد العرب فيها، ولما جاء عصر المأمون واتخذ مدينة مرو مقرًا لحكومته، ازداد نفوذ الخراسانيين زيادة كبيرة، وكان لهؤلاء عند الخليفة حظوة، لأنهم هم الذين ناصروه وعاضدوه في الخلاف الذي شجر بينه وبين أخيه الأمين، وبفضل معاونتهم اعتلى عرش الخلافة، ولذلك قدمهم على العرب، واتخذ منهم الجند والقواد، واعتمد عليهم اعتمادًا كبيرًا في إدارة الشئون الحربية، وفي الإدارة الحكومية الأخرى، ونقص شأن العرب في عهده، ولم يظهر منهم في عهده قائد معروف، بل ظهر قواد آخرون من الأتراك وغيرهم. وقد روى الطيفوري أنه تعرض رجل للمأمون بالشام

مرارًا فقال: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان. قال أكثرت عليَّ يا أخا الشام، والله ما أنزلت قيسًا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوا لله ما أحببتها، ولا أحبتني قط، وأما قضاعة ف سادتها تنتظر السفياني. خروجه فتكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه ﷺ من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا، أعزب فعل الله بك".

يقول الخضري بك: "وهذا تصريح عظيم من المأمون، وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الإسلامي يحس بوجودها، وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت، فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس، ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها، وكان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة، أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الإمحاء".

هذا وقد اشتهر من قواد الجيش طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان، وإليه يرجع الفضل في انتصار المأمون على جيوش أخيه الأمين كما تقدم لنا، وقد عينه المأمون واليًا على خراسان، ويقال إنه أراد الاستقلال بتلك الولاية عن الدولة العباسية.

وصعد المنبر في سنة ٢٠٧هـ فحمد الله وأثنى عليه، ولم يدع للمأمون، فكتب والي البريد إلى الخليفة بذلك، وفي تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتًا، واشتهر بعده ابنه عبد الله وهو الذي ضيق الخناق على نصر بن شبث، ورده إلى طاعة المأمون، ثم صار إلى مصر بعد أن فرغ من محاربة نصر، وكانت ثائرة، وكان عرب الأندلس يعيشون فيها فسادًا، فانتصر عبد الله انتصارًا باهرًا، "وأصلح الدنيا وأمن البرئ، وأخاف السقم، واستوثقت له الرعية بالطاعة".

وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بذلك الفور، ثم ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان، وطلب إليه محاربة بابك الخرمي، ولكن والي مصر مات في سنة ٢١٢هـ، فولاه المأمون ولاية هذه الديار، واستمر بها حتى مات في عهد الواثق سنة ٢٣٠هـ.

ثالثًا: الحركة العلمية في عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم في العصر العباسي، وكانت خلافته أزهى عصور التاريخ العربي من الناحية الفكرية، "وإن حكمه الذي دام نحو عشرين عامًا قد ترك أثرًا خالدًا في التقدم الفكري للمسلمين في جميع نواحيه، ولم يقتصر تقدمهم هذا على فرع خاص من فروع العلوم والآداب. بل تناول كل مظاهر الحركة الفكرية، فتقدمت الفلسفة، وخطت علوم الأدب خطوات واسعة، كما خطت الرياضيات والفلم وعلم الطب وغيرها أيضًا خطوات واسعة، وانتقلت هذه العلوم وتكل الحضارة إلى أسبانيا الإسلامية والقسطنطينية المسيحية ومنهما نقلت إلى أوروبا الحديثة، ولقد رأى المأمون أن السعادة الحقيقية لشعبه لا تأتي إلا عن طريق التربية والتهذيب، ونشر العلم، وتشجيع القائمين بأمره، ولذلك رفع مرتبة العلماء والمشتغلين بالعلم، وربط لهم المرتبات والمعاشات. ولم يشأ أن يكونوا عيالًا على هبات أمراء الدولة وإشرافها، وفتح المدارس والكليات في جميع النواحي والأقاليم، وإجزال المنح والهبات، فنهضت البلاد نهضة علمية مباركة، وأطلق للفكر حريته وأرخى لها عنانها، وفتح صدره وبابه للعلماء والمتكلمين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم الدينية، وتسامح مع غير المسلمين تسامحًا دينيًا عجيبًا،وشجع البحوث العلمية والأدبية تشجيعًا كبيرًا، وبذل جهد طاقته في أثناء السنين الأخيرة من حكمه في إنهاض البلاد علميًا، وعمل على إدخال العلوم العقلية، وعلى تحرير العقل البشري من قيود المشترعين وفقهاء الدين.

ويقول القاضي ساعد بن أحمد الأندلسي – نقلًا عن كتاب عصر المأمون – "إن العرب في صدر الإسلام لمن تعن بشيء من العلوم، إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب. فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم، لحاجة الناس طرا إليها. فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية. فلما أدال الله تعالى للهاشمية، وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها، وهبت الفطن من موتتها، فكان أول عنى منها بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته في الفقه، كلفا بالفلسفة وعلم النجوم. ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن

هرون الرشيد، تمم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو طاليس وأبقراط وجالينوس واوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة، وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها. وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم، ويلتذ بمذاكرتهم، علمًا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله في خلقه ونخبه من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصناعة العملية، والتباهي بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى. إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتفضلهم في كثير منها، فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم".

وكان المأمون يميل إلى الفلسفة والمنطق فدفعه هذا الميل غلى نقل كتب الفلسفة والمنطق من الأمم المجاورة التي سبقت العرب في الحضارة إلى اللغة العربية، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

ومن الكتب التي نقلت وترجمت في عصر المأمون عن اليونانية كتب أفلاطون مثل كتاب السياسة، وكتاب المناسبات، وكتاب الحس واللذة، وكتاب أصول الهندسة وغيرها، وكتب أرسطو طاليس مثل كتاب البرهان، وكتاب الجدل، وكتاب الحس والمحسوس، وكتاب الأخلاق، وكتاب النفس، وغيرها. ونقل من كتب أبقراط كتاب الأمراض الحادة، وكتاب الماء والهواء، وكتاب طبيعة الإنسان، وكتاب الأخلاط وغيرها، وكذلك نقلت كتب جالينوس الستة عشر المشهورة، ونقلت باقي كتبه الطبية مثل كتاب التشريح الكبير، وكتاب منافع الأعضاء، وكتاب تركيب الأدوية، وكتاب مداواة الأمراض وغير ذلك. هذا ولم تقتصر حركة النقل والترجمة على نقل كتب الفلسفة والطب بل نقلت أيضًا كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم مثل كتاب أصول الهندسة لإقليدس، وكتاب المجسطي

الشهير لبطليموس الفلوذي.

وقد نقلت الكتب عن الفارسية مثل كتاب كليلة ودمنة، وكتاب مزدك، وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير نقلها عبد الله بن المقفع ونقلت كتب أخرى عن اللغة الهندية في الطب والنجوم والرياضيات والحساب، وكانت هذه الكتب نقل أولًا غلى الفارسية ثم تنقل إلى اللغة العربية. وكذلك نقلت الكتب عن اللغة النبطية مثل كتاب الفلاحة النبطية وهو فريد في بابه، ونقلت كتب أخرى عن العبرانية واللاتينية والقبطية.

"كان لنقل هذه الكتب آثار ونتائج في العقلية العربية أولًا، وفي المدينة العربية ثانيًا، حتى أصبحنا نرى المأمون يضرب به المثل في عظم الحركة العلمية.. والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقدمين عن زمنهما، إذا كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية في ذلك الحين، أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا".

ونختم كلمتنا هذه عن الحالة العلمية في زمن المأمون بما ورد في كتاب الخلافة للسير موير كما ترجمه الدكتور الرفاعي في كتابه صحيفة **٣٩٩** قال: "كان حكم المأمون مجيدًا عادلًا، وكان عصره مزدهرًا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان أديبًا مولعًا بالشعر متمكنًا منه، ولقد حدث أن شاعرًا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون يشطره الآخر، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديهته وكان مجلسه حافلًا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة، إذ كان يقربهم إليه، ويجزل لهم العطاء. وكما كان عصره عامر بالعلماء والأدباء والنحاة فغنه كان كذلك حافلًا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كالبخاري، والواقدي الذي نحن مدينون له بأوثق السير عن حياة النبي والشافعي وابن حنبل، وكان المأمون يجل علماء اليهود والنصارى، ويحتفي بهم في مجلسه لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها، ولقد أخرجوا من أديرة سوريا وأسيا الصغرى، وسواحل الشام وفلسطين كتبا خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلسفتهم ثم ترجموها.

وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب إلى العالم الإسلامي، ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إل اللغة العربية، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم. وأقاموا مرصدًا في "سهل تدمر" مجهزًا بجميع الآلات التي تمكنهم من النجاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسع فيهما. وقد صنفوا كتبًا في الرحلات والتاريخ، ولا سيما كتب الطب، وعنوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوعًا وانتشارًا، كالتنجيم والكيمياء. وكان لجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت غارقة في بحار الجهالة في العصور الوسطى، حيث أيقظتهم من غفلتهم، وأنارت لهم سبل علومهم التي كانوا أغفلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها".

رابعًا: الحركة المذهبية في عهد المأمون

ظهر في عصر المأمون جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا في البحث في أصول الدين والعقائد، وحكموا في البحث عقولهم مستندين على أصول المنطق ونظريات الفلسفة التي تعلموها وأتقنوا فهمها فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ما عليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذي يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أو سنة أو أثر من آثار السلف. ودارت بين الفريقين رحى معركة كلامية، وفتح المأمون باب المناظرات بينهما، واشترك فيها اشتراكًا فعليًا، وأراد أن يخرج من هذا الجدل ومن تلك المناظرة بنتيجة حاسمة لتحرير العقل البشري من القيود الدينية التي فرضها على الإنسان فريق من العلماء يتجمدون على القديم، ويتمسكون بحرفية النصوص الواردة في الكتاب والأحاديث الشريفة. وقبل أن نصف ما دار في تلك المسائل المذهبية يحسن بنا أن نثبت كلمة موجزة عن مذهب القدرية أو المعتزلة نقلًا عما جاء بكتاب فجر الإسلام صحيفة ٣٣٨.

القدرية أو المعتزلة

يدلنا تاريخ الفكر البشري على أن من أولى المسائل التي تعرض للعقل عندما يبدأ التعمق في البحث مسألة الجبر والاختيار، هل إرادتنا حرة تعمل ما تشاء وتترك ما تشاء، وتشكل عملها كما تشاء. أو أنا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره. وأن إرادتنا معلولة بعلل فإذا حصل العلل حصل المعلول لا محالة؟ وهي مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين جميعًا في العصور المختلفة،تعترضك في الأخلاق، وفي القانون، وفي فلسفة التاريخ، وفى علم الكلام، وي الفلسفة على العموم — وقد نشأن الأبحاث الدينية في هذا الموضوع لما نظر الإنسان فرأى أنه — من ناحية يشعر بأنه حر الإرادة يعمل ما يشاء، وأنه مسئول عن عمله، وهذه المسئولية تقتضي الحرية، فلا معنى لأن يعذب ويثاب إذا كان كالرئيسة في مهب الريح لابد أن تتحرك بحركته وتسكن بسكونه — ومن ناحية أخرى رأى أن الله عالم بكل شيء، أحاط علمه بما كان وما سيكون، فعلم ما سيصدر عن كل فرد من خير أو شر، وظن أن هذا يستلزم حتمًا أنه لا يستطيع أن يعمل إلا على وفق ما علم الله، فحار في ذلك بين الجبر والاختيار، وأخذ يفكر هل هو مجبر أو مختار.

وقد وردت آيات في القرآن قد تشعر بالجبر، ووردت أخرى تشعر بالاختيار، ووردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ إن صحت تدل على تعرضه عليه السلام لمسألة القدر تصريحًا أو تلميحًا، ولما انتهى المسلمون من الفتح وهدءوا وأخذوا يفكرون ظهرت هذه المسألة وكان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريانيون، وتكلم فيها الزرداشتيون كما بحث فيها النصارى، ظهر في الإسلام قوم يقولون بحرية الإرادة معارضين في ذلك الفكرة الشائعة بأن الإنسان مسير لا مخير، وقد سمى هؤلاء الذين يقولون بأن الإنسان حر الإرادة وبعبارة أخرى أن الإنسان له قدرة على أعماله "بالقدرية". وقد ذكروا أن من أسبق الناس قولًا بالقدر معبد الجهني وغيلان الدمشقي. أما معبد فقد قتله الحجاج صبر لخروجه مع ابن الأشعث، وكان يجالس الحسن البصري أولًا وقد سلك سبيله كثير من أهل البصرة. أما غيلان الدمشقي فقد أمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه لأن الناس أكثروا الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه

في القدر.

انتشر القول في القضاء والقدر في العصر الأموي واشتد الجدل في هذا الأمر بين المتخاصمين، وقد اختلف الباحثون في منبع هذه الحركة هل هو العراق أو الشام؟ فيذهب بعضهم إلى أن العراق منبع ذلك، بدليل أن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصري وهو يسكن البصرة، وأن منشأ الاعتزال كذلك كان فيها، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباته من أن منشأ هذا القول في ذلك نصراني من العراق أسلم وأخذ عنه معبد وغيرن، ويذهب آخرون إلى أن الحركة ظهرت في دمشق متأثرة بمن كان يخدم النصارى في بيت الخلفاء. وقد قال ابن تيمية أن أكثر الخوض في القدر كان بالبصرة والشام وبعضه في المدينة.

وعلى العكس من هؤلاء القدرية طائفة الجبرية وكان أولهم جهم بن صفوان، ولذلك تسمى هذه الفرقة الجهمية، وكان يقول أن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل، وأن الله قدر عليه أعمالًا لابد أن تصدر منه، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجماد. وكان الجهم من أهل خراسان من الموالي وأقام بالكوفة وكان فصيحًا خطيبًا يدعو الناس فيجذبهم إلى قوله. ولم يشتهر بمسألة الجبر فحسب بل تعرض لشيء آخر لا يقل عنه خطر وهو القول بنفي صفات الله، ونفى أن يكون لله صفات غير ذاته، وقال إن ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك، وقال لا يصح وصف الله بصفة يوصف بها خلقه لأن ذلك لا يقضي التشبيه، وقال إن القرآن مخلوق خلقه الله وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات، فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم الأعلى التأويل، وإنما خلقه الله.

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة، ونشطوا للرد على الجهمية نشاطًا عظيمًا. هذا وقد ذابت القدرية والجهمية في غيرها من المذاهب ولم يعد لهما وجود مستقل، وظهر على أثرهما مذهب المعتزلة، وكثيرًا ما يسمى المعتزلة بالقدرية لأنهم وافقوا القدرية في قولهم "إن للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى"،

ونفوا أن تكون الأشياء بقدر الله تعالى وقضائه – وأحيانًا يلقب المعتزلة بالجهمية لأنهم وافقوهم في نفي الصفات عن الله وفي خلق القرآن، وقولهم إن الله لا يرى يوم القيامة. وبذهب بعضهم إلى أن اسم المعتزلة أتى من "إن واصل ابن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر، وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وفسقوا بالكبائر، خرج واصل ابن عطاء على الفريقين، وقال إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين المنزلتين، فطرده الحسن من مجلسه، فاعتزل عنه، وجلس إليه عمرو بن عبيد فقيل لهما ولأتباعهما معتزلون" ويفهم من قول المسعودي في مروج الذهب أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين، فالمعتزلة هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة.

كان كثير من المعتزلة لا يرضون عن هذه التسمية، وإنما كانوا يسمون أنفسهم أعل العدل والتوحيد، وأشتهر من أوائل الداعين إلى الاعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، وكان واصل من الموالي ولد في المدينة سنة ٨٠هـ ثم انتقل إلى البصرة وسمع من الحسن البصري وغيره وتوفى سنة ١٣١هـ، وكان خطيبًا بليغًا مقتدرًا على الكلام سهل الألفاظ، وأما عمرو بن عبيد فمولى كذلك تتلمذ للحسن البصري، وأعتنق رأي واصل ابن عطاء في الاعتزال، واشتهر بالزهد والورع، وقد مدحه أو جعفر المنصور وتوفى سنة ١٤٥هـ وتتخلص تعاليم المعتزلة في الأصول الآتية:

(١) القول بالمنزلة بين المنزلتين أي أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن، لكنه فاسق، والفاسق يستحق النار لفسقه. وكانت الخوارج تقول بكفر مرتكبي الذنوب، والمرجئة يقولون بأنه مؤمن، وقال الحسن البصري إنه منافق، فقال واصل إنه فاسق وله منزلة بين الكفر والإيمان، وقال إنه يخلد في النار.

(٢) القول بالقدر وأن الله لا يخلق أفعال الناس، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم، وإنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل.

(٣) القول بالتوحيد، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة

وسمع وبصر غير ذاته، بل الله عالم وقادر وحي وسميع وبصير بذاته، وليست هناك صفات زائدة على ذاته، والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد، والله واحد لا شريك له من أي جهة كان، ولا كثرة في ذاته البتة.

(٤) قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، ولو لم يرد بها شرع، وللشيء صفة فيه جعلته حسنًا أو قبيحًا، فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنًا، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحًا. والشرع لم يجعل الشيء حسنًا بأمره به، ولا القبيح قبيحًا عنه، بل الشرع إنما أمر بالشيء لحسنه، ونهى عن الآخر لقبحه، ولا يستطيع الشرع أن يعكس لأن أمره ونهيه تابعان لما في الشيء ذاته من حسن وقبح.

كان علماء الحديث من أشد خلق الله كرهًا للمعتزلة والعكس، ولما كانت الدولة للمعتزلة في عهد المأمون والمعتصم نكلوا بأهل الحديث تنكيلًا في فتنة حلق القرآن، ولما دالت دولتهم نكل بهم المحدثون.

هذا وقد نشأ الاعتزال في البصرة، وسرعان ما انتشر في العراق وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة بالبصرة ومدرسة ببغداد. وكان المعتزلة أسرع الفرق الإسلامية للاستفادة من الفلسفة اليونانية وصبغها صبغة إسلامية، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدلهم، وهم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام، وأول مت تسلح من المسلمين بسلاح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين، وجادلوهم جدالًا علميًا، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله، وما أثار اليهود والنصارى والمجوس من شكوك، ونشطوا لهذا العمل نشاطًا بديعًا، ويقول المرتضى عن واصل بن عطاء "إنه كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة، ومارقة الخوارج، وكلامه الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين" فأخذ بعد معرفة أقوالهم يرد عليهم في فصاحة من القول.

كان المعتزلة على الرغم من مجهودهم في خدمة الإسلام والمسلمين مكروهين من كثير من المسلمين لأسباب أهمها: أنهم خالفوا أهل الحديث في كثير من آرائهم فحمل عليهم المحدثون حملات عنيفة، ومنها أنهم حولوا العقيدة الإسلامية البسيطة إلى عقيدة

فلسفية عميقة،ومنها أنهم في أيام سلطتهم في عهد المأمون والمعتصم نكلوا بالناس في القول بخلق القرآن ولم يسيروا سيرة فلسفية في الاكتفاء بتأييد رأيهم بالحجة، بل حملوا الناس على القول برأيهم بالسيف.

دار النزاع في زمن المأمون بين المعتزلة وفقهاء العامة ولم يكن لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة قبل زمنه حرية البحث، وإظهار الآراء، بل كانوا يخشون بأس العامة، ما لم تكن له قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة، لأن القوة فيها، فلما جاء المأمون وكان تلميذًا ليحيى بن المبارك الزيدي المتهم بالاعتزال، ومتصلًا بثمامة بن أشرس زعيم المذهب الثمامي في الاعتزال، فنشأ معتزل النزعة، ورأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث، ويجعل لهم مجالس للمناظرة، ويظهر أنه كان يرمي إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأي فيما يلقي عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأي، وتتفق كلمة الأمة ولاسيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الإمامة، ولقد ورد في تاريخ بغداد للطيفوري: "قال الثعلبي سمعت يحيى بن اكثم يقول أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلًا وأحضرتهم، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل، وأفاض في فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين، قال المأمون يا أبا مُحَمَّد كره هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم، وتزكية آرائهم، فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب ﷺ، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف، – وبعد كلام طويل – قال: وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما إتمامه سببًا لاجتماع هذه الطوائف على منا هو أرضى وأصلح للدين، إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعًا، وإما معاند فيرد بالعدل كرهًا".

أباح المأمون الكلام بين المتناظرين لدرجة كبيرة، فقد تناظر في مجلسه أثنان في

الإمامة، ونصر أحدهما الأمامية، ونصر الثاني الزيدية، وهذان المذهبان كلاهما أن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس. قال بشر المريسي "حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومُحَمَّد بن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع، فنصر مُحَمَّد بن أبي العباس الأمامية، ونصر علي بن الهيثم الزيدية، وجرى الكلام بينهما، إلى أن قال مُحَمَّد لعلي يا نبطي ما أنت والكلام؟ فقال المأمون – وكان متكئًا فجلس – الشتم عيٌ والبذاءة لؤم، إنا قد أبحنا الكلام، وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل ذلك وقفناه، ومن جهل الأمرين حكما فيه بما يجب، فاجعل بينكما أصلا فأن الكلام فروع، فإذا افترعتم شيئًا رجعتم إلى الأصول".

يقول الخضري بك "كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى، لأن العامة كانت تجلهم وتحترم أراءهم، كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها".

لم يعتنق المأمون جميع آراء المعتزلة لأن لم يتفق معهم في القول بالقدر وإنما قال بخلق القرآن ، وأظهر رأيه في ذلك سنة ٢١٢هـ، فغضب جمهور العلماء والفقهاء، وقالوا إنه مبتدع، وغلا بعضهم في ذلك وقال بكفر من رأى خلق القرآن، واتسع الخرق بين الفريقين.

وحاول المأمون أن يستعمل نفوذه بصفته خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ليرد جماعة الفقهاء إلى رأيه، فكتب إلى عامله على بغداد إسحاق بن إبراهيم كتابًا في سنة ٢١٨ يأمره فيه أن يجمع الفقهاء والعلماء، ويسألهم رأيهم في خلق القرآن، ويكتب إليه بأجوبتهم ومما جاء في كتابه هذا، ما يأتي: "فاجمع من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وأحداثه، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، فإذا أقروا بذلك، ووافقوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمرهم بنص من يحضرهم من

الشهود على الناس، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث، ولم يره والامتناع من توقيعها عنده، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرف عليهم، وتفقد آثارهم، حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إنشاء الله"، ثم طلب منه أن يشخص غليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور وكان إذ ذاك يحارب الروم ولما مثلوا بين يديه امتحنهم وسألهم عن خلق القرآن، فأجابوا جميعًا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى بغداد وأمر إسحاق أن يعلن أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث، ففعل ذلك إسحاق ثم أخلى سبيلهم.

وكتب المأمون إلى إسحاق كتابًا ثانيًا قال فيه: "وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظًا في الدين، ولا نصيبًا من الإيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحدًا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهاد ولا صدق في قوله ولا حكاية، وتولية شيء من أمر الرعية".

جمع إسحاق نحو ثلاثين رجلًا من العلماء منهم بشير الوليد وعلي بن أبي مقاتل وأبي حسان الزيادي وامتحنهم جميعًا وأرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان، ولقد كان هؤلاء العلماء يجيبون أجوبة غير صريحة، فاغتاظ المأمون وغضب غضبًا شديدًا، وكتب إلى إسحاق كتابًا ثالث قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع، وطلب إليه أن يحمل من لم يقل منهم بخلق القرآن موثقًا إلى عسكر أمير المؤمنين، فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوا جميعًا أن القرآن مخلوق ما عدا أربعة منهم، فأمر بهم فشدوا في الحديد، وفي اليوم الثاني أعاد عليهم المحنة فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه، وفي اليوم الثالث فعل كذلك فأجابه ثان، وبقي اثنان صمما على عدم الإجابة، وهما أحمد ابن حنبل ومُحَمَّد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرطوس حيث كان المأمون وأرسل فريقًا آخر بعدهما، ولكنهم عندما وصلوا مدينة الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم الوالي بها ثم أعيدوا إلى بغداد.

وقد استمرت هذه المحنة قائمة في الدولة العباسية في أثناء حكم المعتصم وابنه الواثق ولكن جاء المتوكل بعدهما فأمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون.

وقبل أن نختم تاريخ هذه المجادلات المذهبية والمناظرات الدينية نرى أن ننقل لك كلمة موير في هذا الموضوع كما ترجمها الدكتور الرفاعي صحيفة **٣٩٦** قال: "وفي الحق أن المأمون كان متعصبًا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه شديد الميل إلى العلويين، ونشأ عن ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه مزيج من حرية الأفكار والتعصب. وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحرية حقًا لدرجة مدهشة. وقد ألغى من بضع سنوات مضت، الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه، يحرمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير، وباح للمسيحيين حرية المناقشة في أي الدينين أفضل: الإسلام أم المسيحية.

غير أن ميوله الفارسية التي كان ينجح إليها دائمًا، دفعته أخيرًا أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير. ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة، وأباح لهم المناقشة في حضرته في نظريات كان البحث ممنوعًا فيها كعلاقة الإنسان بخالقه، وطبيعة الإلوهية وغير ذلك.

وأخيرًا أعلن تحوله إلى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وحيًا إلا أنه مخلوق، بدلًا من العقيدة التي كانت لا تنازع وهي أن القرآن أزلي غير مخلوق.

وأعلن أن المأمون أيضًا أن عليا أشرف الخلق بعد النبي، وعلى هذه النظرية بنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو إلى آخر من بيت عليٍ، وبدأ في تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يُمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين، وفسر القرآن تفسيرًا من غير تقييد بلفظه، وبذلك ذللت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عثرة في تقدم العمران... وعلى ممر السنين تحولت فكرة المأمون في خلق القرآن من مجرد رأي إلى إعلانه المشئوم الذي حمل فيه رعاياه بالاضطهادات والعقوبات على اتخاذه عقيدة لهم.

وقد أرسل إلى والي بغداد وهو في حملته الأخيرة على الروم أمرًا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل إليه إجابتهم، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحكمة التفتيش، حتى أظهروا القول بخلق القرآن، إلا أن البعض بقى ثابتًا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي، الذي حملوه مكبلًا بالحديد إلى معسكر الخليفة.

ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هددًا بالقتل (وهما بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدي)، وأرسل عشرون منهم تحت خفارة حراس لينتظروا في طرطوس عودة الخليفة من حروبه، ولكن جاءتهم الأنباء في أثناء سيرهم الطريق بموت المأمون. ولقد سودت أمثال هذه الفظائع سمعة المأمون في سنوات كثيرة".

الباب السادس

عصر المعتصم والواثق

١ – أبو إسحاق محمد المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧هـ) (٨٣٣ – ٨٤٢م)

ولد أبو إسحاق مُحَمَّد بن الرشيد في سنة ١٧٩هـ فكان أصغر من أخيه المأمون بتسع سنوات وقد شب شجاعًا فأحبه المأمون وقدمه على ابنه وولاه عهده، ولم يخبرنا المؤرخ عن الأسباب الحقيقية التي حالت بين المأمون وبين وصايته بالخلافة لابنه العباس مع أنه كان محبوبًا من الجند ومن القبائل العربية حبًا جمًا. وكل ما قيل في هذا الصدد أن المأمون رأى أخاه المعتصم خير وسيط لأتباع السياسة التي رسمها للخلافة العربية لما اشتهر به من الحزم وبعد النظر في تصريف الأمور.

ولما علم الجند بوفاة المأمون ثاروا وانتخبوا ابنه العباس خليفة، ولكن العباس احترامًا لوصية أبيه اعتذر لقواد الجند وسارع وأقسم يمين الطاعة لعمه، فبايع الجميع الخليفة الجديد وتلقب بالمعتصم، وأسرع عائدًا إلى بغداد فدخلها في أول رمضان سنة ٢١٨هـ بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة، وحمل ما كان بها من السلاح والعدد وأحرق ما لم يقدر على حمله، وأمر سكانها بالرجوع إلى بلادهم الأصلية.

أحوال الدولة الداخلية في عهده

يقول موير: "وسار المعتصم على خطة أخيه المأمون في تعضيده لمذهب المعتزلة وتقديم الجند الأتراك على العرب، وسمح للناس بحرية الرأي والكلام في مختلف الأمور إلى درجة لم تكن في الحسبان قبل عصر المأمون، ولكنه شدد النكير على من خالف مذهب المعتزلة، وفرضه على الناس فرضًا وطلب إلى العلماء والفقهاء والاعتراف بخلق القرآن، وبأن الله لا يرى بذاته يوم القيامة، وعاقب من خالف رأيه بالتعذيب والقتل، وأعاد

القبض على أحمد بن حنبل وناقشة في آرائه الدينية، ولما خالفه ضربه ضربًا مبرحًا وأمر بسجنه، ومع ذلك كان عصره زاهيًا بالحركة العلمية والفلسفية، وفي عصره كتب الكندي الفيلسوف العربي مؤلفاته التي اشتهرت في أوروبا شهرة كبيرة".

ولقد أكثر المعتصم من جند الترك حتى ملأوا بغداد وما حولها واعتدوا على أهل المدينة وعلى نسائهم، فهب البغداديون ودافعوا عن أعراضهم وأولادهم، واشتبكوا في معارك دامية مع أولئك الجند.

كان الغرض من الإكثار من هؤلاء الأتراك أن يوجد الخليفة سندًا يستند عليه في تنفيذ سياسته، وعنصرًا جديداً في الجيش ليحفظ التوازن بين فرقة المختلفة، إذ كان الخراسانيون يكونون معظمه، وقامت الدولة العباسية على سواعدهم وكواهلهم، فكانوا مصدر خطر يهدد الخلافة إذا انحرف الخليفة عن رؤسائهم.

تألف جيش الترك من المماليك الذين استقدمهم الخليفة من أواسط آسيا ومن اليمن ومصر، وكان مثلهم في الدولة العباسية مثل الحرس البريتوري في الإمبراطورية الرومانية وحرس الاسترلدزي في الإمبراطورية الروسية، والحرس السويسري في عهد ملوك البربون في فرنسا، وكان لهؤلاء الأتراك شأن كبير في تصريف أمور الدولة وبلغوا من الجاه وعلو المكانة مبلغًا عظيمًا، واحتقروا العرب والفرس احتقارًا شديدًا: فانصرف العرب عن الحواضر إلى البادية وبعد أن كانوا عماد الخلافة وسندها انقلبوا مصدر خطر يهدد كيانها.

غضب أهل بغداد من تصرفات جيش المعتصم الأجنبي وارتفعت أصواتهم بالشكوى إلى الخليفة ولما رأى أن الفتنة على الأبواب تجنبها وقر رأيه على الرحيل من بغداد إلى مدينة سامرا وهي تقع في الشمال الغربي للعاصمة، وتبعد عنها بنحو ستين ميلًا، وفي سنة ٨٣٦م رحل إليها هو وجنده من الترك، وبنى لنفسه فيها قصر فخمًا وثكنات لجنوده الذين بلغوا إذ ذاك نحو ٢٥٠ ألفًا وبنى الأماكن لخيوله التي بلغ عددها ١٦٠ ألفًا وابتنى قواد الأتراك لأنفسهم وحاشيتهم قصورًا لا تقل في فخامتها عن قصر الخليفة، وعمرت هذه المدينة بانتقال مقر الحكم إليها، وغير المعتصم اسمها إلى "سر من

رأي"، وظلت عاصمة للخلافة العباسية نحو خمسين عامًا من سنة ٨٣٦م إلى ٨٩٤م وكانت مقرًا لخلافة سبعة من الخلفاء.

تنفست بغداد الصعداء بخروج جند الأتراك منها، وتخلصت من شرورهم، ولكن الخليفة وقع تحت تأثيرهم. فعظم أمرهم وأصبحوا شرًا مستطيرًا على الدولة العباسية فيما جاء بعد ذلك من عصور كما سيتبين لنا.

ثورة الزط

سبق أن تكلمنا عن ثورة تلك القبائل الهندية في تاريخ المأمون، ولكن المأمون مات وكانت لا توال تلك القبائل ثائرة على الخلافة العباسية، وعاثت في البلاد فسادا، وسدت طريق البصرة وحملت الأقوات وروعت الأهلين وأخافت السبيل، فاهتم المعتصم بأمر هؤلاء الثوار وأرسل إليهم في سنة ٢١٩هأحد قواده الأكفاء المسمى عجيف بن عنبسة فخرج إليهم، وعسكر في مدينة واسط وسد الأنهار التي كان الزط يدخلون منها ويخرجون وحاصرهم وحاربهم حربًا عوانًا لمدة تسعة أشهر، وقتل منهم خلقًا كثيرين واضطرهم إلى التسليم وأمنهم ثم حملهم في أواخر سنة ٢١٩هـ إلى دار الخلافة على سفن، "وأقبل بهم وكان عددهم ٢٧ ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي حتى نزل الزعفرانية، وأقام بها يومًا، وعبأهم في زوارقهم على هيئتهم في الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠هـ فمروا على المعتصم بتعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقي، فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين قم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة".

وقد هاجمها البوزنطيون في خلافة المتوكل سنة ٢٤١هـ وذبحوا أفرادها وشتتوا شمل من بقى حيا، فتفرقوا في أنحاء أوروبا ومنهم تناسلت طوائف الأغجار التي تتجول في سهول وممالك أوروبا في الوقت الحاضر ويعرفون بالنورة.

القضاء على بابك الخرمي

أوصى المأمون أخاه المعتصم بمحاربة بابك والقضاء عليه، وكان هذا الثائر قد استفحل أمره في أزربيجان، ونشر نفوذه حتى همذان، ودخل في بيعته خلق كثيرون

واعتنقوا مذهبه، فشمر المعتصم عن ساعد الجد وعزم على الخلاص من شره بكل ما أوتي من قوة، فاختار أحمد قواده الأتراك الذين اشتهروا بالبسالة والأقدام، وسيره غليه في سنة ٢٢٠هـ، خرج القائد التركي ويسمى حيد ر بن كاوس المعروف "بالأفشين" لمحاربة الثائر على رأس جيش منظم، وعسكر في مدينة برزند، ورم الحصون فيما بين برزند واردبيل، واستعد للقتال استعدادًا كبيرًا.

ووزع قـواده علـى الحصـون والمعاقـل لحراسـة القوافـل والسـابلة، وأطلـق عيونـه وجواسيسه حتى يعرف خطوات الثائر وحركاته، واشتبك معه في القتال، واستمر يحاربه لمدة سنتين وانتصر عليه في النهاية في الربيع من سنة ٢٢٢هـ ٨٣٧م وفر بابك إلى أرمينيا فقبض عليه أحد أمرائها وسلمه إلى الأفشين، فرجع به إلى الخليفة ومعه أخوه عبد الله، وكان رجوعه إلى سامرا فوزا مبينًا له، إذ أراح المسلمين من شر ثائر روع البلاد والعباد مدة عشرين عامًا.

ولما قرب من المدينة كان فرح الخليفة شديدًا حتى أنه كان يرسل إليه في صبيحة كل يوم حلة شرف ومعها الهدايا الثمينة وخرج إليه هو وإشراف الدولة واستقبله استقبالًا باهرًا، وبعد أن رأى الخليفة الثائر أمر بقتله، وصلب جسمه، وقطع رأسه وأرسلها إلى مدن خراسان، أما عبد الله فقد أرسل إلى بغداد حيث قتل وصلب بعد القتل على شاطئ النهر.

ويُقال ان بابك قد تغلب على ستة من القواد العباسيين، وأنه ذبح ٢٥٥ ألفًا وحمل ٣٣٠٠ رجلًا و ٧٦٠٠ امرأة أسراء، وظلوا في قبضته حتى خلصهم الأفشين من الأسر.

العلويون في عهده

توفى مُحَمَّد الجواد بن علي الرضا في أول خلافة المعتصم فتولى إمامة الفرقة الأثنى عشرية بعده ابنه أبو الحسن علي الهادي، وفي هذا العهد خرج من الزيدي مُحَمَّد بن أبي القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين، وكان مقيمًا بالكوفة ثم خرج منها إلى

خراسان، ودعا الناس إلى بيعته، فاجتمع إليه ناس كثيرون، فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وحاربه وقبض عليه، وأرسله غلى المعتصم في سنة ٢١٩هـ فسجنه بسمارا، ولكنه تمكن من الهرب بعد قليل ولم يعرف له خبر بعد ذلك، وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية "ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يمت، وأنه حي يرزق، وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا، وأنه مهدي هذه الأمة".

مؤامرة عجيف بن عنبسة

كان عجيف من قواد العرب الذين اشتهروا بالقوة والحزم، وقد أدى للدولة خدمات جليلة الشأن وانتصر على الزط، وأبلى بلاء حسنًا في الحروب ضد الروم، ولكنه غضب على الخليفة لتقديمه قواد الترك عليه، وأراد أن يثأر لنفسه ولجنده، من هؤلاء الدخلاء الذين احتقروه وأساءوا إليه وإلى جنده، فأغرى العباس بن المأمون على التطلع إلى عرش الخلافة الذي كان قد رفضه قبل ذلك، ولما قبل العباس الفكرة انضم إليه قواد كثيرون من العرب وبعض الأتراك الناقمين على بني جنسهم، واتفق الجميع على الخروج على الخليفة يوم تسقط عمورية إحدى مدن الروم الذي كان الخليفة يحاربهم إذ ذاك، واتفقوا أن يغتالوا المعتصم وهو يوزع الغنائم والأسلاب بين الجند، ويغتالوا معه قائديه الأفشين وأشناس.

عرف الخليفة خبر المؤامرة، وهاجم المتآمرين بنفسه، وشتت شملهم، وقبض على عجيف وقتل هو ومن معه. أما العباس فقد سلمه الخليفة إلى الأفشين بعد أن اعترف له بكل دقائق المؤامرة وتفصيلاتها وقتله الأفشين. "وكان من نتائج تلك المؤامرة كما يقول موير أن ارتمى الخليفة في أحضان القواد الأتراك لحمايته، وأبعد عنه بالتدريج قواد الفرس والعرب". فارتكب بذلك خطأ جسيمًا ظهرت عواقبه بعد ذلك.

خيانة الأفشين وسقوطه ٢٢٥هـ

خرج على الخلافة أمير من أمراء طبرستان يسمى مازيار بسبب تنافسه مع عبد الله بن طاهر أمين خراسان. فانتهز الأفشين تلك الفرصة وكان يحقد علي عبد الله بن طاهر،

ويرغب في حرمانه من ولاية المشرق ليحل محله، وشجع الثائر بمختلف الوسائل، وكان يتطلع إلى قيادة الجيوش لمحاربة الثائر، حتى إذا ما انتصر عليه، أعجب به الخليفة وولاه خراسان، ولكن الخليفة ترك لعبد الله أمر محاربة الثائر، ونهض عبد الله لمحاربة مازيار وأرسل إليه جيشًا قويًا بقيادة عمه الحسن بن الحسين بن مصعب فاستطاع بمساعدة الجيوش الأخرى التي أرسلها المعتصم أن يضيق الخناق على الثائر، وحاصر طبرستان من كل جانب فرأى مازيار بعد ذلك أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فأمنه وسلمه إلى مُحَمَّد بن إبراهيم بن مصعب قائد الخليفة ليسير به إلى المعتصم، ولما مثل بين يدي الخليفة اعترف بتحريض الأفشين له، وأطلع الخليفة عل الكتب التي أرسلت إليه من قبله. فغضب المعتصم وأمر بالقبض على القائد الخائن وسجنه، ثم أخرج من السجن وأتهم بالكفر والكيد للإسلام. وطلب غلى وزيره مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات للتحقيق معه ومناظرته وسؤاله عن التماثيل التي كان يجمعها في منزله، وقد أرسل إلى بعض الأمراء من صغد للشهادة على ما ارتكبه الأفشين من المخالفات وعلى ما كان يكنه من العداء نحو المسلمين والإسلام، وبعد محاكمة طويلة أعيد الأفشين إلى سجنه ومات في سجنه سنة ٢٢٦هـ على أثر أكلة فاكهة أرسلت إليه من قبل الخليفة، فأخرج جسمه من السجن وصلب ثم أحرق، أما مازيار فقد ضرب ضربًا أليمًا مات بسببه.

يقول موير "إن محاكمة الأفشين أضاءت أمام الخليفة وحاشيته الطريق، وأظهرت له ما كان هؤلاء المجوس يضمرون نحو الإسلام، وأن غالبية الفرس كانت تعتنق هذا الدين ظاهريًا، وكانت تترقب الفرصة للرجوع إلى دينهم، وما ثورة بابك والمبرقع الخراساني وغيرهما إلا دليل واضح على هذا الميل".

ثورة أبي حرب المبرقع اليماني بفلسطين:

كان جند الأتراك لا يحرمون حقوق الأفراد ولا يراعون حرمة المنازل، فنشأ عن ذلك أن خرج على الدولة أبو خرب المبرقع اليماني، وسبب ذلك أن دخل أحد جند الترك منزله وهو غائب فمنعته زوجه، فضربها بسوط على يدها، فلما جاء زوجها وعرف

الخبر حمل سيفه وذهب إلى الجندي وقتله، ثم فر إلى جبل من جبال الأردن، وألبس وجهه برقعًا كيلا يعرف وكان يظهر بالنهار ويدعو الناس إليه، ونشر أمره بينهم، فالتف حوله جماعة من رؤساء اليمانية وكبر شأنه، وعلم المعتصم بخبره، فأرسل إليه رجاء بن أيوب الخضاري أحد قواده، فتغلب عليه، وشتت شمل أنصاره، وقبض عليه، وحمله إلى المعتصم أسيرًا.

أحوال الدولة الخارجية في عهده

انتهز البوزنطيون فرصة اشتغال الدولة بمحاربة بابك، وأغار توفيل إمبراطورهم على أملاك المسلمين، ودخل زبطرة وملطية، وأحرق المنازل وقتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية، وعذب الأهلين عذابًا أليمًا، ومثل بهم أفظع تمثيل، وتقدم حتى دخل سوريا، ووصلت أخبار تلك الفظائع إلى مسامع الخليفة، ويقال أنه أخبر بنداء سيدة هاشمية تستنجد به من ظلم الروم وقسوتهم، فهب من فوره يستعد للقتال، واستعد استعدادًا كبيرًا وفي الربيع من سنة ٢٢٣هـ خرج بجيشه إلى طرسوس، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق على رأسها قواد من الأتراك، فكان على المقدمة أشناس ويتلوه مُحَّد بن إبراهيم المصعبي، وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار ، وأمر الأفشين أن يمضي فيدخل بلاد الروم، وحدد له يومًا أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة، واسر الأفشين والتقى بجيش الإمبراطور وهزمه بعد حرب ضروس، وكان المعتصم قد دخل هو وأشناس أنقرة من غير أ ن يلقيا حربًا لتفرق الجنود التي كانت قد جمعت لمحاربة الخليفة، وعند ذلك عزم المعتصم على الزحف على مدينة عمورية وهي مسقط رأس الإمبراطور، وزحف عليها بجيشه وكانت المدينة محصنة تحصينًا قويًا فقاومت جيوش الخليفة مدة ٥٥ يومًا، وأخيرًا ضيق عليها المعتصم الحصار وأمطر أسوارها وابلًا من الحجارة فاتلفها، واستطاع جنده الدخول إلى المدينة، وانتقم الخليفة من أهل المدينة انتقامًا مرا وثأر لضحايا زبطرة وملطية وأسر وغنم، ثم أحرق المدينة وعاد إلى طرسوس واضطر توفيل إلى طلب الهدنة فهادنه الخليفة في سنة ٨٤١م ورجع إلى سامرا منتصرًا وكان رجوعه بعد ذلك

الظفر يومًا مشهودًا، وامتدحه الشعراء، ومنهم أبو تمام حبيب بن أوس فقد قال إذ ذاك قصيدته المشهورة التي أولها:

السيف أصدق أبناء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القشب

الوزارة في عهد المعتصم

كان الفضل بن مروان هو أول وزير استوزره المعتصم، وهو الذي أخذ له البيعة على الناس في بغداد عندما بلغه خبر وفاة المأمون، وظل وزيرًا نحو سنتين استبد في أثنائهما بالأمور، واستقل بإدارة الشئون دون الخليفة، فكثر حساده وأوقعوا به عند الخليفة فغضب عليه، وعزله وأمر بسجنه، صم استوزر بعده الفضل أحمد بن عمار الخراساني وكان وزيرًا أميًا، لا يحسن القراءة والكتابة، فعزله الخليفة، واتخذ مكانه مُحَمَّد ابن عبد الملك المعروف بابن الزيات، فقام بأمر الوزارة خير القيام، واستمر وزيرًا حتى توفى المعتصم، وكان عالمًا أديبًا يجيد خدمة الملوك وكان يقول الشعر ولكنه كان شديدًا في معاملة الولاة، الذين يصادرهم لارتكابهم الخيانة في شئون وظائفهم، وقد اشتهر في هذا العهد أحمد بن أبي دؤاد الأيادي وكان من المعتصم، كيحيي بن اكثم من المأمون، ولا قضاة القضاة، واختص به، حتى كان لا يفعل فعلًا باطنًا ولا ظاهرًا إلا برأيه. "فكان له في حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد" وكان ممن يحبون الخير للناس وله شرف وجمال خلق عربي حتى عرف بالمروءة وكان يحمل في سبيلها مالًا يحمله أحد. "وكان وجود ابن أبي دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاحه لأنه شجاع شديد عجول، وفكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبي داود حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير في سبيلهما، وكان له عليه من الدالة وعلو المركز ما يستعيم به على تنفيذ غرضه".

وفاة المعتصم وأخلاقه

مات المعتصم يوم الخميس لثمان ليال مضت من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ وترك ولاية العهد لابنه هارون، ولقد امتاز بالشجاعة والأقدام، وشدة الناس، وكان رحيمًا، طيب القلب غيورًا على الإسلام والمسلمين، ولكنه لم يكن بعيد النظر في العواقب، وعليه وحدة تقع تبعة ما حل بالعباسيين بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلاطينهم وما حل بالأمة العربية من تغلب العنصر التركي على أمورها.

٢ – هارون الواثق بالله (٢٢٧ – ٢٣٢) هـ (٨٤٢ – ٨٤٧)م

ولد أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم في سنة ١٨٦ هـ وكانت أنه من سبايا الروم تسمى قراطيس، وبايعه الناس بالخلافة عقب وفاة أبيه، وأعتلى عرش الدولة في شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، وقد ورث عن والده ميوله الفارسية، وسار على خطته في المسائل الدينية، وأجبر القوم على اعتناق مذهب المعتزلة، وكان مستبدًا ضعيفًا في إدارة الشئون، ولكنه كان شجاعًا في الأمور الحربية، وكثيرًا ما قاد الجيوش بنفسه في ميادين القتل، وقد اشتهر بحبه للعلويين، فإنه أكرمهم وأحسن إليهم، وأجرى على أهل الحرمين أرزاقًا كثيرة. وقد اختلف الكتاب في تقدير صفاته اختلافًا كبيرًا، فبينما نرى الكتاب الذين يناوئون الحركة الفكرية والنهضة المذهبية يحملون عليه حملات شديدة، ويصفونه بالاستبداد والعجز، وضعف الإرادة، وسوء الإدارة، نرى الفريق الآخر يمجده، ويعلي من شأن حكومته، ويصف عصره بعصر الحزم والعرفان، وأنه كان محبًا للأدب وأهله، ميالًا للشعر والموسيقى، وكان محسنًا لدرجة تفوق حد الوصف، ويستشهد كتاب الفريق الأول على استبداده، بالنكبة التي نكب بها الكتاب والعمال متهمًا إياهم بالخيانة وأخذ منهم الأموال التي ظن إنهم اختانوه فيها، ويروي عن سبب ذلك أنه كان يجلس ذات ليلة بين فريق من سماره فسأل عن أسباب نكبة الرشيدة للبرامكة، فأجابه أحد الجلساء أن سبب النكبة يرجع إلى أن هؤلاء البرامكة، استهلكوا الأموال، وتعللوا في إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها فلما علم الرشيد بذلك وثب عليهم، وأزال نعمتهم

متمثلاً بقول القائل: "إنما العاجز من لا يستبد"فقال الواثق صدق والله جدى، إنما العاجز من لا يستبد وأخذ يتهم كتابه بالخيانة، وحصل منهم على مبالغ كبيرة من المال، بلغت نحو مليونين من الدنانير، ودل ذلك على ما وصلت إليه الدولة من سوء الإدارة المالية، وانتشار الرشوة بين طبقات الموظفين والعمال، وجشع الوزراء والولاة.

حالة الدولة الداخلية في عهده:

أولًا: الحركة المذهبية

أتبع الواثق سياسة المأمون والمعتصم الدينية. ومال إلى الاعتزال وعمل على نشره، فقاومه فريق الفقهاء وأهل السنة، واشتدت حركة المعارضة. وغضب أهل بغداد، وتأمرون على الحكومة ورأس المعارضين أحمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعي، وكان فقيها اشتر بالورع والتقوى، وكان أبوه نقيبًا من نقباء الدولة العباسية.

والتف حول أحمد خلق كثير وكبر شأنه واتفق الجميع على أن يتظاهروا بالأعلام والطبول محتجين على تصرفات الخليفة الدينية معلنين سقوطه. وضربوا لهذا الخروج يومًا معينًا. ولكن خبر المؤامرة اكتشف قبل نفاذها بيوم.

وقبض رجال الشرطة على أحمد بن نصر وزعماء المتآمرين، وحملوهم إلى الواثق بسامرا "فجلس لهم الواثق مجلسًا عامًا لامتحانهم، ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر في الشغب، ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليه لكنه سأله ما تقول في القرآن؟ قال هو كلام الله، ولم يزد على ذلك.

وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله، فقام الواثق إليه بنفسه وقتله، وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها في الجانب الشرقي، وجعل في أذنه رقعة فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك، ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الأمام الوائق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح، والحمد لله الذي عجل به إلى ناره وأليم عقابه، وأن أمير المؤمنين سأله عن

ذلك فأقر بالتشبيه، وتكلم بالكفر، فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه".

وقد اشتهر أيضًا أبو يعقوب بن يوسف بن يحيي من علماء مصر وكان من أصدقاء الإمام الشافعي، وعلم بخبره الواثق فأرسل إلى عامله أن يمتحنه فامتحنه فلم يجب. وامتنع، فأرسل إلى الواثق فأمر بسجنه، وسجن ببغداد وظل مسجونًا حتى مات في سجنه سنه ٢٣١هـ.

هذا وقد استمر هذه الاضطهادات الدينية طوال حكم الواثق، ولكنها أبطلن في عهد المتوكل الذي حكم بعد الواثق فأنه أمر برفع المحنة، وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون، وقد حمد الناس له هذه المكرمة وذلك التسامح وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، وتجاوزا لع عما كان من هفواته.

ثانيًا: قامت الثورات وعمت بلاد الخلافة، فقام الخوارج بثورة في بلاد الموصل، وثارت جموع الكرد في فارس، وساءت الحال في الشام وبلاد العرب، وكانت الثورة في تلك الأصقاع مما يهدد سلامة الدولة وينذر بسوء العاقبة ولذلك يحسن أن نورد شيئًا عن أسبابها وسيرها ونتائجها.

ثارت بلاد العرب بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٢ هـ وترجع أسباب تلك الثورات إلى الاعتداءات التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان في المدينة المنورة وغيرها من مدن الحجاز، وكانوا يسلبون الناس أشياءها وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة، فوجه إليهم حاكم المدينة مُحَمَّد بن صالح بت العباس قوة بقيادة حماد بن جرير الطبري، فقاتلهم بالقرب من المدينة فهزموه وقتلوه، وعظم أمرهم بعد ذلك، فوجه إليهم حتى وصل حرة بني سليم وهناك قاتلهم قتالًا عنيفًا، وتغلب على قواتهم وشتت شملهم، فطلب رؤساؤهم الأمان فأمن بعضهم، وقبض على من اشتهر منهم بالشر والفساد، وحملهم إلى المدينة في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٠هـ وحبسهم فيها ثم سار إلى مكة وأدى فريضة الحج.

وخرج بعد ذلك لمقاتلة عرب بني هلال، وبعد قتال طلبوا إليه أن يؤمنهم كما أمن أخوانهم من بني سليم ففعل، ولكنه أيضًا قبل على أهل الشر منهم ورحل بهم إلى المدينة

وضمهم إلى باقي المسجونين، وبلغ عددهم جميعًا نحو ١٣٠٠ رجل، وسار هو إلى محاربة بني مرة، وانتهز المسجونون هذه الفرصة ونقبوا جدار السجن وحاولوا الهروب فقاومهم أهل المدينة، واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج، وقام عبيد الأشراف وذبحوا المسجونين جميعًا، ولما علم بغا بخبر ذبحهم حزن لذلك حزنًا شديدًا.

استمر بغا يطارد الثوار والخارجين على الدولة من بني مرة وفزارة وبني كلاب، واستطاع أن يشتت شملهم ويفرق جموعهم بعد أن قبض على كثيرين منهم، ورجع بهم إلى المدينة في شهر رمضان سنة ٢٣١هـ وحبسهم أيضًا بها ثم خرجا حاجًا.

وفي السنة التالية أرسل إليه الخليفة أن يخرج إلى غزو بني نمير ويقضي على شرورهم. فمضى نحو اليمامة والتقى بجماعة منهم بموضع يقال له الشريف وحاربهم، وقتل منهم عددًا وأسر عددًا آخر، ثم تقدم يطارد باقي الثوار حتى اجتمع بهم في مكان يقال له روضة الأبان وبطن السر وطلب إليهم الخضوع والدخول في طاعة الخليفة فامتنعوا فقاتلهم وانتصر عليهم في النهاية، وأمن الباقي من جموعهم ولما جاءوا إليه قبض عليهم وحملهم ورجع بهم إلى البصرة، فوصلها في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٢هـ، وطلب إلى صالح بن العباس أمير المدينة أن يسير إليه بالمسجونين بالمدينة، وتقابل الاثنان في بغداد وسار بمن معهما من الأسرى إلى سامرا، وهدأت الأحوال بعد ذلك في سوريا وبلاد العرب وغيرها من أقاليم الدولة.

حالة الدولة الخارجية في عهده

كانت الحروب لا تنقطع بين الدولة العباسية والدولة البوزنطية وقد سبق أن وصفنا تلك الحروب في عصور الخلفاء العباسيين التي مرت علينا وكان المسلمون يأسرون من البوزنطيين، وهؤلاء يأخذون من المسلمين عددًا كبيرًا من الأسرى، ولما كانت تقف رحى القتال وتعقد الهدنة بين الطرفين "كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق" فكانتا تتفقان على المفاداة، كل أسير بمثله.

وقد وقع هذا الفداء في زمن هارون الرشيد، ولما جاء زمن الواثق أرسل إليه

إمبراطور الروم رسلًا يسألونه أن يفادي بمن في يده من أساري المسلمين، فقبل الواثق الطلب، وقامت عملية الفداء في يوم عاشوراء سنة ٢٣١هـ على نهر اللامس قريبًا من طرسوس وكان عدد من فودي به من المسلمين ٤٦٠٠.

"ومن غريب ما حصل في هذا الفداء أن أحمد بن أبي داود القاضي أرسل مندوبًا من قبله يمتحن الأسرى في ميولهم الدينية حتى لا يفدى منهم من لا يقول بخلق القرآن، وهذا غلو قد وصل إلى نهايته".

وفاة الواثق وأخلاقه

مات الواثق بعد حكم قصير دام خمس سنين وتسعة أشهر وأيامًا في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ. وبموته انقضى عصر الدولة العباسية الذهبي ودخلت في دور اضمحلالها وانحلالها، ولقد كان الواثق آخر من قاد الجيوش العسكرية في ميادين القتال من الخلفاء العباسيين.

وكان "واسع المعروف متعطفًا على أهل بيته، متفقدًا لرعيته مكرمًا لأهله مبغضًا للتقليد وأهله." ولكنه كان متعصبًا لمذهبه، فأخذت مسألة حلق القرآن في عهده شكلًا حادًا مما أدى إلى الاضطهادات الدينية التي مر ذكرها.

ولم يستوزر غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه، وكانت له الكلمة العليا في إدارة الشئون، واشتهر من قواده بغا وأشناس، وفي عصره ثبت قدم الأتراك وأصبحوا أصحاب نفوذ ورأي في أمور الدولة.

الباب السابع

عصر نفوذ الأتراك

(٢٣٢ - ٣٣٤) هـ (٨٤٧ - ٩٤٦) م

امتـاز هـذا العصـر بازدياد نفـوذ الأتـراك وقـوادهم ورؤسـاء جنـدهم، وأصـبحوا أصحاب الحول والطول في الدولة وشئونها: يولون من الخلفاء من شاءوا ويعزلون من شاءوا. ويسيطرون على الإدارة الحكومية في الداخل والخارج، ويدبرون الشئون العسكرية ويقومون بتدبير المسائل المالية يسعدهم في لك رؤساء الكتاب ووزراء السوء، وضعف الخلفاء أمامهم ضعفًا جعلهم يستأثرون بالنفوذ والسلطان في الدولة، واستعان بهم أعضاء البيت المالك للوصول إلى عرش الخلافة، والتغلب على منافسيهم، فكانوا مصدر للقلاقل ومنبعًا للفتن والدسائس، وبدل أن يكونوا عونًا للدولة وسياجًا يصد عنها غارات المغيرين انقلبوا أعداء لها وجروها إلى الاضمحلال والانحلال، فكان مثلهم فيها كمثل الانكشارية في الدولة العثمانية.

إذا كانوا سببًا في قيامها ونهضتها وسببًا في اضمحلالها وسقوطها، ولذلك أطلق المؤرخون على هذا العصر اسم العصر التركي تمييزًا له عن العصر الفارسي الذي سبقه والذي كان في أثنائه نفوذ الفرس كبيرًا.

وفي أثناء ذلك العصر تولى عرض الخلافة أثنا عشر خليفة، كان أولهم جعفر المتوكل على الله بن المعتصم، وآخرهم إبراهيم المتقي لله بن المعتمد، وقد قتل منهم أثنان وخلع خمسة وتوفى الباقون. وفي أيام خلافتهم عمت البلاد الفتن والاضطرابات، وتناثرت عنها بعض أجزائها وظهرت فيها دوبلات كان لها شأن كبير في التاريخ وإليك البيان.


آسيا الغربية
بيان أهم الدول والممالك الإسلامية التي نشأت من
دولة الخلافة العباسية
ممالك الترك
البلغار
بحر بنطس
دولة الروم الشرقية
رودس
قبرس
الإسكندرية
الفسطاط
مصر
أسوان
النوبة
النيل
دمشق
حلب
الموصل
بنو حمدان
بغداد
الكوفة
البصرة
الأهواز
تبوك
المدينة
مكة
القطيف
البحرين
اليمامة
الري
همدان
نهاوند
حلوان
اصبهان
اصطخر
شيراز
فارس
مكران
نيسابور
بخارى
سمرقند
طخارستان
كابل
غزنة
زابلستان
الغور
سجستان
السند

١- المتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧) هـ (٨٤٧ – ٨٦١)

وُلِدَ جعفر المتوكل على الله في شوال سنة ٢٠٦هـ بفم الصلاح، وتولى عرش الدولة في اليوم الذي توفى فيه أخوه الواثق سنة٢٣٢هـ، ولقد كان الواثق غير راض عنه في أيام خلافته، وبعده عنه، ووكل بمراقبته رجلين يحصيان عليه حركاته وسكناته، ويخبران الخليفة عنها في كل وقت، ولما توفى الواثق فجأة ولم يكن قد عهد بأمر الخلافة إلى أحد، اجتمع رجال الدولة الكبار ومعهم قواد الأتراك العظام، وتباحثوا في أمر الخليفة، فاقترح فريق منهم أن يولى العرش ابن الواثق، ولكن قواد الترك لم يوافقوا عليه لصغر سنة فاقترح ابن أبي داود اسم جعفر بن المعتصم ليكون الخليفة بعد الواثق، فاتفق رأيهم عليه واحضروه وسلموا عليه بأمارة المؤمنين، وبايعه الناس، ولقد كان قاسي القلب ظالمًا حتى أطلق عليه المؤرخين اسم نيرون المسلمين، وفي عهده ابتدأ اضمحلال الدولة العباسية، إذ ترك أمور الدولة لقواده وكتابه، وانغمس في اللذات والشراب. وانتشرت الرشوة بين الولاة والموظفين، وساءت الأحوال، وفي عهده أبطلت المناظرات الدينية، وأعاد غلى الفقهاء وأهل السنة نفوذهم ومقامهم، وطرد أهل الاعتزال من الوظائف العامة، وأوقف إلقاء المحاضرات العلمية والفلسفية، واضطهد الطوائف الأخرى، وأبعدهم عن وظائف الدولة، وطاردهم مطاردة عنيفة، وألزمهم في ٢٣٥ هـ أن يلبسوا لباسًا خاصًا بهم ومن كان عندهم من العبيد، وحرم عليهم ركوب الخيل، وأن يضعوا على وجهات منازلهم صورة لإبليس، وإلا ترتفع قبورهم عن سطح الأرض، وإلا يرسلوا أولادهم إلى مدارس المسلمين، وأمر بهدم الكنائس التي كانت قد بنيت حديثًا في أنحاء الدولة، وحرم على المسلمين أن يعلموا أولاد النصارى أو اليهود، وكتب بذلك منشورًا عامًا أرسله إلى عماله في الآفاق وكان ذلك بين سنتي ٢٣٥ و ٢٣٩هـ.

أحوال الدولة الداخلية في عهده:

أولًا: وزارة الدولة

بقى مُحَمَّد بن عبد الملك الزيات الوزير الأول في الدولة في بدء حكم المتوكل، ولكنه

كان يحقد عليه لما فعله معه في حياة أخيه، وترقب الفرصة للخلاص منه، وبعد شهرته من اعتلائه العرش أمر فقبض عليه في شهر صفر سنة ٢٣٣هـ، وصاد جميع ماله من عقار ومنقول، وصادر ضياع أهل بيته أهل بيته حيث كانت، وعذبه عذابًا أليمًا، وظل هذا الوزير البائس يعذب حتى موتة شنيعة، وبعد ذلك بخمسة أشهر أمر الخلية بالقبض على عمر بن فرج وأخيه مُحَمَّد بن فرج، وصادر أملاكهما وأمتعتهما وضياعهما وحصل منها على مبالغ طائلة من الأموال ثم استوزر أحمد بن خالد، ولكنه غضب عليه بعد قليل وأمر بمحاسبته وأخذ منه مبلغًا كبيرًا من المال، وحبس بسببه جماعة من الكتاب واغرموا من المال قدرًا كثيرًا واتخذ بعده مُحَمَّد بن الفضل الجرجرائي وزيرًا له فظل في وزارته إلى سنة ٢٣٦هـ، وفيها صرفه عن العمل لكبر سنه واختار بعده عبيد الله ابن يحيي بن خاقان، وقد بقى وزيرًا له إلى أن مات، وكان مشهورًا بالكرم وحسن الخلق وكان الجند يحبونه لذلك. أما أحمد بن داود فقد ظل يشغل وظيفة قاضي القضاة حتى سنة ٢٣٣ التي مرض فيها، وعجز عن العمل فأنبا أبنه عنه في القضاء وولاية المظالم، ولكن المتوكل غضب عليهما وعزلهما، وولى مكانهما يحيي بن اكثم. وفي سنة٢٣٧ هـ أمر الخليفة بحبسهما ومصادرة أملاكهما وأملاك باقي الأسرة، وقد مات أحمد في السجن هو وابنه في سنة ٢٣٩هـ ويقال أن أحد أبناء القاضي الكبير اشترى حريته من الخليفة بدفع ستة عشر ألف ألف درهم.

ثانيًا: سقوط إيتاخ القائد التركي

كان إيتاخ من قواد الدولة العظام، وقد أبلى بلاء حسنًا في الحرب ضدا لروم في حصار عمورية في زمن المعتصم، وكان له فضل كبير في مطاردة بابك الخرمي، والقضاء عليه وكان له سلطان واسع ونفوذ كبير فحقد عليه المتوكل، وأراد الخلاص منه، ويقال أنه غضب عليه بسبب تطاوله عليه في مجلس شراب، ورأى أن الفتك به في سامرا وهو بين جنده وقومه قد يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباها، فدس إليه من أشار عليه بالاستئذان في الحج، ففعل وأذن له الخليفة، وولاه إمارة كل بلد يدخله وخلع عليه خلع الشرف، وركب معه جميع القواد حتى اطمأن القائد التركي إلى جانب المتوكل وأدى فريضة الحج ورجع إلى

العراق، فأمر الخليفة إسحاق ابن إبراهيم المصعبي رئيس الشرطة ببغداد أن يلقي القائد ويخبره بأن أمير المؤمنين أراد أن يدخل بغداد، ويستقبل بن هاشم ووجوه القوم ويأمر لهم بالجوائز فدخل إيتاخ دار خزيمة بن خازم لينفذ أمر الخليفة وحجز رئيس الشرطة عنه غلمانه وقبض عليه وحمله إلى داره، وهناك قيده وأثقل بالحديد في عنقه ورجليه ورماه في السجن.

فظل بضعة أشهر ومنع عنه الماء فمات عطشًا في سنة **٢٣٥** هـ وأمر الخليفة بالقبض على أبنائه وكتابه وسجنهم وظلوا بالسجن حتى مات المتوكل.

ثالثًا: العلويون

كان المتوكل يكره علي بن أبي طالب هو وآل بيته كراهية شديدة، وكان جلساؤه وندماؤه يحقرون من شأن عليٍ وذريته. ويحسنون عل الوقيعة في أسلافهم، ويشيرون عليه بأبعاد العلويين والأعراض عنهم والإساءة إليهم وازدادت تلك الكراهية حتى أنه أمر في سنة ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين ابن علي بكربلاء، وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من زيارة ذلك الموضع، وهدد من خالف أمر الخليفة بالسجن، فخاف الناس بطش الخليفة وعماله، وامتنعوا عن التبرك بالقبر وموضعه، وقد غضب الناس لذلك غضبًا شديدًا.

ويقول المؤرخون إن تلك المعاملة القاسية كانت سببًا من الأسباب التي دفعت ابنه المنتصر على قتله فيما بعد. وكان أبو الحسن علي الهادي ابن محمد الجواد بن الرضا إمامًا للأمامية في عهده، وكان يقيم بالمدينة فوشى به الواشون فأمر الخليفة باستقدامه إلى سامرا وأمره بالإقامة فيهان فاقام ولكت السعايات لم تنقطع وأمر المتوكل بمهاجمة منزله ليلًا. فلما هوجم المنزل وجد الأمام منفردًا يصلي ويدعو الله، ووجد المنزل خاليًا من كل ما بلغ الخليفة، وحمل الأمام إلى المتوكل في جوف الليل، وادخل عليه وهو يشرب فأجلسه المتوكل إلى جنبه وعرض إليه الكأس فاستعفى فأعفاه، ثم طلب إليه أن ينشده شعرًا فأنشده:

باتـوا علـى قلـل الأجبـال تحرسـهم غلـب الرجـال فمـا أغنـتهم القلـل
واسـتنزلوا بعـد عـز عـن معـاقلهم فـأودهوا حفـرًا يا بئسـما نزلـوا
نادهـم صـارخ مـن بعـد مـا قـبروا أيـن الأسـرة والتيجـان والحلـل
أيـن الوجـوه الـتي كانـت منعمـة مـن دونهـا تقـرب الأسـتار والكلـل

إلى أن قال:

وطالمـا كنـزوا الأمـوال وادخـروا فخلفوهـا علـى الأعـداء وارتحلـوا
أضـحت منـازلهم قفـرًا معطلـة وسـاكنوها إلى الأجـداث قـد رحلـوا

فبكى الخليفة حتى بلت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضي بها دينه ورده إلى منزله مكرمًا.

رابعًا: الاضطرابات والفتن في الدولة

اضطربت أحوال الدولة في عهد المتوكل، وانتشرت الفتن في أنحائها، فقامت الثورات في سجستان وفي أذربيجان ولم تخمد تلك الثورات إلا بعد أن كلفت الدولة رجالًا وأموالًا طائلة، وكان رأس الفتنة في أذربيجان مُحَمَّد بن البعيث بن حلبس، ثم اختل النظام وفسد الأمن بالديار المصرية، وأغار الروم على الوجه البحري ودخلوا الإسكندرية واحتلوها زمنًا كبيرًا، وساءت الأحوال في الوجه القبلي، واعتدى المعتدون على قراه ومدنه، وأرسل المتوكل الجيوش والقواد لإخماد تلك الفتن، فاستطاعت إخمادها بعد عناء في سنة ٢٤١هـ وحمل الجيش المنتصر زعيم الثوار في القطر المصري ويسمي على بابا إلى دار الخلافة. وهناك استقبل استقبالًا عظيمًا وعفا عنه الخليفة وعهد إليه بالمحافظة على طريق الحج بين مصر ومكة.

قامت الثورة في أرمينية بين سنتي ٢٣٧ و ٢٣٨ هـ بسبب هياج البطاقة فيها وخروجهم على والي الخليفة وهو يوسف بن مُحَمَّد فقد خرجوا عليه في ٢٣٧هـ وقاتلوه وقتلوه وقتلوا معه عددًا كبيرًا من أصحابه، ولما بلغ الخبر المتوكل أرسل غليهم بغا الشرابي وهو من قواد الترك مطالبًا بالثأر فأخمد الثورة وقتل من الأهلين نحو ثلاثين ألفًا، وسبى

منهم خلقًا كثيرًا ثم سار محدقًا بلاد أرمينية لإرهاب عصاتها. وزحف على تفليس لإخضاع إسحاق ابن إسماعيل مولى الأمويين، وكان قد ثار على الخلافة العباسية، وأقام نفسه أميرًا مستقلًا في تلك الجهة، وحاصر بغا المدينة في سنة ٢٣٨، وأحرقها وأحرق من سكانها ما يقرب من الخمسين ألفًا وقبض على الثائر وضرب عنقه، ثم زحف بعد ذلك على شواطئ بحر قزوين والبحر الأسود لإخضاع باقي أمراء أرمينية الذين ثاروا على الدولة، ورجع إلى سامرا يحمل معه كثيرًا من بطارقة أذربيجان وأران وبعضًا من أمراء أرمينية، ويقال أن الخليفة أمر بضرب أعناقهم عندما رفضوا اعتناق الإسلام.

ثارت البلاد في شمال سوريا بين سنتي ٢٤٠ و ٢٤١ هـ وقامت الفتنة في حمص، وطرد الثوار حاكمها فأمر الخليفة الجنود المرابطة في دمشق والرملة بالزحف لإخضاع الثوار وقمع الفتنة، ونجحت الجيوش في إخماد الفتن وعاقبت المسيحيين الذين اشتركوا في الثورة عقابًا صارمًا، وهدمت كنائسهم وأخرجتهم من المدينة.

نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق

أراد المتوكل أن يتقرب غلى السوريين فعزم على ترك سامرا بعد أن مكث بها اثنى عشر عامًا، وخرج إلى عاصمة الأمويين ليتخذها مقرًا لحكومته حتى يتخلص من شر الأتراك وقوادهم. وفي شر صفر سنة ٢٤٤هـ وصل إلى دمشق وابتدأ يشيد الأماكن والدور للمصالح الحكومية المختلفة، ولكنه وجد أن حالة الطقس في دمشق لا تناسب صحته، فعدل عن رأيه ورجع إلى سامرا، وفي ضواحيها ابتنى ضاحية جديدة سماها الجعفرية، وبنى له قصرًا فيها سماه "اللؤلؤة" وانفق على تلك العمارة مبالغ طائلة وأحاط قصره بالبساتين والحدائق، وأجرى إليه الجداول وملأه بكل أنواع الترف والنعيم.

قيام الدولة اليعفرية

اضطربت أمر اليمن في خلافة المأمون اضطرابًا شديدًا فأرسل إليها مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبيد الله بن زياد بن أبيه فأخضع الثورة فيها وملكها، وفي سنة ٢٠٤هـ بنى مدينة زبيد، وولى مولاه جعفر أعلى الجبال فعرفت بمخلاف جعفر، وملك اليمن بعده ابنه

إبراهيم بن مُحَمَّد، ثم زياد بن إبراهيم وتولى غيره أمر تلك البلاد التي خضعت لآل زياد حتى أوائل القرن الخامس الهجري، وبعد ذلك انتقل ملك البلاد إلى ملوك الأسرة الزيادية، بقي الأمر لهم حتى سنة ٥٣١هـ، واستولى على البلاد بنو مهدي وحكموها حتى انتزعها منهم توران شاه أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر في سنة ٥٦٩هـ.

وقد قام في تلك البلاد في أواخر حكم المتوكل حكم جديد وهو حكم الدولة اليعفرية التي قامت بصنعاء ومؤسسها هو يعفر بن عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالي، ولقد كان يعفر في بدء أمره نائبًا لآل زياد في صنعاء، وكان يهاجم ويدفع لهم الخراج ولكنه استقل بالأمر في سنة ٢٤٧هـ وخلفه أعقابه في صنعاء يملكونها ويستقلون بأمرها وظلوا كذلك حتى سنة ٣٨٧هـ.

أحوال الدولة الخارجية في عهد المتوكل

كانت الحرب بين المسلمين والروم متصلة في تلك العصور، وكانت الاغارات على الحدود من الجانبين لا تنقطع، وكان كل فريق ينتهز الفرصة السانحة حتى يعتدي على الآخر، فقد أغار الروم في سنة ٢٣٨هـ على مصر بطريق البحر، ودخلوا دمياط وأحرقوا دورها ومساجدها وسبوا كثيرًا من نسائها. ونهبوا وسلبوا ثم رجعوا إلى بلادهم سالمين، وقام المسلمون وثأروا لنفسهم، وأغاروا على أملاك الروم في آسيا الصغرى، وفي سنة ٢٤١هـ حصل فداء بين الطرفين على نهر اللامس، وأطلق سراح الأسرى من الجانبين، ولكن الروم اعتدوا على أملاك الدولة في السنة التالية، ونهبوا عدة قرى وأسروا عددًا عظيمًا من الأهلين، ووجه إليهم المتوكل قائده بغا في سنة ٢٤٤.

فخرج من دمشق في شهر ربيع الآخر وغزا الصائفة وافتتح صملة، ورجع الروم إلى غزوهم وأغاروا على سميساط، وقتلوا ونهبوا، وخرج إليهم علي بن يحيى الأرمني أمير الثغور الشامية وطاردهم، وفي سنة ٢٤٦هـ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم على يد ذلك القائد، ففودي بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفسًا.

تقسيم الدولة بين أولياء العهد

عقد المتوكل ولاية عهد الدولة لأولاده الثلاثة تشبهًا بجده الرشيد وقسم بلاد الدولة وأقاليمها بينهم في أواخر سنة ٢٣٥هـ، فولى المنتصر أكبر أولاده أفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى بلاد المغرب، وولاه العواصي والثغور السورية وديار مضر وربيعة بالموصل، وكور دجلة والحرمين واليمن، وحضرموت واليمامة والبحرين وغيرها من الأقاليم في غرب الدولة. وولى ابنه المعتز شرق الدولة فولاه كور خراسان وما يضاف إليها، وطبرستان والري وأرمينية، وأذربيجان وكور فارس وضم إليه في سنة ٢٤٠هـ خزائن بيوت الأموال في جميع النواحي ودور الضرب، وأمر بضرب اسمه على الدراهم. وولى ابنه الثالث المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وفلسطين، "وكتب بينهم كتابًا يشبه الذي كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم. وقد جعل المتوكل لأبنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال في أعمالهم إذا آلت الخلافة للمنتصر، بحيث لا يجوز أن يشرك في شيء من أعمال أحدهما أحدًا، ولا يوجه عليه أمينًا ولا كاتبًا ولا بريدًا، ولا يضرب على يده في قليل ولا كثير، وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز، وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ حفظت أحداها بخزائن أمير المؤمنين وأخذ كل من أولياء العهد نسخة".

ولقد كان هذا التقسيم من أقوى الأسباب التي أثارت الفتن والقلاقل في الدولة، والتي جعلت المنافسة بين الأخوة على أشد ما يكون، وشجعت الدسائس بينهم، واتخذ كل منهم البطانة والأعوان حتى يتغلب على الآخرين.

قتل المتوكل وأخلاقه

تغير قلب المتوكل على بعض قواده من الأتراك وعمل على تدبير المكايد حتى يتخلص منهم الواحد بعد الآخر، فشعر الأتراك بذلك، وأخذوا حذرهم والتفوا حول المنتصر ولي العهد، وحرضوه على الفتك بأبيه، لأنه كان يقدم أخاه المعتز عليه في أمور الدولة، وفي الصلاة بالناس، وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان، ونديمه الفتح بن

خاقان منحرفين عن المنتصر، فأخذا يزينان للخليفة تقديم المعتز على أخيه، فانتهز وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك فرصة غضب المنتصر وعملوا على الخلاص من المتوكل وإقامة صديقهم على عرش الخلافة، وفي ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧هـ دخل جند الترك على الخليفة وهو في مجلس الشراب، وقتلوه وقتلوا معه الفتح بن خاقان. وكانت هذه الحادثة "أول ثمرة لغرس المعتصم فإنه ملك الخلافة قومًا لا حلوم لهم، وليس لهم من الأخلاق ما يمنعهم مما فعلوا، ولا من العصبية ما يجعل جانبهم مأمونًا، وأجل من ذلك أن يكون ولي العهد شريكًا في دم أبيه".

اختلف المؤرخون في تقدير صفات المتوكل وأخلاقه، فذمه فريق الشيعة والمعتزلة والكتاب الذين ينتمون إليهم، ومدحه فريق الفقهاء وأهل الحديث وجماعة النفعيين والشعراء مثل أبي عبادة البحتري الشاعر المشهور وإبراهيم بن العباس الصولي وغيرهما، وقال المسعودي: "وكانت أيام المتوكل في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء".

٢ – محمد المنتصر (٢٤٧ – ٢٤٨ هـ) (٨٦١ – ٨٦٢م)

وُلِدَ المنتصر بن المتوكل بن المعتصم سنة ٢٢٢هـ. وتولى ولاية العهد سنة ٢٣٥هـ وهو في الثالثة عشرة من عمره، وبويع بالخلافة عقب قتل أبيه في شهر شوال سنة ٢٤٧هـ. ولقد كان للأتراك وقوادهم اليد الطولى في اعتلائه العرش، ولذلك كبر شأنهم في الدولة، وازداد نفوذهم، وأخذوا يملون إرادتهم على الخلفاء فلا يستطيع هؤلاء أن يعصوا لهم أمرًا، أو ينقضوا لهم رأيًا: ومن ذلك أشاروا على المنتصر أن يخلع المعتز والمؤيد عن ولاية العهد وعمل بمشورتهم، وترك لهم الحرية في تنفيذ ما أمر به، فأحضر كل منهما وكتب كتابًا يعترف فيه بعجزه عن تدبير شئون الدولة، وبضعفه عن القيام بخلافة المسلمين، ويحل الناس من البيعة التي كانت في أعناقهم له. ثم توجه الاثنان إلى المنتصر في مجلسه وأخبروه بأمرهما، فقال لهما والأتراك وقوف: "أترياني خلعتكما طمعًا في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط.

وإذا لم يكن في ذلك طمع فو الله لأن يليها بنو أبي أحب إليَّ من أن يليها بنو عمي، ولكن هؤلاء (وأومأ إلى سائر الموالي ممن هو قائم وهو قاعد) الحوا عليَّ في خلعكما، فخفت إن لم أفعل أن يضربكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما فما ترياني صانعًا؟ اقتله؟ فو الله ما تفي دماؤهم كلهم بدم بعضكم، فكانت إجابتهم إلى ما سألوا أسهل عليَّ" وهذا تصريح من جانب الخليفة خطير الشأن يدل دلالة واضحة على ما وصلت إليه الخلافة من ضعف.

يقول الخضري بك" "فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالإيمان والمواثيق والعهود"؟

كانت مدة المنتصر قصيرة لأنه مات في شهر ربيع سنة ٢٤٨ هـ بعد أن شغل كرسي الخلافة نحو ستة أشهر. ويقال أنه ندم ندمًا شديدًا على اشتراكه في قتل أبيه، وأنه كان لا يهنأ لا في يقظة ولا في منام حتى اعتلت صحته وانتابته الأمراض، وتوفى متأثرًا بسقامه. ووصفه سيد أمير على بأنه كان واسع الاحتمال، صبورًا، كثير المعروف، يميل إلى الخير والسخاء، كريم الأخلاق، حسن المعاشرة، يحب الرعية، ويعمل على إسعادها.

ولقد أزال عن العلويين ما كان قد أصابهم في زمن أبيه، وأعاد بناء ضريح الحسين، ﷺ، وأباح للناس زيارته وزيارة غيره من قبور آل أبي طالب، وأرجح للطالبين ما كان قد صادره أبوه من أملاكهم وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم. "وقد أظهر الأنصاف في الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له".

ويقول موير "إنه أول من كان قبره ظاهرًا من خلفاء العباسيين، فقد شيدته له أمه وكانت من سبايا الروم اسمها حبشية لأن الخلفاء الذين سبقوه رغبوا في أن يدفنوا في قبور لا يعرفها الناس خشية نبشها".

٣ – أبو العباس أحمد المستعين بالله (٢٤٨ – ٢٥٢) هـ (٨٦٢ – ٨٦٦م)

اجتمع قواد الأتراك ورؤساء الجند منهم بعد موت المنتصر، وعقدوا مجلسًا ضمهم وباقي الموالي من المغاربة والأشروسنية وتذاكروا فيما بينهم من يكون خليفة المسلمين؟

وبعد مناقشة اجتمع رأيهم على ألا يولوا أحد من أولاد المتوكل لئلا يثأر لأبيه منهم. وانتخبوا للخلافة حفيدًا من أحفاد المعتصم: وهو أحمد بن مُحَمَّد بن المعتصم. فأعتلى العرش، وتلقب بالمستعين بالله، وبايعه الناس بالخلافة في ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ. وكان في الثانية والعشرين من عمره، ولم يكن له من الخلافة إلا اسمها ولقبها، وكانت السلطة الحقيقية في أيدي الأتراك: يفعلون ما يشاؤن في أمور السلطنة، وكان الحليفة لا حول ولا قوة حتى مثله بعض الشعراء بقوله:

خليفـــــــــة في قفــــــــص بــــــين وصــــــيف وبغـــــــا

يقــــول مـــا قـــالا لـــه كمـــــا تقـــــول البغـــــا

وقد استوزر المستعين "أتامش" أحد قواد الأتراك: فاستأثر بالسلطان وتصرف في مالية الدولة تصرفًا أثار غضب باقي رؤساء الترك، فاجتمعوا عليه بقيادة وصيف وبغا، وهجموا عليه. وكان في الجوسق مع المستعين، وقتلوه في سنة ٢٤٩هـ وقتلوا معه شجاع (كاتبه) ونهبوا داره، وأخذوا ما كان بها من الأموال والمتاع والفرش، واستوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن مُحَمَّد، وكان أبوه وزير للمأمون، ولكنه ترك منصبه وفر إلى بغداد بعد ثلاثة أشهر من توليته، لأن بغا الصغير غضب عليه وأراد الفتك به. ولم يستوزر الخليفة بعده غيره، وترك للأتراك الحبل على الغارب فتنافسوا، وحسد بعضهم البعض، وكثرت الدسائس بينهم وكان وصيف وبغا صاحبي الحظوة عند المستعين، فحقد عليهما باغر التركي – الذي تولى قتل المتوكل – وعمل على قتل المستعين وقتلهما. فعرف الخليفة الخبر، واتفق مع قائديه على قتل باغر، وقد كان، فغضب أتباعه، وهاجوا هياجًا شديدًا، فخاف المستعين سوء العاقبة. وترك سامرا. إلى بغداد ووصلها في شهر المحرم سنة ٢٥١هـ، ونزل بدار مُحَمَّد بن عبد الله بن طاهر وكان معه وصيف وبغا فنهض جند الأتراك في سامرا وعلى رأسهم "بايكباك" وتوجهوا إلى بغداد، وتوسلوا إلى الخليفة ليرجع إلى مقر ملكه الأول، فأبى. وغضب الأتراك ورجعوا إلى سامرا، واتفقا على إقامة خليفة غيره، وأخرجوا المعتز والمؤيد من سجنهما، وبايعوا المعتز بالخلافة والمؤيد بولاية العهد.

الخليفتان

كان المستعين خليفة في بغداد، يناصره مُحَمَّد بن عبد الله بن طاهر وكان المعتز خليفة في سامرا، يعاضده الأتراك. وأخذ كل من الخليفتين يصدر الأوامر إلى الناس والولاة ي مختلف الأمصار والأقاليم بأتباعه والخروج على غيره. وأخيرًا قامت الحرب بينهما، وأرسل المعتز الجيوش إلى بغداد تحت إمرة أخيه أبي أحمد بن المتوكل.

وظلت الحرب قائمة طول سنة ٢٥١ هـ. وكانت بغداد في أثنائها مسرحًا للفتن والقلاقل، وفي نهاية تلك السنة انحرف ابن طاهر عن المستعين، وفاوض المعتز في أمر الصلح على شريطة أن يتنازل المستعين عن العرض، وقبل المعتز ما اشترطه المستعين لضمانة حياته وراحته، وبايع المستعين المعتز في بغداد في شهر المحرم سنة ٢٥٢هـ وخرج من بغداد إلى مدينة واسط، وفيها قتل قبل أن تنتهي السنة.

واختلف المؤرخون في كيفية القتل. ويقول الطبري: "وأتى سعيد بن صالح المعتز برأسه وهو يلعب بالشطرنج، فقيل هذا رأس المخلوع، فقال ضعوه هنا لك، ثم فرع من لعبه، ودعا به فنظر إليه، ثم أمر بدفنه، وأمر لسعيد بخمسين ألف درهم، وولى معونة البصرة".

الأحوال الداخلية الأخرى في عهد المستعين

ساءت أحوال الدولة الداخلية في عصر المستعين، واضطربت الأحوال اضطرابًا شديدًا، وثار في وجهه الثائرون في كل جهة، وابتدأت أجزاء الدولة تتناثر عنها، وتكون دوبلات مستقلة: فثار أحد العلويين بالكوفة، وثار علوي آخر في جهة طبرستان، وقامت الثورة في سجستان وثارت ثورة في بلاد العرب، وكانت الأحوال مضطربة في الموصل، وفلسطين، وحمص، وأصبهان، وفي غيرها من البلدان والأقاليم. ونقتصر على ذكر الثورات التي قام بها العلويون لخطورة شأنها.

الدولة الزيدية (٢٥٠ – ٣٥٥هـ)

اشتهر من الزيدية في عهد المستعين أثنان: أحدهما يحيي بن عمر بن يحيي بن زيد

علي بن الحسين – وكان من الحاقدين على العباسيين لأنهم لم يقضوا له حوائجه ويصلحوا من شأنه – فخرج بالكوفة ثائرًا والتف حوله خلق كثير من العرب، واستولى على الكوفة. ولما استفحل أمره وجه إليه مُحمَّد بن عبد الله بن طاهر جيشًا بقيادة الحسين بن إبراهيم ابن مصعب – وكان قائد قديرًا عالمًا بفنون الحرب – فخدع يحيى وقاتله وقتل كثيرًا من أتباعه وقتله أيضًا وكان ذلك في شهر رجب سنة ٢٥٠هـ، ثم أرسل رأسه إلى ابن طاهر فحملها إلى الخليفة بسامرا، فأمر بنصبها على أحد أبواب المدينة، فتذمر الناس واحتجوا، فردها إلى بغداد لتنصب بها. فثار البغداديون أيضًا معلنين استياءهم لتلك الوحشية التي ارتكبت في أحد أحفاد رسول الله ﷺ، فأنزل الرأس وحفظ في صندوق في بيت السلاح في دار ابن طاهر.

أما العلوي الثاني فكان الحسين بن زيد بن مُحمَّد بن إسماعيل بن الحسن ابن زيد بن الحسن بن علي، فإنه ثار على الدولة العباسية في شهر رمضان من تلكم السنة عينها في جهة طبرستان. وقال الطبري عن سبب ثورته ما يأتي: إن المستعين أقطع مُحمَّد بن طاهر قطائع من صوافي السلطان بطبرستان، وذلك بعد أن انتصر على يحيى بن عمر ورجاله، وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغري طبرستان من نواحي الديلم وهما كلار، وسالوس. وكان لأهل تلك الناحية أرض فيها مراع لمواشيهم تقع بحذاء تلك القطيعة، ووجه ابن طاهر جابر بن هارون لحيازة ما أقطع من تلك الأراضي، وأراد جابر أن يستولى على القطيعة وعلى ما جاورها من أرض، فغضب أهل تلك الناحية، وهبوا في وجهه، وانضم إليهم الديلم بسبب غضبهم من عامل طبرستان، وهو سليمان عبد الله بن طاهر – وسوء تصرف رجاله في تلك الجهة واتفق الجميع على محاربة من أساء إليهم ومن قصدهم بحرب، ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه، واختاروا الحسن بن زيد، "وكان مقيمًا بالري، ودعوه إليهم وبايعوه. وزحف الحسن ومن معه على مدينة (آمل) حاضرة طبرستان واستولى عليها، فكبر شأنه، ومال إليه كل طالب نهب ومريد فتنة. وزحف من آمال إلى سارية– حيث كان سليمان بن عبد الله – وتغلب عليه وطرده، فتم له الاستيلاء على بلاد طبرستان. ثم أرسل من استولى على مدينة الري بعد أن طردت

عنها عمال ابن طاهر، وبذلك نجح الحسن بن زيد في إقامة دولة زيدية بطبرستان، واقتطع من ملك بني العباس وعمالهم آل طاهر طرفًا عظيمًا تحميه جبال طبرستان والديلم، واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل".

استمرت الدولة الزيدية قائمة حتى سنة ٣٥٥هـ، ولكنها كانت عرضة لإغارة المغيرين، وهجمات الفاتحين: فقد استولى على أملاكها آل سامان وحكموها من سنة ٢٧٩هـ إلى سنة ٣٠١هـ، واستردها الحسن الأطروش بن علي ولكنه قتل في بعض حروبه مع السامانية. فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش، ولم يزل الخلاف قائمًا حتى انتهى أمر الدولة في سنة ٣٥٥هـ كما تقدم.

أحوال الدولة الخارجية ي عهد المستعين

كانت الحرب متصلة بين المسلمين والروم في تلك الأزمنة –كما سبق أن بينا – وكانت الكفة راجحة في جانب المسلمين حتى زمن المستعين، فإن الروم انتصروا في آسيا الصغرى على قائدين من أمهر قواد المسلمين: وهما عمر بن عبيد الله الأقطع، وعلي بن يحيى الأرمني، وقتلوهم وقتلوا معهما ثلاثة آلاف من جند المسلمين في سنة ٢٤٩هـولما وصلت أخبار تلك الهزيمة الشنيعة إلى بغداد ثارت المدينة معلنة الجهاد، وفتحت أبواب السجون، وأخرج العامة من فيها، وأحرقوا الجسور، وجمعوا جموعهم للزحف على أعداء الدين، وأمدهم الأغنياء والموسرون في كل من بغداد وسامرًا بالأموال والعدد. ولكن الخليفة وجنده الأتراك أهملوا الأمر واشتغلوا عن الجهاد بما كان يدور حولهم من الدسائس والمؤامرات، فأخفقت الحملة ولم تنل الغاية التي قامت من أجلها.

٤- أبو عبد الله المعتز (٢٥٢ – ٢٥٥ هـ) (٨٦٦ – ٨٦٩م)

ولد المعتز بن المتوكل في سنة ٢٣١هـ وكان أبوه قد عينه وليًا للعهد بعد أخيه المنتصر، ولكن المستعين خلعه وسجنه. وظل مسجونًا حتى خلع المستعين وأحرج من السجن وبويع بالخلافة في رابع شهر المحرم سنة ٢٥٢هـ وقد انحطت الخلافة في زمنه وصفر شأن الخليفة، ولم يعد له من الأمر شيء حتى كان لا يستطيع تولية وزير أو عزل

كاتب، بل كان المر للأتراك وكبار قوادهم يولون من شاءوا ويعزلون من شاءوا. وكانت أحوال الجند والأتراك على شر ما يكون إذ كانوا فيما بينهم مختلفين، وبسبب اختلافهم كثرت حوادث الاغتيال، واشتغل الخليفة بأمر الدسائس من غير أن يلتفت إلى تدبير أمور الملك وشئون الخلافة.

طلب الأتراك من المعتز في أول خلافته أن يعفو عن وصيف وبغا فعفا عنهم مكرها، واستقدمهما من بغداد إلى سامرا، ورد إليهما ضياعهما ومتاعهما وأصبح لهما من النفوذ والسلطان ما كان لهما في زمن المستعين. وقد اشتهر من الأتراك في عصره القائد بايكباك. وقامت القلاقل والفتن في كل من بغداد وسامرا بسبب النزاع الذي قام بين جند المغاربة وجند الأتراك وقتئذ. إذ طلب جند المغاربة ومن انضم إليهم أن يكون لهم من النفوذ والوظائف في الدولة ما كان لقواد الأتراك وجندهم، ونجح المغاربة في نيل ما طلبوا بعد أن تغلبوا على الأتراك، وانتزعوا من أيديهم بيت المال، ولكن الأتراك تمكنوا من استرداد سلطانهم وقتلوا مُحَمَّد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة. وفي سنة ٢٥٣هـ اجتمع الجند من المغاربة والأتراك والفرس وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر، فخرج إليهم وصيف وبغا وكلمهم وصيف بشيء من الشدة فوثب عليه بعضهم وضربوه بالسيف وقتلوه، وأقام المعتز بغا مكانه في إدارة الشئون، ولكنه ما لبث أن قرب منه بايكباك، وأمر بقتل بغا فقتل ونصب رأسه في سامرا ثم في بغداد. فصارت الكلمة العليا بين جند الأتراك لصالح بن وصيف وبايكباك، واستولى الاثنان على الخليفة وأدارا شئون الدولة.

الشغب في بغداد

كان مُحَمَّد بن عبد الله بن طاهر واليًا على بغداد وكان رجلًا مهيب الجانب اشتهر بالحزم والعزم والكرم، ولكن الجند خرجوا عليه في رمضان سنة ٢٥٢ هـ وطلبوا منه أرزاقهم واستعدوا لمحاربته، فوجه إليهم قواده والجند الموالين له رحى القتال بين الفريقين، وانتصر المشاغبون في بدء الحرب، ولكن فسد نظامهم بعد ذلك، فتغلب عليهم ابن

طاهر وقبض على زعماء المشاغبين وقتلهم، فهدأت الأحوال، ورجع الأمن إلى بغداد، وظل سائدًا بها حتى مات ابن طاهر في شهر ذي القعدة سنة ٢٥٣هـ واستحلف على إمارته في بغداد أخاه عبيد الله بن طاهر.

قيام الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ – ٢٩٢هـ) (٨٦٨ – ٩٠٥م)

كان بايكباك هو القائم بإدارة شئون الدولة بعد سقوط بغا، وكان قد أضاف إليه الخليفة ولاية مصر وترك له الحرية في اختيار من ينوب عنه في إدارتها، فاختار بايكباك في سنة ٢٥٤هـ أحمد بن طولون نائبًا عنه على الفسطاط، وهو ابن طولون التركي الذي أرسله إلى بغداد حاكم بخاري "أحمد الساماني" عام ٨١٥م، ٢٠٠هـ ليكون في حاشية المأمون، وقد ترقى طولون بجد ونشاطه حتى شغل وظيفة رئيس الحرس، وكانت من الوظائف العالية في الدولة، وفي سبتمبر سنة ٨٣٥م سنة ٢٢٠م ولد له أحمد ابنه بسامرا، فرباه تربية حسنة إذا علمه القرآن والسنة والأدب. ولما شب كان ينتقل إلى طرسوس في آسيا الصغرى من وقت إلى آخر للتعلم في مدارسها فوق اشتغاله بوظيفة في قصر الخلافة، فزادت معارفه وتجاربه.

وفي سنة ٨٦٨م اختاره بايكباك لولاية الفسطاط عاصمة مصر إذ ذاك فجاء أحمد إلى هذه الديار، وأخذ يعمل بجد وإخلاص حتى قوى نفوذه وخدمه الحظ بموت بايكباك في خلافة المعتدي إذ تولى مكانه أماجور أحد قواد الأتراك وكان صهر الابن طولون فجعله نائبًا عنه على مصر كلها، وسنتكلم عن باقي سيرته وسيرة أفراد أسرته عند التكلم على تاريخ من جاء من خلفاء الدولة العباسية.

خلع المعتز وموته

كان المعتز ألعوبة في يد الأتراك وجندهم كما مر بنا، وكانت خزانة الدولة في عهده خاوية على عروشها، فلم يستطع دفع مرتبات الجند، فخرجوا عليه بقيادة صالح بن وصيف التركي، ودخل عليه صالح ذات يوم وقال له: "يا أمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء، ولا في بيت المال مال، وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا".

فأجابه أحمد بن إسرائيل بشيء من الشدة وكان وزيرًا للمعتز، ولما بلغ الخبر مسامع أصحاب صالح، دخلوا على المعتز مصلتين سيوفهم، فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم، وأخذ صالح ابن وصيف أحمد بن إسرائيل والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم، وطالبهم بالمال، فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: "هب لي ـحمد فإنه كاتبي وقد رباني، فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز ترجوه في ابن إسرائيل أيضًا فلم يفد هذا ولا ذاك شيئًا" وطلب هؤلاء الأتراك المرتبات من الخليفة فلم يستطع إجابة ما طلبوا وأرسل إلى والدته يطلب مساعدتها، فأبت إعطاءه شيئًا من مالها، فاتحدت كلمة الجند من أتراك وفراعنة ومغاربة على خلع المعتز. ودخل عليه صالح ابن وصف وبايكباك ومُحَمَّد بن بغا والسلاح بأيديهم وجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربًا بالدبابيس، فخرج وقميصه مخرق في مواضع، وآثار الدم على منكبه، "فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر، فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي أقيم فيه، ثم بعثوا إلى قاضي القضاة فحضر، وأمر المعتز أن يمضي على كتاب خلع كتب له، فأمضى وشهد عليه الحاضرون، ويقال أنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات".

٥ – محمد المهتدي بالله (٢٥٥ – ٢٥٦) هـ (٨٦٩ – ٨٧٠)م

وُلِدَ مُحَمَّد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم في سنة ٢١٨هـ وبويع له بالخلافة بعد خلع المعتز في شهر رجب سنة ٢٥٥ هـ، ولقد كان في بغداد حينما خلع المعتز، فأحضره الأتراك وعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه، فأتى بالمعتز وقال له: "أنت في حل من بيعتي"، فقبلها المهتدي واعتلى العرش.

وقد اشتهر بالصلاح والتقوى وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحرم الشراب وطرد المغنين والمغنيات واقتصد في أموال الدولة، وأعاد للخلافة شيئًا من رونقها، وكان عادلًا متشبهًا بعمر بن عبد العزيز، وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤدي الصلاة إمامًا بالناس.

وقد اشتهر من وزرائه سليمان بن وهب بن سعيد، "وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلًا وأدبًا وكتابة، وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم"، وقد مدحه الشعراء لفطنته وحزمه ويقظته في تصريف شئون الدولة، فمدحه كل من أبي تمام والبحتري بأبيات رقيقة تنم عن اعترافهما بفضله.

علاقة المهتدي بالأتراك وقوادهم

شمر صالح بن وصيف عن ساعد الجد عقب خلع المعتز ومبايعة المهتدي، وأخذ يطارد حاشية الملك المخلوع ويصادر أملاكهم ويعذبهم عذابًا أليمًا حتى يخرجوا ما عندهم من الأموال، وطارد فيمن طارد السلطانة قبيحة والدة المعتز، وأخذ ما عندها من الأموال والأحجار الكريمة من الياقوت واللؤلؤ ثم نفاها إلى مكة، ولما بلغ موسى بن بغا أخبار تلك المصادرة أسرع في العودة إلى سامرا، وكان يحارب أحد العلويين في بلاد الديلم في عهد المعتز، وكتب إليه الخليفة أن يبقى هو وجنده بموضعه، فلم يطلع الأمر وحضرا إلى سامرا، ودخل على الخليفة وهو جالس للمظالم وأقامه من مجلسه وحمله إلى معسكره، وأخذ عليه العهود والمواثيق الإيمانيء صالحًا ففعل فجدد له موسى وجنده البيعة في شهر المحرم سنة ٢٥٦هـ.

اختفى صالح عند اقتراب موسى، وأرسل إلى الخليفة كتابًا يطلب فيه أن يحاكمه على ما اقترفه من آثام،فقبل المهتدي الطلب وأسل له أن يظهر فأتهم أتباع موسى الخليفة بإخفائه، وأرادوا خلعه فثارت العامة في وجهه ووزعت المنشورات في بغداد تدعو الناس إلى نصرة خليفتهم، فخاف الجند عواقب ما اعتزموه، وأعلنوا ولاءهم للمهتدي وشكوا له سوء حالهم وتأخر أرزاقهم لسبب ما صار من الاقطاعات إلى قوادهم. "وكانت هذه الشكوى في الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويًا ينتفع بها، لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين اقطعوا ضياعًا كثيرة لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت، وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة ما يسد به حاجة الجند".

استمر الجند يبحثون عن صالح حتى عثروا على مكانه وقبضوا عليه وقتلوه في شهر

صفر سنة ٢٥٦هـ، وهدأت الأحوال في الدولة بعد ذلك زمنًا قصيرًا، ثم قامت الفتن في بغداد إذ ثار الجند يطلبون المتأخر لهم من المرتبات والأرزاق، وقدموا للخليفة بعض طلبات وتوسلوا إليه أن يجيبها، وكان منها أن ينزع الخليفة قيادة الجيش من القواد الأتراك وغيرهم من الموالي، وأن يعين قوادًا من أخواته وأقاربه حتى تستقيم الأمور، ولقد كان أمام المهتدي فرصة ساحة للخلاص من سيادة الأتراك، ولكنه لم يفعل بل كان ظاهرة مع الرؤساء وباطنه مع الجنود، وأراد استعمال الحيلة في الخلاص منهم وكان موسى وبايكباك مشغولين بمحاربة أحد الخارجين على الدولة في بلاد الموصل، فأرسل المهتدي كتبًا إلى كل منهما على انفراد يأمر كلا منهما بالفتك بزميله، ولكنهما عرفا نيات الخليفة، ورجعا ومع ذلك تمكن المهتدي من القبض على بايكباك، وأمر بضرب عنقه فضرب عنقه وتخلص الخليفة من شره، وهاج الأتراك واستعدوا لقتال الخليفة وأتباعه من مغاربة وفراغنة ودارت رحى الحرب بين الفريقين وأظهر المهتدي شجاعة نادرة المثال، ولكنه غلب على أمره في النهاية وخسر المعركة وهرب إلى دار رئيس الشركة، ولكن الأتراك اقتفوا أثره وقبضوا عليه، وحملوه إلى داره مهانا في شهر رجب سنة ٢٥٦هـ، وخلعوه ومات بعد أربعة أيام من ذلك موتة غامضة.

يقول الطبري: "وكانت خلافة المهتدي كلها إلى أن انقضى أمره أحد عشر شهرا وخمسة وعشرين يومًا وعمره كله ثمان وثلاثون سنة". ويقول موير: "ولولا استسلام المعتدي ومقابلته الغدر بمثابة لعددناه من أفاضل الخلفاء العباسيين".

الباب الثامن

عصر المعتمد والموفق والمعتضد والمكتفي

١ – أحمد المعتمد على الله (٢٥٦ – ٢٧٩هـ) (٨٧٠ – ٨٩٢م)

وُلِدَ أحمد المعتمد على الله بن المتوكل سنة ٢٣١هـ، واعتلى عرش الخلافة بعد خلع المعتز في شهر رجب سنة ٢٥٦هـ، وقد كان مسجونًا قبل أن يتولى العرش، فاجتمع كبار القواد ورجاله الدولة وأجمعوا رأيهم بعد أن خلعوا المعتز وأخرجوا أحمد من السجن وبايعوه بالخلافة. فقبل المنصب وتلقب بالمعتمد على الله، ولما علم موسى بن بغا الخبر – وكان يحارب الخوارج في الأهواز – أسرع بالعودة إلى سامرا وبايع الخليفة، وقلب صحيفة جديدة من صحف حياته، وأظهر الولاء والطاعة لخليفة المسلمين، وخدم الدولة بجد وأمانة في ميدان الحرب والسياسة، فأحبه المعتمد وعهد إليه بالوصاية على ابنه وولي عهده، وكان قد أقامه واليًا على الغرب، وقد استردت الخلافة في عهده شيئًا من رونقها السالف، ووقف الأتراك وقوادهم عند حدهم وتحسنت الأحوال، ولم يجرؤ الأتراك أن يمسوا شخص الخليفة بسوء كما كانوا يفعلون في العهود التي مضت، ويرجع الفضل في ذلك إلى الهمة التي بذلها أخو المعتمد أبو أحمد طلحة بن المتوكل الملقب بالموفق، إذ انتهز فرصة ضعف المعتمد وميله إلى اللهو وسماع الموسيقى والغناء واستأثر بالسلطان الفعلي في البلاد، وأدار شئون الخلافة العسكرية والمدينة إدارة حازمة، وتولى قيادة الجيش بعد أن انتزعها من قواد الأتراك ورؤسائهم.

هذا وقد اشتهر من وزراء المعتمد عبيد الله بن يحيي بن خاقان وزير المتوكل، وسليمان بن وهب وزير المهتدي، وأبو الصقر إسماعيل بن بلبل وكان عربيًا ينتسب إلى

شيبان، وكانت أحوال الوزارة مضطربة في أثناء ذلك الحكم، وكثيرًا ما غضب المعتمد أو الموفق على أفرادها وطردوهم من وظائفهم وصادروا أموالهم وممتلكاتهم.

أحوال الدولة الداخلية في عصر المعتمد

أولًا: العلويون

توفى في عهد المعتمد الأمام حسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد ابن علي الرضا في سنة ٢٦٠هـ، وهو الحادي عشر من أئمة الشيعة الأمامية الأثنى عشرية، وقد خلفه في الإمامة ابنة محمد العسكري وكان طفلًا في الخامسة من عمره، ويقال إنه خرج من أحضان أمه يبحث عن أبيه، وكان مسجونًا بسامرًا — ودخل سراديًا قريبًا من منزله ولم يخرج منه، فحزن عليه أتباعه حزنًا عميقًا ولقبوه بالمنتظر، لأنهم ينتظرون خروجه من ذلك السرداب ليملأ الدنيا عدلًا كما ملئت جورًا. وكان الشيعة يجتمعون على باب السرداب في المواسم والأعياد ويدعون إمامهم للخروج إليهم، وكانوا يمكثون وقتًا غير قصير في كل اجتماع وهم يكررون دعواتهم إلى الأمام ثم يرجعون إلى منازلهم والحزن يملأ أفئدتهم وجوانحهم، لأنهم لم يظفروا برجائهم، وقد ظل الشيعة يعقدون هذا الاجتماع حتى القرن الرابع عشر الميلادي.

ثانيًا: ثورة الزنوج

ظهر رجل فارسي في البحرين سنة ٢٤٩هـ، وادعى أنه من نسل سيدنا علي، ودعا الناس إلى طاعته وكان إباحيًا في مذهبه، فالتف حوله عدد كبير من الأنصار وكبر شأنه، ثم شخص إلى البصرة ونزل بها في سنة ٢٥٤هـ ونشر دعوته فطارده عاملها محمد بن رجاء الحضاري، فتركها إلى بغداد ونزل بها وظل مختفيًا فيها حتى عزل ابن رجاء، فرجع إليها في سنة ٢٥٥هـ، وأخذ يجهر بآرائه، وازداد عدد مريديه بانضمام الأرفاء والعبيد إليه لأنه دعاهم إلى الخروج على سادتهم، ووعدهم الحرية والسيادة والتملك، ولما قوى أمره رفع راية العصيان على الدولة العباسية، وخرج عليها في رمضان سنة ٢٥٥هـ، وأرسلت إليه الدولة القوات لإخضاعه فأنتصر عليها نصرًا مبينًا، وأخذ يعيث في تلك الجهات وينهب

الأموال ويستكثر من الرجال وفي مدة سنتين أصبح يسود دال الفرات. وفي سنة ٢٥٧هـ هاجم البصرة واستولى عليها، وقتل من أهلها خلقًا كثيرًا، وأحرق عدد كبيرًا من دورها ومساجدها، واستفحل أمره وذعر الخليفة وطلب إلى الموافق أن يخرج إليه بنفسه، فجمع جيشًا كبير العدد كامل العدة، وزحف لملاقاة الثائر والقضاء عليه، وكان الخبيث — وهو اللقب الذي أطلق عليه — قد استطاع في أثناء ذلك أن يستولى على الأهواز ومدينة واسط، وبسط نفوذه على المقاطعات التي بينها، واستمرت رحى الحرب قائمة بين الزنوج وبين جند الدولة لمدة عشر سنوات، وتمكن الموفق بمعاونة ابنه المعتضد وباقي قواده الأكفاء أن يخمد تلك الثورة العنيفة، وطرد الثوار من معاقلهم بعد كبير عناء، وأمن من أراد منهم الرجوع إلى حظيرة الدولة، وفي شهر صفر ٢٧٠هـ أرسل الموفق إلى زعيم الثوار يؤمنه. ويطلب له الخضوع والولاء، فأبى الخبيث وامتنع، وحاول الهروب ولكن الجند قبضوا عليه، وقطعوا رأسه وتخلصت الدولة من شر مستطير هز أركانها وأقلق بال سكانها لمدة أربع عشر سنة ونصف تقريبًا

ثالثًا: الأحوال في المشرق

كان نفوذ الخليفة العباسي لا يزال معترفًا به في الأقاليم الشرقية للدولة، وكان اسمه لا يزال يذكر في الدعاء عل المنابر في مساجد تلك الأقاليم، ولكن حدث أن وجدت قوى أخرى في تلك الأزمنة المضطربة نازعت آل طاهر — أمراء خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الري وطبرستان وجرجان وكرمان — سيادتهم، تلك السيادة التي كانوا يستمدونها من الخلافة العباسية، والتي كانوا يرهبون بها الأعداء والخارجين على الدولة أيام كانت القوة المركزية فيها مهيبة الجانب، نافذة الكلمة، مستعدة بجيوشها لتأديب العصاة والثوار، فظهرت الدولة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد من ذكرها، وظهرت دولة أخرى، وهي الدولة الصفارية فاستولت على خراسان وقضت على حكم الطاهريين منها وإليك البيان:

قيام الدولة الصفارية

قامت الدولة الصفارية بإقليم سجستان، وتنسب إلى يعقوب بن الليث الصفار وأخيه عمرو، وقد كان يشتغلان وهما صغيران بعمل الصفر، ولما كبرا اشتهرا بالزهد وبالورع والتقوى، ثم اتصلا بأحد المتطوعين لقتال الخوارج واسمه صالح بن النضر الكناني فكان لهما شأن كبير معه، ولما مات صالح آلت الزعامة بين المتطوعين إلى درهم بن الحسين، فاتخذ يعقوب قائد لجنده، ولما عزل درهم تولى يعقوب الزعامة، واشتهر أمره واشتدت شوكته، وبسط نفوذه على سجستان وهراة ويوشنج وما إليها، وانتصر على الترك الذين اعتدوا على سجستان، فرهبه الملوك الذين حوله، وأذعنوا له بالطاعة، ولما ثبت قدمه أخذ يتطلع إلى أمارة خراسان ليحكمها باسم الخليفة وأرسل للمعتز هدية سنية، وسأله أن يوليه بلاد فارس وعليه هو إخراج الثائر العلوي منها، وقد برهن للخليفة على قوته بأن زحف على شيراز حيث كان علي بن الحسين، ودخلها عنوة في شهر جمادي الأولى سنة ٢٥٥هـ، وأخذ علي بن الحسين أسيرًا، ثم عاد إلى سجستان فارتفع شأنه وعلا قدره في تلك الأصقاع، وفي سنة ٢٥٩هـ قصد نيسابور ودخلها، وهناك قدم له بنو طاهر الخضوع، "لما رأوا أنه لا قبل لهم بمقاومته، وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم". وقبض على مُحَمَّد بن طاهر وآلا بيته وسجنه، فانتهت دولة آل طاهر من خراسان وبلاد المشرق.

كتب يعقوب إلى الخليفة يخبره بأمره في خراسان، فغضب الموفق وأرسل إليه أن يترك البلاد لآل طاهر ويرجع إلى مقر نفوذه حيث أقامه الخليفة، فامتنع يعقوب عن إجابة ما طلب الموفق، ورأى المعتمد بعد ذلك أن يسلم يعقوب فولاه خراسان وطبرستان وجرجان والري وفارس والشرطة ببغداد، وكان يعقوب قد تغلب في سنة ٢٦٠هـ على القوة الزيدية في طبرستان وهزم الحسن بن زيد، واستولى على سارية وآمل.

طمع يعقوب في الاستيلاء على بغداد والعراق، وعرف المعتمد نياته فخرج إليه بجيش كبير، وفي مدينة واسط تقابل الجيشان وانتصر الخليفة بفضل مهارة الموفق في سنة

٢٦٢هـ، وغنم غنائم كثيرة من يعقوب وجيشه، ورجع يعقوب بعد الهزيمة إلى فارس، وانتهز مُحَّد بن طاهر الفرصة وتخلص من سجنه وحضر إلى بغداد فخلع المعتمد عليه الخلع، وأعاده الخليفة إلى عمله، وقد كاتب الخبيث زعيم الزنوج يعقوب الصفاري يعرض عليه معاونته والتحالف معه ضد الخليفة، فأبى يعقوب ورد عليه بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾، وتُوفي يعقوب بعد ذلك في سنة ٢٦٥هـ بمدينة الأهواز.

يقول أبو الفداء: "وكان المعتمد قد أرسل إليه رسولًا وكتابًا يستميله، ويعقوب مريض، فأحضر الرسول وجعل عنده سيفًا ورغيفًا وبصلًا، وقال للرسول قل للخليفة. إن مت فقد استراح مني واسترحت منه، وإن عوفيت فليس بيني وبينه إلا هذا السيف، وإن كسرني وأفقرني عدت إلى أكل هذا الخبز والبصل".

بايع الجند أخاه عمرو بن الليث بعد وفاته فكان حسن التدبير والسياسة، وكتب إلى الخليفة بطاعته فولاه الموفق خراسان وأصفهان وسجستان والسندو كرمان، وسير إليه الخلع مع الولاية ولكن الخليفة غضب عليه في سنة ٢٧٢هـ، ولما استرضاه عمرو بالمال رضي عنه، وظل واليًا على تلك الأقاليم حتى انتهى عزه على يد إسماعيل بن أحمد أحد أفراد الدولة السامانية كما سيجيء بعد.

يقول موير: «كان قيام الدولة الصفارية الخطوة الأولى في استرداد الفرس استقلالها القومي».

علاقة المعتمد بالدولة الطولونية

عظمت منزلة أحمد بن طولون في مصر في خلافة المعتمد، وكان يدعى علي منابر مصر للخليفة أولًا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون.ولما مات أماجور سنة ٢٥٨هـ استقل أحمد بن طولون بمصر ودعى له بها وأدار البلاد إدارة حسنة. ونظم ثروتها تنظيمًا بديعًا، وأعاد إلى هذا القطر رخاءه، وضرب على أيدي المفسدين. وأخذ يعمر البلاد فبنى

الجسور وشق الترع وبنى مسجده العظيم، وهو أثر خالد وشجع العلم والعلماء ونظم الجيوش فانتعشت مصر واسترجعت بعضًا من مقامها السالف، وأصبح مركز ابن طولون قويًا، فحقد عليه الموفق وأرسل إليه موسى بن بغا على رأس جيش لإخضاعه، فلما بلغ الرقة أقام بها زمنًا ولم يستطع التقدم لقلة الأموال وطالبته الجند بالمرتبات فلما عجز ثاروا عليه، فاضطر أن يعود إلى العراق، استراح أحمد بن طولون من شره، وكانت علاقة ابن طولون بالمعتمد أفضل من علاقته بأخيه الموفق. وفي ٢٦٤هـ طلب إليه الخليفة أن يسير إلى آسيا الصغرى لاسترجاع طرسوس من الروم، وكانوا قد انتزعوها من المسلمين ففرح ابن طولون بالطلب وأناب ابنه خمارويه على حكومة مصر، وخرج هو غازيًا الروم، ودخل الشام واستولى على دمشق وأنطاكية، وتقدم نحو طرسوس ولكنه استقبل فيها استقبالًا رديئًا فتركها ورجع إلى الشام، وزحف نحو الشرق ودخل حران، ولكنه رجع إلى مصر بعد ذلك. وفي سنة ٢٦٨هـ أرسل دعوة إلى الخليفة يدعوه فيها إلى مصر، وأجاب المعتمد الدعوة وترك سامرًا راحلًا إلى مصر، ولكن الموفق عرف أن انتقال الخليفة إلى مصر وتعاونه مع ابن طولون يرجعان على نفوذه بالضرر، فبذل جهده حتى يمنع المعتمد من الاتصال بوالي مصر، وأرسل إلى عامل الموصل أن يقف سير الخليفة فنفذ الأمر وأرجع الخليفة ومن معه إلى سامرا، فغضب ابن طولون واتسع خرق الخلاف بينه وبين الموفق، وقطع اسمه من الخطبة، واسقط اسمه من الطراز، وطلب الموفق من الخليفة أن يأمر بلعن ابن طولون في مساجد الدولة ففعل على كره منه، ولما طلب ابن طولون أن يتولى أمارة الحج رفض طلبه، وظلت العلائق متوترة بينهما حتى توفى ابن طولون في سنة ٢٧٠ هـ ٨٨٤م، وخلفه ابنه خمارويه في ولاية مصر الشام والثغور وبقى ملك الطولونيين قائمًا في مصر حتى سنة ٢٩٢هـ.

علاقة المعتمد بالدولة البوزنطية

انتهز الروم قيام الفتن والقلاقل في أنحاء الدولة العباسية وأغاروا على حدودها السورية في زمن عاهلهم العظيم باسيل الصقلي (٨٦٧ – ٨٨٦م) واستطاع قواد الروم

أن يستولوا على حصن لؤلؤة المنيع، فانتصروا على المسلمين وقواتهم في آسيا الصغرى، وأسروا قائدًا من قواد الخلافة وحملوه إلى القسطنطينية، ولكن لما تولى أمر محاربتهم أحمد بن طولون رجعوا على أعقابهم، وظلوا يترقبون الفرصة ليعيدوا كراتهم على أملاك الدولة، ولولا أن نشط الجند المتطوعة وقاموا لصدهم لاستطاعوا أن ينتزعوا أملاكًا كثيرة من أملاك الدولة في الجزيرة وسوريا.

وفاة الموفق والمعتمد وولاية العهد بعدهما

مرض أحمد الموفق وهو في ميدان القتال في الشمال، وحمل إلى سامرا، ولما شعر بدنو أجله عزم على أن ينقل السلطة التي كانت في يده إلى ابنه المعتضد ولقد كان أميرًا محبوبًا جدًا بين الجند وأفراد الشعب، وقبل أن يلفظ نفسه الأخير في سنة ٢٧٨هـ فعل ما أراد، وأصبح ابنه المعتضد صاحب الأمر والنهي في أمور الدولة كما كان أبوه من قبل، وفي أواخر شهر رجب سنة ٢٧٩هـ مات المعتمد على أثر شراب شربه بعد أن شغل كرسي الخلافة نحو ثلاث وعشرين سنة، كان في أثنائها خليفة بالأمس، ولم يكن له من الأمر شيء، وقضى وقته في أحاديث الغنا، والرقص والندامى وهيئة المجالس، ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبئة مجالس الندما.

٢- أبو العباس أحمد المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩) هـ (٨٩٢ – ٩٠٢)م

كان أبو العباس أحمد بن ألب أحمد الموفق عضد لأبيه في حروبه وأعماله وقد تولى ولاية العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩هـ واعتلى عرش الخلافة في اليوم الذي توفي فيه عمه المعتمد على الله وقد اشتهر بالشجاعة والأقدام، وكان ميالًا لسفك الدماء حتى أطلق عليه المؤرخون لقب السفاح الثاني، واستطاع بهمته ونشاطه أن يعيد إلى العباسيين شيئًا من مجدهم القديم، وأرجع إلى حظيرة الدولة كثيرًا من الولايات والأقاليم التي خرجت عنها في العهود السابقة، وحارب البوزنطيين حروبًا موفقة، واسترد كثيرًا من المدن والمعاقل التي كان الروم قد انتزعوها من المسلمين، وقضى على ثورة الأكراد وطردهم من الجزيرة، وأخمد الفتن والقلاقل التي أثارها أمير حمدان في بلاد

الموصل، وفي عهده ظهر بالجزيرة خارجي اسمه هارون الشاري وتغلب على قوات الدولة، فأرسل إليه المعتضد حسين بن حمدان بن حمدون جد الأسرة الحمدانية الذي تغلب عليه الخليفة وأسره، وقد وفق حسين أن ينتصر على الخارجي، وقبض عليه وأحضره إلى المعتضد، ففرح فرحًا كبيرًا، وخلع على الحسين وأطلق سراح أبيه، وأمر له بالهدايا والعطايا فاسترجع بنو حمدان نفوذهم السابق وكان هذا بدء قيام الأسرة الحمدانية.

قام المعتضد بإصلاحات كثيرة في الدولة، فإنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوي الأرحام فأدخل بذلك عنصرًا جديدًا على قانون المواريث، وأبطل ديوان المواريث، وكان أصحاب التركات يلقون عناء كبيرًا من موظفي هذا الديوان، فاكتسب المعتضد بذلك ثناء العامة والخاصة، ومن أهم إصلاحاته ما يعرف بالتقويم المعتضدي، فإنه غير أوائل السنة من مارس إلى يونيه، وأبطل الاحتفالات التي كانت تقام في عيد النيروز وهو السنة القديمة، وكان الناس يحتفلون به احتفالًا عظيمًا، فاستقام الأمر في جباية الخراج وأصبحت مواعيد الجباية ثابتة في شهور الثمار والغلات.

الحالة في خراسان وقيام الدولة السامانية

كان عمرو بن الليث الصفاري قائمًا بأمر خراسان في زمن المعتضد، وكان نفوذه كبير في تلك الجهات والأقاليم، وفي سنة ٢٨١هـ دخل نيسابور وتغلب على رافع بن هرثمة الذي خرج على الدولة وأعلن خضوعه لمحمد ابن زيد العلوي، ولما هرب رافع إلى طوس وخوارزم أرسل عمرو جندًا ليلحقوا به ففعلوا، وانتصروا عليه وقتلوه، وأرسل عمرو كتابًا إلى الخليفة يبشر بذلك النصر، وأرسل رأس الثائر مع الكتاب، ففرح المعتضد وأرسل إليه الخلع ولواء الولاية على الري، فاتسع سلطانه وقوى أمره وطمع في الولاية على بلاد ما وراء النهر، وطلب إلى الخليفة أن يعقد له الولاية على البلاد التي يحكمها إسماعيل بن أحمد الساماني فقبل المعتضد، وأرسل إليه عهد الولاية، وخرج عمرو ليتملك تلك البلاد فقاومه إسماعيل الساماني واستعد لقتاله.

ينتسب إسماعيل إلى أسرة فارسية عريقة في المجد، وكان أفرادها يحكمون بلاد ما

وراء النهر من زمن المأمون تحت أشراف أمير خراسان، فكان نوح بن أسد بن سامان يتولى أمر سمرقند، وأحمد بن أسد يتولى الأمر في فرغانة، ويحيى بن أسد الأمر في الشاش وأشروسنة، ويتولى أخوه إلياس الأمر في هراة، ولما توفى أحمد أمير سمرقند خلفه في الحكم ابنه إسماعيل، وقام بالأمر على وجه مرضى، وعلى يديه سقطت الدولة الصفارية، وذلك أنه طلب إلى عمرو بن الليث أن يقنع بما في يديه من الأملاك، وإلا يتعرض إلى البلاد التي تخضع له، فأبى عمرو وخرج لقتاله، فقابله إسماعيل وانتصر عليه، وأخذه أسيرًا وأرسله إلى الخليفة في بغداد فسجن بها، وظل مسجونًا حتى قتل في أول خلافة المكتفي.

خرج مُحَمَّد بن زيد من طبرستان بعد سقوط عمرو بن الليث طالبًا خراسان، وظن أن الفرصة سانحة لتملكها، ولكن إسماعيل الساماني تعرض له في الطريق وأرسل إليه جندًا لمقاتلته، فقابلته على باب جرجان وتغلبت عليه، وجرح في الحرب ومات بعد ذلك بقليل.

أما ابنه زيد فأنه أسر وحمل إلى إسماعيل فسجنه، وبذلك سقطت الدولة الزيدية في طبرستان أيضًا على يد إسماعيل الساماني، فكبر شأنه وعظم أمره، وفرح به المعتضد وأرسل إليه الخلع والهدايا الثمينة، وخضعت له البلاد، وأصبحت القوة في المشرق لأسرته فقامت بالأمر وحكمت البلاد والأقاليم، وظل لها النفوذ والسلطان التام حتى سنة ٣٨٩هـ، وكان عدد ملوكها عشرة أولهم نصر بن أحمد بن سامان وأخرهم عبد الملك بن نوح.

علاقة المعتضد بالدولة الطولونية

كان علاقة المعتضد بخارويه بن أحمد بن طولون حسنة، وكان خمارويه يتقرب إلى الخليفة، فأرسل إليه الهدايا وعرض عليه أن يتزوج ابنته قطر الندى فقبل الخليفة وتزوجها، واحتفل خمارويه بزواجها احتفالًا كبيرًا، وزفها إلى المعتضد في جهاز سارت بذكره الركبان وأصبح مضرب الأمثال، إذ بنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصرًا فيما بين مصر وبغداد "وأخرج معها أخاه شيبان في جماعة، فكانوا يسيرون بها سير الطفل في المهد، فإذا

وافت المنزل وجدت قصرًا قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه، وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها في حال الإقامة، فكانت في سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢هـ".

أنغمس خمارويه في اللذات والملاهي، وأنفق أموال الدولة حتى خوت خزائنه، وضعفت حالة الدولة فتآمر عليه بعض خدمه فذبحوه وهو على فراشه بدمشق، فنقل إلى مصر ودفن فيها عام ٢٨٣هـ، وقامت بالبلاد فتن داخلية أضعفتها وسببت خروج طرسوس من أيدي بني طولون ورجوعها إلى الدولة العباسية، وتنازل هارون الذي تولى الأمر في مصر عن قنسرين والعواصم، وقصر أمره على مصر والشام، وتعهد بأن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة نحو نصف مليون من الدنانير، ومن ثم اشتد نفوذ الخليفة في مصر ورجع له فيها شيء من مقامه السابق.

وفاة المعتضد

ترك المعتضد سامرًا واستبدل بها بغداد، "فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد، بل لم يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكًا منها" وحكم المعتضد حكمًا موفقًا نحو عشر سنين، وفي شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ توفى.

يقول الطبري: "وفي ربيع الآخر من سنة ٢٨٩هـ في ليلة الاثنين توفى المعتضد ، فلما كان في صبيحتها أحضر دار السلطان يوسف بن يعقوب وأبو حازم عبد الحميد بن عبد العزيز وأبو عمر بن مُحَمَّد بن يوسف بن يعقوب وحضر الصلاة عليه الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان... ولسبع بقين من شهر ربيع الآخر من هذه السنة جلس القاسم بن عبيد الله بن سليمان في دار السلطان في الحسنى وأذن للناس فعزوه بالمعتضد وهنئوه بما جدد له من أمر المكتفي، وتقدم إلى الكتاب والقواد في تجديد البيعة للمكتفي بالله فقبلوا".

٣ – علي المكتفي بن المعتضد (٢٨٩ – ٢٩٥هـ) (٩٠٢ – ٩٠٧م)

اعتلى المكتفي عرش الخلافة بعد وفاة أبيه وكان في الرقة عند الوفاة، فلما وصل الخبر إليه أمر الحسين بن عمرو كاتبه يومئذ بأخذ البيعة على من في عسكره، ووضع العطاء لهم، ففعل ذلك الحسين، ثم خرج شاخصًا من الرقة إلى بغداد، ودخل إلى داره بالحسنى، فلما صار إلى منزله أمر بهدم المطامير التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم، وجعلها مساجد لإقامة الصلاة، فأحبه الناس حبًا جمًا، وقد اشتهر بالكرم، وفي عهده قامت الفتن والقلاقل في أنحاء الدولة، ولكنه قابلها بعزم وحزم، وتغلب على الخارجين والثوار، وأرجع مصر والشام إلى حظيرة الدولة العباسية بعد أن قضى على حكم الطولونيين فيها، وكان الفضل في ذلك إلى قائده القدير مُحَمَّد بن سليمان الذي جاء إلى مصر وحارب شيبان بن أحمد بن طولون وهزمه، ودخل القطائع عاصمة الطولونيين وخربها، وهدم القصور ونهب البيوت ودمرها، ونقل ثروة الطولونيين وعددًا من أفراد الأسرة إلى ببغداد وكان ذلك في سنة **٢٩٣**هـ، وفي عهد المكتفي أقلق القرامطة بال الدولة، وحاربهم الخليفة حربًا عوانا مما سنذكر تفصيله بعد واعتدى الروم على حدود الدولة ونهبوا وسلبوا ، وحملوا الأسرى ولكن المكتفى حاربهم وردهم على أعقابهم خاسرين، وانتزع منهم مدينة أضاليا وكانت مع معقلًا حصينًا لهم، وخلص عددًا كبيرًا من الأسرى المسلمين، وفي آخر عهده حصلت مفاداة بينه وبين الروم وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس، وفي سنة **٢٩٥**هـ توفى إسماعيل بن أحمد الساماني أمير خراسان والمشرق فتولى بعده ابنه أحمد ابن إسماعيل، وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله إليه. وفي هذا العهد انقرضت دولة الأغالبة في أفريقية إذ تغلب عليها أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين بالمغرب، وقامت الدولة الفاطمية في المغرب ومصر، وامتد نفوذها واتسع سلطانها وقد مر ذكرها وقرأنا شيئًا عن تاريخها فنتركها ونتكلم على القرامطة.

القرامطة

يقول الطبري: "في أواخر دولة المعتمد سنة ٢٧٨هـ وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة ومقامه بموضع منه يقال له النهرين يظهر الزهد والتقشف، ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدين، وزهده في الدنيا وأعلمه أن الصلاة المفترضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة، حتى فشا ذلك عنه بموضعه، ثم أعلمهم أنه يدعو إلى إمام من أهل بيت الرسول، فلم يزل على ذلك يقعد إليه الجماعة فيخبرهم من ذلك بما تعلق قلوبهم. وكان يزداد نبلًا في أعين الناس بما يظهره من الزهد ثم مرض فمكث مطروحًا على الطريق.

وكان في القرية رجل يحمل على أثوار له أحمر العينين شديدة حمرتهما كان أهل القرية يسمونه كرميتة لحمرة عينيه، وهو بالنبطية أحمر العينين، حمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالإشراف عليه والعناية به، ولم يزل مقيمًا عنده حتى برئ فكان كرميتة يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة، وكان يأخذ من كل من دخل في مذهبه دينارًا يزعم أنه للأمام، واتخذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر، فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التي أخبرهم أنها مفروضة عليهم. وكان للهيصم في تلك الناحية ضياع، فوقف على تقصير أكرته في العمارة، فسأل ذلك، فأخير إن إنسانا طرأ عليهم فأظهر لهم مذهبًا من الدين وأعلمهم أن الذي افترضه الله عليهم خمسون صلاة في اليوم والليلة فشغلوا بها عن أعمالهم، فوجه في طلبه فأخذ وجئ به إليه، فسأله عن أمره فأخبر بقصته، فحلف أن يقتله فأمر به فحبس في بيت وأقفل عليه الباب، ووضع المفتاح تحت وسادته وتشاغل بالشرب، وسمع بعض من في داره من الجواري بقصته فرقت له جارية، فلما نام الهيصم أخذت المفتاح من تحت وسادته، وفتحت الباب وأخرجته، وأقفلت الباب وردت المفتاح إلى موضعه، فلما أصبح الهيصم دعا بالمفتاح ففتح فلم يجده وشاع ذلك الخبر، ففتن به أهل تلك الناحية وقالوا رفع ثم ظهر في موضع آخر، ولقى

جماعة من أصحابه وغيرهم، فسألوه عن قصته، فقال ليس يمكن أحد أن يبدأني بسوء، ولا يقدر على ذلك مني، فعظم في أعينهم ثم خاف على نفسه فخرج إلى ناحية الشام، فلم يعلم له خبر وسمى باسم الرجل الذي كان في منزله صاحب الأثوار كرميتة ثم خفف فقالوا قرمط".

مذهب القرامطة

يعتنق القرامطة مذهب الشيعة الإسماعيلية، نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهم أمامية يتفقون مع الأمامية الأثنى عشرية في المبدأ العام للتشيع الأمامي. وهو أنه لابد للناس من أمام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله ﷺ، وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأي ، ويتفقون معهم على إمامة الستة من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق، ومنه يبتدئ الاختلاف، فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والإسماعيلية ذهبوا إلى فرع إسماعيل، وكان من أشهر دعاة هذه الفرقة عبد الله بن ميمون القداح الذي ظهر في أورشليم في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة (٨٧٣ – ٨٧٤)م ونشر مذهبًا دينيًا غريبًا، أراد به أن يدمج كل الأديان السماوية في دينه الجديد، وأطلق عليه الدين السابع وهو آخر الأديان المنزلة. "ولقد نشأ عن المذهب الإسماعيلية قوتان عظيمتان كلتاهما ضد الدولة العباسية، إحداهما منتظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص، وهي موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها، كما كانت قرية الحميمة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها والثانية قوة ذات فوضى وجور ونكوب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهي القرامطة".

انتشار مذهب القرامطة في خلافة المعتضد

فشا مذهب القرامطة أولًا في سواد الكوفة في أواخر خلافة المعتمد كما مر بنا، ثم انتقلت منها إلى البحرين، وأخذ أبو سعيد الحسن الجنابي – وجنابة من سواحل فارس – ينش مذهب القرامطة ويستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين، وما والاها، وقوى أمره وفي سنة ٢٨٧هـ في خلافة المعتضد زحف على البصرة فأرسل إليه

الخليفة جيشًا فانتصر عليه، وأسر قائده واستولى على ما كان معه وقتل الأسرى.

انتشر هذا المذهب في سواد الكوفة وكثر أتباعه، وأرسل المعتضد جيشًا يقوده شبل غلام أحمد بن مُحَمَّد الطائي فظفر بهم، وقبض على رئيس من رؤساء القرامطة يعرف بأبي الفوارس وحمله إلى المعتضد فسأله الخليفة في مذهبه وناقشه ورد عليه أبو الفوارس ردًا جريئًا فأمر به فقتل.

ظهر داعية آخر من دعاة القرامطة يسمى زكرويه بن مهرويه، "وسعى في استغواء كلب بن وبرة بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم، وبايعوا سنة ٢٩١هـ ابن زكرويه المسمى يحيي المكني بأبي القاسم، ولقبوه الشيخ وزعموا أنه مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وزعم لهم أنه في البلاد مائة ألف تابع، وسمى أتباعه الفاطمية فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة، فاغتروه وأحرقوا مسجد الرصافة، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام، وكانت إذ ذاك في حوزة خمارويه بن أحمد بن طولون، وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارًا فهزموه.

"هذا ما كان من أمر القرامطة في حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدءوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التي آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله المقدس".

القرامطة في عصر المكتفى بالله

عاث القرامطة في بلاد الشام فسادا، وكتب الشاميون إلى الخليفة يشكون مما ألم بهم من الحسن بن زكرويه، وكان يلقب بذي الشامة لوجود شامة في وجهه، فإنه قتل وسبى وخرب البلاد، وخرج المكتفى إليه بنفسه وسار حتى نزل الرقة، وسير الجيوش بقيادة مُحَمَّد بن سليمان لقتال القرمطي والتحم الفريقان في معارك شديدة انتصر في نهايتها قائد الخليفة، وأسر القرمطي بوساطة أحد رجال المكتفى، وأخذ إلى الخليفة بالرقة في شهر المحرم سنة ٢٩١هـ، فحمل إلى بغداد هو ومن أسر من رجاله، وأعدموا بعد أن شهر بهم الخليفة تشهيرًا كبيرًا.

ظهر زكرويه من مخبئه عندما بلغه خبر قتل ابنه يحيي، وجمع الأنصار وزحف على بلاد الشام وهدد دمشق، ولما عرف الخليفة خبره أرسل إليه الحسين بن حمدان، وكان القرامطة قد دخلوا طبرية، فطاردهم الحسين من بلد إلى بلد حتى شتت شملهم وتفرقوا في البادية، وفي سنة ٢٩٣هـ أغاروا على الكوفة وألحقوا بأهلها خسائر فادحة، وسلبوا ما استطاعوا أن يسلبوه ثم قاومهم سكان الكوفة وعاونهم جند الخليفة، فتفرقوا إلى الصحراء وفي سنة ٢٩٤هـ أغاروا على قوافل الحج الآتية من مكة إلى المشرق، وسلبوا أفرادها وذبحوهم رجالًا ونساء وأطفالًا، واستولوا على ما كان معهم من الأموال، فغضب الخليفة غضبًا شديدًا، وندب أحد قواده الأتراك، وأمره باقتفاء أثر هؤلاء الأشرار فخرج إليهم على رأس جيش كبير وقاتلهم، فقتل منهم كثيرًا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته، وسار بهم إلى بغداد ولكن زكرويه مات متأثرًا بجروحه قبل أن يصل إلى العاصمة، فاستراحت الدولة من شره، واستمر الحسين بن حمدان يطارد من بقى من قوات القرامطة في الشام حتى مزق شملهم وأوقع بهم.

وفاة المكتفى بالله

في ذي القعدة لاثنتي عشرة ليلة خلت منها توفى المكتفى بالله بعد حكم مضطرب دام ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يومًا وكان يوم توفى ابن اثنتين وثلاثين سنة، وقد ترك الدولة والخلافة لأخيه القاصر فتولى عرشها وهو يومئذ ابن ثلاثة عشرة سنة وشهر واحد وعشرين يومًا وتلقب المقتدر بالله.

الباب التاسع

عصر المقتدر والقاهر والراضي والمتقي

١ – جعفر المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠هـ) (٩٠٧ – ٩٣٢م)

وُلِدَ جعفر المقتدر بالله في سنة ٢٨٢هـ، واعتلى عرش الخلافة بعد وفاة أخيه في سنة ٢٩٥هـ، وكانت سنة إذ ذاك ثلاثة عشرة سنة وكان الفضل في اعتلائه العرش للعباس بن الحسن وزير المكتفى بالله، إذ جمع أهل الرأي في الدولة، وتشاوروا فيما بينهم على من يكون خليفة، فاجتمع رأيهم على تولية المقتدر على الرغم من صغر سنه، تحقيقًا لرغبة الخليفة المتوفي وأتباعًا لمشورة أبي الحسن علي بن مُحَمَّد بن الفرات أحد رؤساء الدواوين في دار الخليفة. ولما أعلن خبر البيعة للناس ثاروا وعلى رأسهم القواد والقضاة، وطلبوا خلع المقتدر، وتولية عبد الله بن المعتز، فقاومهم الوزير فقتلوه في ٢٣٠ ربيع الأول سنة ٢٩٦هـ، وخلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز، وتخلف عن البيعة ابن الفرات وخواص المقتدر وبعض القواد مثل مؤنس الخادم ومؤنس الخازن، وأراد المقتدر أن يترك بغداد ويسلم الأمر للخليفة الجديد فامتنع أصدقاؤه، وأشاروا عليه بالقتال، وفي مساء تلك الليلة صعدوا إلى الدار التي فيها ابن المعتز وهجموا عليه فتفوق عنه أصحابه، وكان الحسن بن حمدان أحد القواد الذين عاونوه قد فارق بغداد وترك سيده من غير نصير، فلم ير ابن المعتز بدا من الخروج من بغداد، وخرج معه وزيره مُحَمَّد بن داوود بن الجراح، ورجع المقتدر إلى العرش، وما لبث أن ظفر بابن المعتز فسجنه وعذبه حتى مات وقبض على أعوانه وقتلهم جميعًا، وفي تلك الأثناء اضطربت الأمور في دار الخلافة واختل الأمن، وكثر النهب والقتل، ودخل اللصوص الدور واعتدوا على الأموال والأعراض.

استوزر المقتدر أبا الحسن علي بن مُحَمَّد الفرات، وقلد أمر الشرطة مؤنسًا الخازن،

وقد قضى ابن الفرات في وزارته الأولى ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا، ثم غضب عليه المقتدر فعزله وصادر أملاكه. واستوزر مُحَّد بن عبيد الله بن خاقان، وفي عهد وزارته أهملت أمور الدولة وانتشرت الرشوة ونغمس الخليفة في اللذات، وترك الأمور الوزير الأول وكثر العزل والتولية فاضطرب أمر الولاة اضطرابًا شديدًا، ونقصت الإيرادات العامة نقصًا ظاهرًا، وأثرى أفراد على حساب أفراد آخرين، وسقطت هيبة الحكومة ولم يبقى للخليفة أدنى سلطان ولا احترام، ويصور لنا ابن الأثير الحالة أدق تصوير عندما أورد ذكر القبض على ابن الفرات ووزارة الخاقاني إذ قال:

"ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين وفي هذه السنة قبض المقتدر على الوزير أبي الحسن بن الفرات في ذي الحجة، وهناك صرعه ونهب ماله، ونهبت دور أصحابه ومن يتعلق به، وافتتنت بغداد لقبضه، ولقى الناس شدة ثلاثة أيام ثم سكنوا، وقلد أبو علي مُحَّد بن يحيي بن عبد الله بن يحيي ابن خاقان الوزارة، فرتب أصحاب الدواوين وتولى مناظرة ابن الفرات أبو الحسين أحمد بن يحيي بن أبي الغل، وكان أخوه الحسن بن أبي البغل مقيمًا بأصبهان فسعى أخوه له في الوزارة هو وأم موسى القهرمانة، فأذن المقتدر في حضوره ليتولى الوزارة فحضر، فلما بلغ ذلك الخاقاني انجلت أموره فدخل على الخليفة وأخبره بذلك، فأمره بالقبض على أبي الحسن وأبي الحسين أخيه، فقبض على أبي الحسن وكتب في القبض على أبي الحسين، فقبض عليه أيضًا، ثم خاف القهرمانة فأطلقها واستعملها، ثم أن أمور الخاقاني انحلت لأنه كان ضجورًا ضيق الصدر مهملًا لقراءة كتب العمل وجباية الأموال، وكان يتقرب إلى العامة والخاصة، فمنع خدم السلطان وخواصه أن يخاطبوه بالعبد، وكان إذا رأى جماعة من الملاحين والعامة يصلون جماعة ينزل ويصلي معهم، وإذا سأله أحد حاجة دق صدره وقال نعم وكرامة، فسمة "دق صدره" إلى أنه قصر في إطلاق الأموال الفرسان والقواد فنفروا عنه، واتضعت الوزارة بفعله ما تقدم، وكان أولاده قد تحكموا فيه فكل منهم يسعى لمن يرتشي منه. وكان يولي في الأيام القليلة عدة من العمال حتى أنه ولى بالكوفة في مدة عشرين يومًا سبعة من العمال، فاجتمعوا في الطريق فعرضوا توقيعاتهم، فسار الأخير منهم وعاد الباقون يطلبون ما خدمهم به أولاده،

فقيل فيه:

وزيـــر قـــد تكامـــل في الرقاعـــة يـــولي ثم يعـــزل بعـــد ســـاعة
إذا أهـــل الرشـــا اجتمعـــوا لديـــه فخـــير القـــوم أوفـــرهم بضـــاعة
ولـــيس يـــلام في هـــذا بحـــال لأن الشـــيخ أفلـــت مـــن مجاعـــه

ثم زاد الأمر حتى تحكم أصحابه فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال، فانحلت القواعد وخبثت النيات واشتغل الخليفة بعزل وزرائه والقبض عليهم والرجوع إلى قول النساء والخدم، والتصرف على مقتضى آرائهن فخرجت الممالك وطمع العمال في الأطراف".

استوزر المقتدر غير هذين الوزيرين وزراء آخرين، اشتهر منهم على ابن عيسى، وكان رجلًا متدينًا عارفًا بالأعمال حافظًا للأموال بعيدًا عن التبذل والهزل، ولكن السعاية عملت عملها ولم تتركه حكومة النساء هادئ البال، فغضب عليه الخليفة وقبض عليه وأعاد ابن الفرات إلى الوزارة ولكن عزل وتولى أمرها غيره، وكان أبو علي بن مقلة من الذين تولوا الوزارة في ذلك العهد، وكما كانت له يد ماهرة ي الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة في أخذ الرشا على التولية والعزل، واستمر الخليفة يغير ويبدل في الوزراء حتى تولى الوزارة في عهده اثنا عشر وزيرًا، "وكانت الوزارة تنال بالرشوة ودخل في أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية ولم يكمن الصالح منهم يبقى في العمل كثيرًا لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرمانته وخدم الدار، وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالموال الكثيرة التي تفسد بها الثروة وتختل موازنتها، فمتى حصل التقصير في ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان ما يقبض على الأول ويصادر ويعين الثاني، وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت جرمتها، حتى لم يكن لها في نظر العامة ولا في نظر متغلبي الأطراف حرمة".

أمر القرامطة في زمن المقتدر

ازداد نفوذ القرامطة في عهد المقتدر، وعملوا على الإخلال بالمن في العراق

والحجاز، وكان زعيمهم بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي قد استولى على هجر والإحساء والقطيف وسائر البلاد، ولما قتل في سنة ٣٠١هـ تولى الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي وقد حاول الاستيلاء على البصرة وغزاها غزوات متتالية، ودخلها في سنة ٣١١ هـ، وقتل حاميتها ووضع السيف في أهلها، ثم خرج منها وتوجه إلى طريق الحاج ليلتقي بالحجاج عند رجوعهم إلى مكة، وقابلهم ونهب ما كان عندهم، وأسر عددًا كبيرًا وترك الباقي، فمات أكثرهم جوعًا وعطشًا من حر الشمس، فغضب أهل بغداد غضبًا شديدًا عندما علموا بالخبر وهاجوا وتطاولوا على الخليفة ووزيره، واضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم، وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر، وأرسل إلى جعفر بن ورقاء الشيباني عامل الكوفة لمقابلة القرمطي ومحاربته، فخرج إليه ولكن غلب على أمره، ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام بها ست أيامك وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب. قم عاد إلى هجر،وفية سنة ٣١٥هـ أرسل الخليفة قائدًا آخر لمحاربة أبي طاهر، ولكن غلب على أمره أيضًا، وانتصر القرامطة وهددوا بغداد وما حولها من البلدان والمدائن، واستولوا على مدينة الأنبار وخضعت لزعيمهم الجزيرة ثم عاد إلى الكوفة وزاد عدد أنصاره ودخل خلق كثير في مذهب القرامطة بسبب تلك الانتصارات، وفي سنة ٣١٧هـ سار أبو طاهر إلى مكة في موسم الحج ونهب وسلب أموال الحجاج وقتل من في المسجد الحرام، وقلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر، وأخذ كسوة البيت وقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة.

يقول الخضري بك: "ولم يحصل في التاريخ إن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدي عبيد الله العلوي لما علم ذلك كتب إلى أبي طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة، ويقول، قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهالي مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برئ منك في الدنية والآخرة. فلما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود، واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال: إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم".

علاقة المقتدر بالدولة البوزنطية

انتهز الروم فرصة اضطراب الأحوال في الدولة العباسية بسبب ضعف الخليفة وأغاروا على أطرافها أغارات متتالية، فأغاروا عليها سنة ٣٠٣هـ وقصدوا حسن منصور وسبوا من فيه، وفي سنة ٣٠٥هـ حصل فداء بين المسلمين والروم إجابة لطلب زوا ملكة الروم التي أرسلت إلى بغداد رسولين فأكرم المقتدر وفادتهما إكرامًا كبيرًا، وسير مؤنسًا الخادم ليحضر الفداء وجعله أمير على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه، لكنه لم يدم الصفاء طويلًا بين الدولتين، وفي سنة ٣١٣هـ، طلب ملك الروم إلى أهل الثغور الإسلامية أن يحملوا الخراج إليه ، ولما رفضوا خرج إليهم في السنة التالية ودخل ملطية وخرب دورها وسلب أموال أهلها، وفي سنة ٣١٥ هـ، أغار الروم على مدينة دبيل وهي قاعدة أرمينية وقابلهم المسلمون ودافعوا عن أوطانهم دفاعًا مجيدًا، ونجحوا في صد الروم واتخذ المسلمون خطة الهجوم بعد ذلك بأربع سنوات، وغزوا بلاد الروم وهددوا عمورية وأنقرة وكان قائدهم يسمى ثمل، وكان من غلمان المقتدر ووالي الثغور، وقد اشتهر بالشجاعة والإقدام، وإليه يرجع الفضل في استعادة هيبة الدولة في آسيا الصغرى.

الشغب في بغداد وقتل المقتدر

اشتهر رجلان من قواد المقتدر وهما مؤنس المظفر، وكان القائد العام للجيوش، ومُحمَّد بن ياقوت وكان ينافس مؤنسًا في جاهه ومرتبتهن وفي سنة ٣١٧هـ، اجتمع بعض رجال الدولة وتآمروا على خلع المقتد، وخلعوه، وأعلنوا انضمامهم إلى القاهر أخيه، ولكن مؤنسًا تغلب على المتآمرين وأعاد الخليفة إلى عرشه.

وغضب مؤنس بعد ذلك بسبب دسائس الحسن بن القاسم وزير المقتدر وقتئذ، وخرج إلى بلاد الموصل واستولى عليها بعد أن انتزعها من يد أمرائها بني حمدان وقوى نفوذه في تلك البلاد، وزاد عدد أنصاره وجنوده.

وساءت الأحوال في بغداد فاستدعاه الخليفة ليعاونه في إدارة الشئون، فلبى مؤنس

الطلب ورجع إلى العاصمة، ولكن قبل أن يصلها تغير قلب الخليفة عليه، وخرج لمحاربته هو ومن معه فانتصر مؤنس وقتل الخليفة في ٢٨ شوال سنة ٣٢٠هـ، وكان مؤنس في الرشيدية لم يشهد الحرب، فلما حمل رأس المقتدر إليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال: يا مفسدون ما هكذا أوصيتكم". ثم تقدم إلى الشماسية وأنفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب. يقول أبن الأثير:

"وكان ما فعله مؤنس سببًا لجرأة الأطراف على الخلفاء وطمعهم فيما لم يخطر لهم على بال، وانخرقت الهيبة وضعف أمر الخلافة، حتى صار الأمر إلى ما نحيكه. على أن المقتدر أخمل من أحوال الخلافة كثيرًا وحكم فيها النساء والخدم وفرط في الأموال وعزل الوزراء وولى ما أوجب طمع أصحاب الأطراف والنواب وخروجهم عن الطاعة.

وكان جملة ما أخرجه من الأموال تبذيرًا وتضييعًا في غير وجه نيفا وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه في الوجوه الواجبة، وإذا اعتبرت أحوال الخلافة في أيامه وأيام أخيه المكتفى ووالده المعتضد رأيت بينهم تفاوتًا بعيدًا".

يقول موير: "قد جر حكم هذا الخليفة البائس الطويل الخلافة إلى أحط الدرجات، وكان الخليفة في بغداد ألعوبة في أيدي الحرس الأجنبي وكانت النساء لها الكلمة العليا في شئون الدولة، وأصبح العرش موضع سخرية في الداخل، وهدفًا لطمع المغيرين من الخارج، ولم تعد بغداد المدينة القادرة على صد هجمات المغيرين بل تدهورت الأخلاق فيها ولعبت الدسائس والاضطرابات فيها دورًا خطيرًا".

٢ - أبو منصور محمد القاهر (٣٢٠ – ٣٢٢هـ) (٩٣٢ – ٩٣٤م)

اعتلى عرض الخلافة أبو منصور مُحَمَّد بن المعتضد بعد قتل أخيه، وتلقب بالقاهر بالله، وكان مؤنس يرى إجلاس ابن المقتدر على العرش بعد أبيه ولكن كبار رجال الدولة أرادوا أن يروا رجلًا كاملًا على العرش، يدبر نفسه ويدبر أمر الرعية، فأجمعوا رأيهم على انتخاب القاهر وبايعوه، واستقرت له الخلافة، وبايعه الناس واستوزر أبا علي بن مقلة، واستحجب علي بن بليق.

وقد ساءت أحوال الدولة في عهده، وطارد القاهر رجال المقتدر مطاردة عنيفة، وصادر أملاكهم، وعامل والدة المقتدر ونساءه وأهل بيته معاملة قاسية، وأخذ منهم الأموال وسلبهم المتاع، وقرب إليه مُحَّد ابن ياقوت منافس مؤنس، فغضب القوم ودبروا مؤامرة لخلعه، ولكن الخليفة علم بخبر تلك المؤامرة وقبض على رؤساء المتآمرين ومنهم مؤنس وأمر بقتلهم فقتلوا جميعًا.

واستمر القاهر في شدته وقسوته حتى أغضب الجميع، ونجح ابن مقلة في اكتساب قوا الجند إلى جانبه، وأراد الخلاص من الخليفة، فاتفق مع القواد على خلعه، ودخلوا عليه ذات ليلة وكان مخمورًا وطلبوا إليه التنازل عن العرش، ولما امتنع قبضوا عليه وسملوا عينيه وسجنوه، فانتهت مدة خلافته في أوائل جمادي الأول سنة ٣٢٢ ه بعد أن حكم سنة وستة أشهر وثمانية أيام.

٣ – أبو العباس أحمد بن المقتدر الراضي (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) (٩٣٤ – ٩٤٠م)

وُلِدَ أبو العباس أحمد بن المقتدر في سنة ٢٩٧هـ، وبويع بالخلافة بعد خلع القاهرة في ٥ جمادي الأول سنة٣٢٢هـ، وأعتلى العرش وتلقب بالراضي، وقد أخرجه القواد من السجن وبايعوه بالخلافة، وقد ازدادت الحالة اضطرابًا في عهده وضعفت الخلافة العباسية ضعفًا كبيرًا، وتضاءلت قوة الخليفة حتى أصبحت لا تتعدى بغداد وما جاورها من البلدان القريبة وانتهز حكام الأقاليم والولاة فرصة هذا الضعف والاضطراب، ووسعوا سلطانهم ، وقووا نفوذهم، واستقلوا بأماراتهم، وبعد أن كان لقب أمير المؤمنين مقصورًا على خلفاء الدولة العباسية أصبح حكام الأندلس من الأمويين يطمعون في نيل هذا اللقب الرفيع، وأعلن عبد الرحمن الناصر الأموي نفسه أمير للمؤمنين في بلاد الأندلس وشمال أفريقية، ونشطت الدولة العبيدية في بلاد المغرب، وزحفت نحو مصر تحاول الاستيلاء عليها وظهر بنوبوه في بلاد الديلم واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز، وهدد الروم الثغور الإسلامية وغزوا البلاد واقتطعوها من أيدي المسلمين.

استوزر الراضي ابن مقلة، واستحجب مُحَّد بن ياقوت فكان لهما الحل والعقد في

أمور الدولة، ولكنهما ما لبثا أن تنافسا، وأوقع ابن مقلة بمحمد ابن ياقوت وبأخيه المظفر، فقبض الخليفة عليهما وأودعهما السجن فمات مُحَمَّد بن باقوت في السجن، ثم عفا عن أخيه بعد ذلك وأطلق سراحه، فأخذ يدس لابن مقلة حتى غير قلب الخليفة عليه، وتمكن من القبض عليه وسجنه وصادر أملاكه، واضطربت الأحوال وازدادت سوءًا، وقلت الأموال وخلت الخزينة العامة، وهاج الجند، وقطع مُحَمَّد بن رائق وإلى البصرة ما كان يرسله إلى بغداد من الموال وتبعه البريدي وإلى الأهواز، وعظم أمر ابن بويه في بلاد فارس، ورأى الخليفة أن يخرج من المأزق، فبعث إلى ابن رائق يعرض عليه ولاية بغداد فأجاب الطلب وحضر إلى بغداد، وقلده الراضي الولاية ولقبه بأمير المراء، "وولاه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخليع، انتقل السلطان ببغداد إليه، ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور، وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران في الأمور جميعها، وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده، وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة ما يريدون، وبطلت بيوت الأموال، وتغلب أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة، ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم فيها جميعها لابن رائق، ليس للخليفة حكم".

المنافسة بين ابن رائق والبريدي:

ازداد نفوذ أبي عبد الله البريدي في بلاد الأهواز، واستفحل أمره في تلك الجهات، فحقد عليه ابن رائق وأرسل جندًا لقتاله في الأهواز، واختار لقيادتها قائدين من أمهر قواد الدولة، وهما بدر الخرشني وبحكم الديلمي، وسار بحكم ومن معه لقتال البريدي وأخيه أبي يوسف البريدي الذي كان واليًا على البصرة، ونجح بحكم في الاستيلاء عل معاقل البريدي في الأهواز فسار البريدي إلى الأبلة وانضم إليه أعيان البصرة، وقاوم قوات الدولة مقاومة عنيفة، فخرج إليه ابن رائق بنفسه ووصل إلى مدينة واسط، وطلب إلى بحكم أن يلحق به فجاءه، ولكن البريدي ومن معه تغلبوا عليهما وانتصروا على رجالهما، وكتب البريدي إلى

أمير آل بويه المسمى عماد الدولة يطلب معاونته وأطمعه في العراق والاستيلاء عليه، فسير معه أخاه معز الدولة وحارب بحكم، استرد بلاد الأهواز، ورجع بحكم إلى مدينة واسط.

المنافسة بين بحكم وابن رائق

ضعف نفوذ ابن رائق في بغداد ومنع عنه بحكم الأموال التي كان يرسلها من واسط، وفعلت الدسائس فعلها في دار الخلافة، وتمكن ابن مقلة من تغيير قلب الخليفة على أمير المراء، وحسن له إقامة بحكم في إمارة الأمراء مكانه، وقبل الخليفة الفكرة، فكتب ابن مقلة إلى بحكم بما استقر عليه الأمر فترك واسط وأتى إلى بغداد، وفي منتصف ذي القعدة سنة ٣٢٦هـ، دخل العاصمة بعد الانتصار علي ابن رائق وجنده، واختفى ابن رائق، وأقام الخليفة بحكم أمير للأمراء مكانه وخلع عليه، وفي أوائل سنة ٣٢٧هـ، ثار على الدولة أمير بني حمدان ببلاد الموصل ومنه الأموال التي كان يرسلها إلى دار الخلافة، فخرج إليه الراضي وبحكم وتركا بغداد، فانتهز ابن رائق تلك الفرصة وظهره من مخبأه واستولى على بغداد، فأسرع لخليفة وأميره بالعودة إليها بعد أن صالحت ناصر الدولة ابن حمدان، ولما قربا من العاصمة طلب ابن رائق الصلح فأجيب إلى طلبه، وعين واليًا على سورية والشمال، وقلد طريق الفرات وديار مضر والرها وجهد قنسرين والعواصم.

قيام الدولة الإخشيدية بمصر

اضطربت الأحوال في مصر بعد سقوطها حكم الطولونيين منها، وعادت ولاية تابعة للخلفاء كما كانت من قبل، ولكن الخلفاء لم يستطيعوا بسط نفوذهم فيها لضعفهم، فصار جنود الأتراك يسيرون أمورها، وكانت الجيوش التي ترسل لتوطيد النظام هي صاحبة النفوذ المطلق فعمت الفوضى وتحرج الموقف، وأخذ الفاطميون يهددون سلامة البلاد، وأغاروا عليها المرة بعد الأخرى، وفي زمن المعتضد تعين مُحَمَّد بن طغج الإخشيد وهو من أسرو ملوك فرغانة القدماء الذين أطلق عليهم اسم الإخشيد، وفي عصر الراضي تولى مُحَمَّد الإخشيد إدارة الشئون في مصر، فأعاد الأمن إلى نصابه، وأخرج الفاطميين من

الإسكندرية، فعظم نفوذه وأصبح شبه أمير مستقل في مصر، ولما تولى ابن رائق أمر سوريا والشام زحف على حمص ودمشق، وأخرج منهما قوات محمد الإخشيد، واضطر الإخشيد لمصالحته وتنازل له عن الجزء الشمالي من بلاد الشام، ولما مات ابن رائق استرد الإخشيد ما فقده فعظم نفوذه، وولاه الخليفة حكم مكة والمدينة، وتمكن من جعل الحكم وراثيًا في أسرته وأخذ البيعة لابنه واستمرت أسرته تحكم مصر وتوابعها حتى سنة ٣٥٨ هـ، ٩٦٩م، وفي تلك السنة كان الفاطميون قد ازدادوا شوكة ونفوذًا واتسع سلطانهم، وأغاروا على الصعيد، وتمكن جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي من الدخول إلى عاصمة البلاد وقضى على ملك الإخشيديين غير أولهم أبو المسك كافور مولى الإخشيد (٣٥٥ – ٣٥٧هـ) وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد ابن الإخشديين غير أولهم أبو المسك كافور مولى الإخشيد (٣٥٥ – ٣٥٧هـ) وكان آخرهم أبو الفوارس أحمد ابن علي الإخشيد.

قيام الدولة البويهية

استفحل أمر آل بويه أمراء الديلم في أثناء خلافة الراضي، وازداد نفوذهم في المشرق، وأصبحوا مصدر خطر عظيم يهدد كيان الخلافة العباسية، وعظم جاههم واتسع سلطانهم حتى استولوا على بغداد في خلافة المكتفى في شهر جمادي الأولى سنة ٣٣٤هـ كما سنين بعد، وقد قام هؤلاء الأمراء في بلاد الديلم، وهي بلاد واقعة في الجنوب الغربي من شاطئ بحر الخزر، وقد كانت قديما إحدى الإيالات الفارسية ودخلت في حوزة المسلمين في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وخضع الديلم للحكم الإسلامي مع بقائهم على وثنيتهم، وظلوا كذلك حتى أسلم منهم خلق كثير على يد الحسن بن علي الملقب بالأطروش، الذي أقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، فاجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد وازدادت بهم شوكته، واستولى على طبرستان وجرجان بمعاونة رئيسين من رؤساء الديلم وهما ليلى بن النعمان و "ما كان بن كالي"، وفي سنة ٣٠٤هـ توفى الأطروش وكان يلقب بالناصر لله، فتولى الأمر بعده في طبرستان ولدان من أولاده

وخرجت جرجان من أيديهما، إذ استولى عليها أمراء الدولة السامانية، وظلت تلك البلاد ميدانًا للفتن والقلاقل حتى ظهر فيها أحد رؤساء الديلم المسمى مرداويخ بن زيار الجيلي وملكها، والتفت حوله الجنود لحسن سيرته، واتسعت رقعة ملكه، وخضعت له الديلم، وذهب إلى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة فتم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها، وبلغت عساكره إلى نواحي حلوان وهي أول حدود العراق، ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز، وأرسل إلى المقتدر رسولًا يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه الخليفة إلى ذلك، فاستقرت قدمه وثبت نفوذه، وقدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم وهم الحسن وعلي وأحمد أولاد بويه وكانوا قبلًا من قواد "ما كان بن كالي" وهؤلاء الثلاثة هم الذين أسسوا الأسرة البويهية "التي امتلكت ناحية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الإسلامية، وهي التي تكون الدور الثاني من أدوار الخلافة العباسية".

يقول أبو الفداء في الجزء الثاني صحيفة ٧٨: "كان بويه رجلًا متوسط الحال من الديلم وكنيته أبو شجاع، ولما عظمت مملكة بني بويه اشتهر نسبهم.. وكان لبويه المذكور ثلاثة أولاد وهم عماد الدولة أبو الحسن علي، ولكن الدولة الحسين، ومعز الدولة أبو الحسين أحمد، وكانوا في خدمة ما كان بن كالي الديلمي لا يفارقونه، فلما رأوا ضعفه وعجزه عن مقاتلة مرداويخ فارقوه ولحقوا بمرداويخ، وتبعهم في ذلك جماعة من قواد "ما كان" فأحسن إليهم، وقلد عماد الدولة على بن بويه كرج، ولما استقر عماد الدولة في كرج قوي وكثر جمعه.. ثم قصد أصفهان وانتزعها من ابن ياقوت فعظم في عيون الناس وقويت هيبته، وأقام بأصفهان شهرين وجبى أموالها وارتحل عنها إلى أرجان واستولى عليها في ذي الحجة سنة عشرين وثلاثمائة، ثم سار إلى النوبندجان واستولى عليها في ربيع الآخر من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ثم أرسل أخان ركن الدولة إلى كازرون وغيرها من أعمال فارس فاستخرج أموالها".

ثبت ملك عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه، وأرسل إلى الراضي وإلى وزيره ابن

مقلة يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك، وأنفذت إليه الخلع واللواء، وقد غضب مرداويج لما نال أبن بويه من الحظوة عند الخليفة وهب لمقاتلته وانتصر عليه في شوال سنة ٣٢٢هـ، ثم تصالحا على أن يخطب ابن بويه لمرداويج وأهدى له هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة وفي سنة ٢٣٢هـ، تمرد بعض جند الأتراك في جيش مرداويج وقتلوه فتخلص ابن بويه من شره، وخلا له الجو في تلك الأصقاع، وتخلص الحسن بن بويه من الأسر وسار إلى أخيه بفارس، وأصبحت بلاد المشرق تخضع لثلاث قوات فكان آل يوبه في فارس، والسامانيون في خراسان وما وراء النهر، وشمكير بن شيرويه أخو مرداويج في بلاد الري، وكانت القوة النامية بينها هي وقوة آل بويه، فقد استطاع الحسن بن بويه أني نزع من وشمكير البلاد التي كانت معه، وخطر ببال علي بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة، فأرسل أخاه الأصغر أحمد إليها. وحارب بحكم وانتصر عليه بجهة واسط، واستولى على الأهواز، ثم استعد آل بويه للزحف على العراق وبينما هم يجهزون أنفسهم كاتب قواد الخليفة ببغداد أحمد بن بويه يطلبون إليه المسير للاستيلاء على بغداد، فسار إليها ووصلها في ١١ جمادي الأول سنة ٣٣٤هـ، والخليفة بها هو المكتفى بالله.

فتنة الحنابلة ببغداد في أيام الراضي

ظهرت المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة في أوائل حكم الراضي وقويت شوكة الحنابلة وازداد نفوذهم واستعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد، وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت، ويقول أبو الفداء: "عظم أمر الحنابلة على الناس وساروا يكبسون دور القواد والعامة فإن وجدوا نبيذًا أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء وفي مشي الرجال مع الصبيان ونحو ذلك، فنهاهم صاحب الشرطة عن ذلك، وأمر أن لا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فلم يفد فيهم، فكتب الراضي توقيعًا ينهاهم فيه ويوبخهم باعتقاد التشبيه، فمنه إنكم تارة تزعمون أن صورة وجوهكم

القبيحة السمجة على مثال رب العالمين، وهيئتكم على هيئته وتذكرون له الشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا، وعدد فليه قبائح مذهبهم، وفي آخره أن أمير المؤمنين يقسم بالله قسمًا جهدًا يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم، ليوسعنكم ضربًا وقتلًا وتبديدًا، وليستعملن السيف في رقابكم، والنار في منازلكم ومالكم".

وقد أحدثت هذه الفتنة في البلاد اضطرابًا كان له أسوأ العواقب في قوة الدولة العباسية.

وفاة الراضي وأخلاقه

في منتصف الربيع الأول من سنة **٣٢٩** هـ مات الراضي بالله، وكانت خلافته سنين وعشرة أيام، وكان أديبًا مشاعرًا فمن شعره الرقيق:

يصــــفر وجهــــي إذا تأملـــــه طـــرفي فيحمـــر وجهـــه خجـــلًا

حــــتى كــــأن الـــذي بوجنتـــه مـــن دم وجهـــي إليـــه قـــد نقـــلا

"وكان الراضي سخيًا يحب الأدباء والفضلاء، وهو آخر خليفة له شعر يدون، وآخر خليفة خطب كثيرًا على منبر، وكان آخر خليفة جالس الجلساء، وآخر خليفة كانت نفقته وجراياته وخزانته ومطابخه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين".

٤ – إبراهيم المتقي لله (٣٢٩ – ٣٣٣هـ) (٩٤٠ - ٩٤٤م)

تولى إبراهيم المعتمد بن أحمد الموفق عرش الخلافة بعد موت الراضي وتلقب بالمتقي بالله، وكان الفضل في اختياره لكرسي الخلافة لبجكم ، وكان بواسط عند وفاة الراضي فأرسل وزيره أبا عبد الله الكوفي إلى بغداد وأمره أن يجمع وجوه الدولة ويختاروا الخليفة، فاجتمعوا واتفقوا على انتخاب إبراهيم بن المقتدر بالله وبايعوا له، وسير الخلع واللواء إلى بحكم وهو بواسط وقد استأثر بحكم بالنفوذ والسلطان في الدولة، وكان يعضده في إدارة الشئون وزيره الكوفي، ولكن حوادث تلك السنة انتهت بقتل بحكم فقد قتله جماعة من الأكراد وكان قد خرج للصيد وهو في طريقه إلى واسط بعد أن انتصر على عبد الله

البريدي، ففرح البريدي لخبر القتل وسار إلى بغداد، وفي شهر رمضان سنة ٣٢٩ هـ دخلها وأدار الشئون بها أيامًا، ثم ثار العامة في وجهه وأخرجوه منه لسوء سيرته، وتولى الأمر فيها بعده أحد قواد الديلم المسمى كورتكين، وولاه المتقى منصب أمير الأمراء وخلع عليه.

رجوع ابن رائق إلى بغداد وقتله

اضطربت الأمور في عاصمة الخلافة بسبب اعتداءات جند الديلم على الأهالي، وكان كورتكين ضعيفًا فلم يستطع القبض على ناصية الحال، فرأى المتقى أن يطلب من ابن رائق العودة إلى بغداد، فأرسل في طلبه فلبى الدعوة واستخلف على الشام أبا الحسن أحمد بن علي بن مقاتل، ولما وصل إلى بغداد قاتل كورتكين وانتصر عليه وسجنه، فولاه الخليفة منصب إمرة الأمراء ببغداد، ولكنه لم يبق في منصبه طويلًا، إذ أسرع البريدي وأرسل جندًا في الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم يلق مقاومة كبيرة، ودخل المدينة.

وهرب المتقى وابنه وابن رائق إلى الموصل يطلبون النجدة من أمير حمدان وقد ارتكب البريدي ورجاله في بغداد أمورًا أغضبت الأهالي غضبًا شديدًا، وقد انتهز ناصر الدولة أمير حمدان هذه الفرصة وطمع في منصب إمرة الأمراء، واغتال ابن رائق وتولى منصبه في شعبان ٣٣٩هـ.

استعد ناصر الدولة بعد ذلك للزحف على بغداد، وخرج إليها ومعه المتقى وقد دخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، وهرب عنها أبو الحسين ابن البريدي، وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد نحو أربعة شهور، ثم خرج بنو حمدان يزحفون إلى واسط للقضاء على نفوذ البريدي فيها فأقام ناصر الدولة في المدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدي وتمكن من الاستيلاء على واسط بعد معارك دموية، ثم حصل شقاق بين الأخوين فترك ناصر الدولة بغداد بعد أن مكث بها نحو ثلاثة عشر شهرًا، ورجع إلى بلاد الموصل، وخلت وظيفة إمرة الأمراء.

توزون أمير الأمراء

كان أكبر قواد الديلم في ذلك الوقت هو توزون، فلما خلا منصب إمرة المراء ولاه المتقي هذا المنصب الخطير، فسار فيه سيرة رديئة، وتحكم في أمور الدولة، وخاف المتقى العواقب فخرج من بغداد إلى بلاد الموصل للاستنجاد بأمراء حمدان، وقابله سيف الدولة بتكريت وانضم إليه ناصر الدولة، وزحف توزون لقتال بني حمدان وانتصر عليهم ومعهم الخليفة فتركوا الموصل وذهبوا إلى الرقة وأقاموا بها، وكتب المتقى إلى الإخشيد صاحب مصر يشكو إليه حاله وما هو فيه، فسار الإخشيد من مصر إلى حلب ثم إلى الرقة واجتمع بالمتقى وحمل غليه الهدايا، وطلب إلى الخليفة أن يسير معه إلى مصر فامتنع، وكاتب توزون في أمر الصلح فقبل، وأقسم للخليفة إلا يغدر به فاغتر المتقى بتلك الوعود ورجع إلى بغداد.

خلع المتقى

نكث توزون بعهده وقابل الخليفة في السندية ووكل عليه حتى أنزله في مضربه، قم قبض عليه وسمله وأعمى عينيه، ثم خلعه فانتهت خلافته، وأقام توزون مكانه في اليوم نفسه أخاه الذي تلقب بالمستكفى بالله، وكان ذلك في شهر صفر سنة ٣٣٣هـ، وانتهى بخلعه عصر نفوذ الأتراك وعلا نجم آل بويه.

الباب العاشر

عصر نفوذ آل بويه

(٣٣٤ - ٤٤٧)هـ (٩٤٦ - ١٠٥٥)م

انتهت خلافة المتقي بخلعه، وأحضر توزون أخاه أبا القاسم عبد الله وأجلسه على العرش، وتلقب بالمستكفي بالله. وكانت مدة خلافته قصيرة، فإنه جلس على العرش سنة واحدة وأربعة شهور، وكان مغلوبًا على أمره. إذا كان الأمر كله بيد توزرون أمير الأمراء، وكان الخليفة ضعيفًا لا يستطيع أن يرد لأمير أمرائه رأيًا أو ينقض أمرًا، بل يخرج في ركابه إذا ما سار، لمحاربة الثوار والخارجين على الدولة، ويرجع معه إلى مقر الملك إذا ما فرغ من قتاله، فوصلت الخلافة في عهده إلى درجة خطيرة من الانحطاط، وفي شهر المحرم سنة ٣٣٤ هـ مات توزون ببغداد فعقد الأجناد لأبن شيرزاد أحد قوادهم الأمرة عليهم، وكان بعيدًا عن العاصمة فحضر إلى بغداد مستهل صفر، وأرسل إلى المستكفى فاستحلفه فحلف له بحضرة القضاة وولاه إمرة الأمارة.

استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد

ساءت الأحوال في بغداد إلى درجة كبيرة، وحاصرها الأعداء من كل جهة، وقطعوا عنها المؤن والأوقات، وشعر الناس بألم الجوع فأكلوا الكلاب والقطط، ونهبوا البيوت والمخازن، وهاجر معظم السكان إلى البصرة وإلى غيرها من المدن الإقليمية، وشعر أبو جعفر بن شيرزاد أمير الأمراء بحرج الموقف وخطورة الحال، فأرسل يطلب النجدة من ناصر الدولة أمير بني حمدان وكان بالموصل ويعرض عليه منصبه، ولكن ناصر الدولة كان إذ ذاك مشغولًا بمحاربة الروس الذين أغاروا على أزربيجان، وكانت باقي قواته تحارب الإخشيديين في بلاد الشام فلم يستطع تقديم المعونة، وازدادت الحال تحرجًا بسقوط

مدينة واسط في أيدي أحمد ابن بويه وانضمام الجيوش التي كان بها إله، وكاتبه رؤساء الجند ببغداد يطلبون إليه الزحف على بغداد والاستيلاء عليها فسار نحوها، ولما قرب منها هرب الخليفة وأمير أمرائه، وتشتت شمل الجنود التركية وفر معظمهم إلى بلاد الموصل، وقدم الحسن بن مُحَّد المهلبي من رجال معز الدولة إلى بغداد، فظهر المستكفى واجتمع به، وأظهر السرور بقدوم معز الدولة، وأعلمه أنه إنما استتر خوفًا من الأتراك، فلما ساروا بعيدًا عن بغداد ظهر. ثم وصل معز الدولة إلى بغداد ثاني عشر جمادي الأولى من ٣٣٤هـ واجتمع بالمستكفى وبايعه، وحلف له المستكفى وخلع عليه ولقبه في ذلك اليوم بمعز الدولة، وأمر أن تضرب القاب بني بويه على الدنانير والدراهم، ونزل معز الدولة بدار مؤنس، وأنزل أصحابه في دور الناس فلحق الناس من ذلك شدة عظيمة، ورتب معز الدولة للمستكفى كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبة لنفقات الخليفة".

زال ما كان باقيًا من النفوذ للخليفة العباسي في الدولة الإسلامية باستيلاء آل بويه على بغداد، وأصبحوا من ذلك اليوم أصحاب السيطرة والسلطان في أمور الدولة، فكان مثلهم فيها مثل أمراء الكرولينجان مع ملوك المروفنجيان بفرنسا، وكان مثل معز الدولة في إدارة شئون الدولة العباسية مثل شارل مارتل في السيطرة على أموال فرنسا في عصره، وقد استمروا أسيادًا على بغداد والعراق نحو قرن من الزمن، وتمكنوا في أثنائه من القضاء على سلطان الأتراك ونفوذهم وطردوا بني حمدان من الموصل، وحكموا الجزيرة والعراق العربي وغربي بلاد العجم حكمًا فعليًا.

خلع المكتفى وخلافه المطيع:

لم يمكث المكتفى في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة على بغداد إلا أربعين يومًا وخلع، لأن معز الدولة أتهمه بدس الدسائس له وبالتدبير عليه، وقال أبو الفداء عن صورة خلعه ما يأتي: "أن معز الدولة وعسكره والناس حضروا إلى دار الخليفة بسبب وصول رسول صاحب خراسان، فأجلس الخليفة معز الدولة على كرسي ثم حضر رجلان من نقباء الديلم وتناولا يد المكتفى بالله، فظن أنهما يريدان تقبيلها فجذباه عن سريره،

وجعلا عمامة في عنقه، ونهض معز الدولة فاضطرب الناس، وساق الديلميان المكتفى ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت الخلافة حتى لم يبق بها شيء".

آلت الخلافة بعد المكتفى إلى ابن عمه الفضل، فاعتلى عرشها وتلقب بالمطيع بالله، وظل في كرسي الخلافة نحو تسعة وعشرين عامًا ونصف عام (٣٣٤ – ٣٦٣) هـ، ولم يزل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ أغسطس سنة ٩٧٤م، ولم يكن له من الأمر شيء بل كان الفنوذ في عصره للملوك من آل بويه ولما تقلد أمر الخلافة سلمه معز الدولة المكتفى الخليفة المخلوع فسمل عينيه وسجنه، وظل ذلك الخليفة البائس مسجونًا حتى مات.

نفوذ معز الدولة وإدارته

استأثر معز الدولة بالنفوذ والسلطان في كل مظهر من مظاهر الحياة في الخلافة العباسية، فكان له الأمر والنهي وعلى الخليفة السمع والطاعة، وقد خطر بباله أن ينقل الخلافة من بني العباس إلى العلويين لتشعبه بالآراء الشيعية، وكان هو وآل بيته يعتقدون أن بني العباس قد غضبوا الخلافة وأخذوها من العلويين إذ تلقوا المبادئ الإسلامية على يد الحسن بن ويد والحسن الأطروش وكلاهما زيدي ومن غلاة الشيعة.

ولكن أصدقاء معز الدولة وخواصه أشاروا عليه ببقاء الخلافة في بني العباس حتى يظل متمتعًا بالجاه والسلطان، فانصرف عن الفكرة متبعًا نصيحة الناصحين، وأبقى اسم الخلافة للعباسيين وانفرد هو بالسلطان، وفي عصره ازداد نفوذ الجند واعتدوا على الثروات الفردية وانتزعوها من أيدي أصحابها، وأقطع معز الدولة قواده وأصحابه القرى جميعها، فظلموا الناس، وأهملت الزراعة، وقضى نظام الاقطاعات على رخاء العراق، وضعفت همة الفرحين، فلم يقوموا بزرع الأرض وإصلاحها وتنمية مواردها كما كانوا يفعلون في العهود التي مضت.

وانتشرت في البلاد الفتن وقامت الاضطرابات بسبب المنافسات والمنازعات بين جند الأتراك وجند الديلم، وبسبب الاختلافات الدينية التي تأججت نارها ببغداد وما

جاورها من بلاد العراق، فقد كان أهل تلك الجهات قبل قيام الدولة البويهية على مذهب السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون أبا بكر وعمر على سائرهم، ولا يقدحون في معاوية ولا غيره من سلف المسلمين، فلما أصبح النفوذ لآل بويه وكانوا من غلاة الشيعة كبر شان الشيعة في البلاد ونما مذهبهم، وعاضدتهم الحكومة في آرائهم.

وفي سنة ٣٥٢هـ أمر معز الدولة الناس أن يحتفلوا في عاشر المحرم بذكرى قتل الحسين، فأغلقت الحوانيت وأبطلت الأسواق، ووقفت حركة البيع والشراء، وخرجت السناء منثورات الشعر مسودات الوجوه، يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن علي الحسين بن علي ﷺ.

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر بإظهار الزينة في البلد ليلًا ونهارًا احتفالًا بعيد الغدير، والغدير هو الموضع الذي يروي أن رسول الله ﷺ قال فيه عن عليٍّ "من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه".

يقول الخضري بك: "وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والري ميدانًا للاضطرابات المتكررة بين العامة، والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين، والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر، ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها، فيهون أمرها ما عدا ما منشؤه الدين منها، وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد".

العلاقة بين معز الدولة وناصر الدولة بن حمدان

يقول أبو الفداء: "في سنة أربعة وثلاثين وثلاثمائة سار ناصر الدولة إلى بغداد، وأرسل معز الدولة عسكر القتالة فلم يقدروا علة دفعه، وسار ناصر الدولة من سامرا عاشر شهر رمضان إلى بغداد، وأخذ معز الدولة المطيع معه وسار إلى تكريت فنبهها لأنها كانت لناصر الدولة، وعاد معز الدولة بالخليفة إلى بغداد ونزل بالجانب الغربي، ونزل ناصر الدولة بالجانب الشرقي ولم يخطب تلك الأيام للمطيع ببغداد.

وجرى بينهم ببغداد قتال كثير آخره أن ناصر الدولة وعسكره انهزموا، واستولى معز الدولة على الجانب الشرقي وأعيد الخليفة إلى مكانه في المحرك سنة خمسة وثلاثين

وثلاثمائة، واستقر معز الدولة ببغداد وناصر الدولة بعكبرا، ثم سار ناصر الدولة إلى الموصل واستقر الصلح بين معز الدولة وناصر الدولة في ذلك الشهر".

وتجدد الحرب بين الاثنين في سنة ٣٣٧هـ، واستقر الأمر في النهاية على أن يؤدي ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام في كل سنة ثمانية آلاف درهم ويخطب في بلاده لأولاد بويه الثلاثة.

وقامت الحرب بين الاثنين بعد ذلك بعشر سنوات، وانتصر معز الدولة وطرد ناصر الدولة عن أملاكه واستولى على الموصل ونصيبين، وفي سنة ٣٤٨هـ، تم الصلح بين الاثنين بتدخل سيف الدولة أخي ناصر الدولة وكان أميرا على حلب.

لاقى معز الدولة صعوبات أخرى في الجنوب، فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدي وكان يطمع بالاستقلال بها، فحاربه معز الدولة وطرده عن البصرة، وفي عهده ظهرت قوة جديدة زادت متاعبه، وهي قوة عمران ابن شاهين، فقد ظهر عمران في البطيحة، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وأسس له ولأسرته ملكًا واسعًا في تلك الأصقاع دام حتى سنة ٤٠٨هـ.

وكثيرًا ما شغل جنود الدولة في حروب طويلة شاقة كان النصر فيها طورًا إلى جانبه وطورًا إلى جانب معز الدولة ورجاله.

مات معز الدولة في سنة ٣٥٦هـ وخلفه ابنه باختيار في إدارة شئون الدولة وتلقب بعز الدولة، وقد استمر يدير أمور الخلافة مدة ١١ سنة وكان ميالًا إلى معاشرة النساء والمغنين، فساءت الحال في العراق، وكثرت الفتن، واضمحلت البلاد. فانتهز الروم تلك الفرصة وأغاروا على الثغور الإسلامية، ولم يستطع سيف الدولة علي بن حمدان أمير تلك الجهات أن يرد غارات هؤلاء الأعداء، على الرغم مما بذله من الجهود العظيمة في أمر محاربتهم، واستولى الروم على مرعش، وأوقعوا بأهل طرسوس، وفي سنة ٣٥١هـ غزا الدمستق عين زربة وهي من أحصن مدن الثغور واستولى عليها وقتل أهلها، وفتح حولها ٥٤ حصنًا للمسلمين، وفي تلك السنة استولى الروم على مدينة حلب وطردوا منها سيف

الدولة، وفي سنة ٣٥٤ هـ دخل الروم المصيصة وطرسوس، وبعد ذلك بأربع سنوات دخلوا الشام وأحرقوا البلاد وخربوها ونهبوا وسلبوا وسبوا كثيرًا، ثم استمروا يغيرون على أملاك المسلمين وينتزعوها من أيديهم حتى صارت لهم الهيبة في قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام "وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضًا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون".

خلع المطيع وخلافة الطائع

مرض المطيع في أواخر أيامه ولم يعد قادرًا على العمل، فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل العمل فخضع لتلك المشورة، وفي منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣هـ خلع نفسه، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو الفضل عبد الكريم وتلقب بالطائع لله (٣٦٣ – ٣٨١هـ) (٩٧٤ – ٩٩١م) وقد استمر خليفة سبعة عشر عامًا وثمانية أشهر وستة أيام، وكان مثله مثل من سبقه من الخلفاء، لا حول له ولا قوة أمام أمراء آل بويه، غير أن أفراد تلك الأسرة الديلمية قد انقسموا على أنفسهم. واضطرب أمرهم في العراق، ونازع بعضهم البعض في الرياسة والنفوذ، وقد ظل عز الدولة يدير الشئون على حسب ما يشتهي حتى سنة ٣٦٧هـ.

وفي تلك السنة تغلب عليه ابن عمه عضد الدولة، وكان أميرًا على الجبل والري، وحضر إلى بغداد وقبض على وزير بختيار الأمير مُحَمَّد بن بقية وصلبه على رأس الجسر في شوال سنة ٣٦٧هـ، وهو الذي رثاه أبو الحسين الأنباري بقصيدته المشهورة التي أولها:

علـــو في الحيـــاة وفي الممـــات   لحـــق تلـــك إحـــدى المعجـــزات

وقد استقر ملك عضد الدولة في العراق وما معها من ملك أبيه وعمه وأخرج بني حمدان من الموصل وتملكها، وفي سنة ٣٧١ هـ انتزع جرجان من واليها قابوس بن وشمكير، "ولم يقم في آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة وإقدامًا، وكان عاقلًا فاضلًا، حسن السياسة، كثير الإصابة، شديد الهيبة، بعيد الهمة ثاقب الرأي محبًا للفضائل، واهبًا باذلًا في موضع العطاء، مانعًا في مواضع الحزم ناظرًا في عواقب الأمور".

وقد ظل عضد الدولة قائمًا بالأمر حتى توفي في شوال سنة ٣٧٢هـ، فاجتمع القواد وكبار الدولة وبايعوا لابنه الملقب بصمصام الدولة، وقد نازعه أخوه شرف الدولة الذي كان أميرًا بفارس في ذلك الوقت، وخرج بجيشه لمحاربته واستولى على الأهواز، وسار إلى البصرة وملكها، وأخيرًا طلب صمصام الدول الصلح، فتصالح الأخوان على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة، ثم عاد النفوذ بينهما وتغلب شرف الدولة على أخيه وزحف على بغداد في سنة ٣٧٦هـ ودخلها في رمضان من تلك السنة.

وقد استمر يدير الشئون نحو سنتين وثمانية أشهر ثم مات في جمادي الآخرة سنة ٣٧٩هـ، ومن فضائله أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها، فأمن الناس وسكنوا، وتولى أمر العراق بعده أخوه بهاء الدولة وفي عهده حصل شقاق عظيم بين جند الأتراك وجند الديلم، وتغلب الأتراك عليهم.

خلع الطائع وخلافة القادر

قلت الأموال العامة في سنة ٣٨١هـ، وثار الجند يطلبون أرزاقهم، فأشار البعض على بهاء الدولة أن يصادر أموال الخليفة، وحسن له القبض عليه، فأخذ الرأي وخلع الطائع وصادر أملاكه وحمله إلى داره، وانتهى حكم الطائع، وفي عهده كانت بلاد الشام مسرحًا لقتال الفاطميين والترك والقرامطة. وتولى عرش الخلافة بعده ابن عمه أبو العباس أحمد القادر بالله (٣٨١ – ٤٢٢هـ) (٩٧٤ – ١٠٣١م)، وقد عمر طويلًا في الخلافة إذ كانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يومًا، وفي عهده الطويل ظهرت دويلات كثيرة في أنحاء الدولة العباسية في المشرق والمغرب، وحلت محل دويلات أخرى،وكان لكل منها شأن عظيم في تاريخ الأمة الإسلامية، فظهرت الدولة النجاحية بمدينة زبيد وقامت على أنقاض الدولة الزيادية، فقد استطاع المؤيد نجاح وكان مولى من مولى آل زياد أن يتولى ملك تهامة اليمن في سنة ٤١٢هـ، وينشر نفوذه على ما جاوره من الملاك، وظل قائمًا بالأمر في تلك الجهات هو ومن خلفه من أعقابه حتى سنة ٥٥٤هـ، وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وقام بالجزيرة ثلاث دول فقامت دولة في ديار ربيعة واتخذت

مدينة الموصل عاصمة لها، وكان أول أمرائها هو حسام الدولة المقلد بن المسيب، وكان آخرهم هو علي بن مسلم بن قرواش وعلى يديه سقطت الأمارة في يد السلاجقة في سنة ٤٨٩هـ، وقامت الدولة الثانية في ديار بكر واتخذت مدينة آمد عاصمة لها، وكان أمراؤها من الأكراد، وأسسها أبو علي الحسن بن مروان سنة ٣٨٠هـ، واشتهر من أمرائها أبو نصر الدولة أحمد بن مروان، فأنه تولى سنة ٤٠٢هـ، واستمر في الحكم فوق النصف قرن، وكان حسن السيرة، محبًا للعلم والعلماء، فقصده الشعراء والفقهاء من كافة الأقطار، وأجزل لهم العطاء، وكانت الثغور معه آمنة وقد بقيت هذه الدولة قائمة بعده حتى استولى عليها السلجوقيون في سنة ٤٨٩هـ، أما الدولة الثالثة فقد قامت في ديار مضر واتخذت مدينة الرقة عاصمة لها، وقد أسسها بكجور وكان واليا على دمشق من قبل العزيز بالله الفاطمي، ولما عزله عنها جاء إلى الرقة في سنة ٣٧٨هـ، واستولى عليها وأقام لنفسه بها ملكًا، ولما قتل انتقلت تلك البلاد إلى حوزة العلويين أصحاب مصر، أما في بلاد المشرق فقد قامت الدولة الغزنوية في ذلك العهد وكان لها شأن كبير في أواسط آسيا والهند ولذلك نذكرها بشيء من التفصيل.

قيام الدولة الغزنوية

قامت هذه الدولة بمدينة غزنة. وكانت مدينة عظيمة تقع في وسط ولاية غنية في طرف خراسان من جهة بلاد الهند، وكانت تخضع للدولة السامانية التي حكمت بلاد خراسان، وفي ولاية غزنة هذه ظهر قائد تركي يسمى إسحاق بن البتكين أشتهر بالشجاعة والإقدام، وقد هاجر من بخاري واستوطن الأصقاع الجبلية في بلاد الأفغان، واتخذ مدينة غزنة مركزًا لأعماله ومقرا لحكومته، ولما مات في سنة ٩٩٥م خلفه في نفوذه صهر له يسمى سبكتكين، وقد ورد عنه في ابن الأثير ما يلي: "لم يخلف أبو إسحاق ابن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية بعد وفاته من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم، فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم ويجمع كلمتهم، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال خلال الخير فيه، فقدموه عليهم،

وولوه أمرهم، وحلفوا له وأطاعوه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة، وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال".

وقى أمر سبكتكين وغزا البلاد التي جاورته، ودخل بلاد الهند بعد أن أخترق جبال هندكوش، وزحف على إقليم البنجاب، واستولى على مدينتي بست وقصدار، وانتصر على ملك الهند انتصارًا مبينًا، فعلا شأنه وبعد صيته، وسمع به الخليفة فأرسل إليه الهدايا وخلع عليه وعقد له اللواء، ومنحه لقب ناصر الدولة، فاستقام له الأمر وأصبح مركزه في البلاد التي يسودها شرعيًا، وأسس الدولة الغزنوية وكان عمادًا للأسرة السبكتكينية.

علاقة سبكتكين بالدولة السامانية

ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية في ٣٨٤هـ بسبب خروج الجند وقوادهم على أمراء السامانيين، فرأى الأمير نوح بن منصور الساماني أن يستعين بسبكتكين، وأرسله وطلب إليه أن ينجده وولاه أمر خراسان فاستعد سبكتكين وخرج قاصدًا خراسان لنصرة أميرها،واستعان القواد الثائرون بفخر الدولة بن بويه فأسرع لمساعدتهم، ولكن سبكتكين تغلب على أعدائه بعد حروب شعواء، وفاز فوزًا باهرًا وثبت قدمه في خراسان، وفي سنة ٣٨٧هـ مات الأمير نوح بن منصور في شهر رجب، واختل بموته ملك آل سامان. وضعف ؟؟ ضعفًا طاهرًا، وطمع فيهم أصحاب الأطراف فزال ملكهم بعد مدة يسيرة، وقد خلفه في الملك ابنه أبو الحرث منصور بن نوح.

مات سبكتكين في شهر شعبان من سنة ٣٨٧هـ، وكان يقيم ببلخ قبل موته، ولكنه مرض وأراد الانتقال إلى غزنة فمات في الطريق ودفن بغزنة، وكانت مدة ملكه نحو عشرين عامًا، وكان عادلًا كثير الجهاد، وقد عهد إلى ولده إسماعيل بالملك بعده، فلما مات بايع الجند لإسماعيل وحلفوا له وأطلق لهم الأموال، وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند واشتطوا في الطلب حتى أفنى الخزائن التي خلفها أبوه، وقد ظل قائمًا بالأمر نحو سبعة شهور، ونازعه أخوه محمود في الملك وكان أكبر منه سنًا، ودارت رحى القتال بين الأخوين وانتصر محمود واستولى على الملك وعامل أخاه بالحسنى، واعترف الخليفة بملكه

وعقد له وخلع عليه ولقبه يمين الدولة وأمين الملة، وتلقب بالسلطان ولم يلقب به أحد قبله وقد بلغت الدولة السبكتكينية في عهده أقصى مجد لها.

وفي ٣٨٩هـ استولى على خراسان وقضى على البقية الباقية من النفوذ لآل سامان فانقرضت دولتهم على يديه، وقام بغزوات كثيرة في الهند، وعلى يده أسلم كثير من ملوك الهند وأمرائها، وخضع لنفوذه ملوك طبرستان وجرجان، ولم يزل في عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١هـ ١٠٣٠م.

ويقول عنه سيد أمير على ما يأتي: "كان حكم محمود الغزنوي في آسيا من أبهى الأحكام التي مرت عليها، وكان محبًا للعلم والعلماء، شجع العلوم والفنون، وكان بلاطه محطًا لرحال كثير من العلماء والفقهاء، وعاش في زمنه وتحت رعايته كثير من الفلاسفة والشعراء. أمثال الفردوسي والبيروني وغيرهما".

وفي عهده استوطن فريق من الأتراك بعض أجزاء البلاد التي تقع تحت نفوذه على شواطئ نهر سيحون، ولم يلتفت محمود إلى خطورة شأنهم ورأى أضعافًا لجموعهم أن يرسل قبيلة منهم إلى بلاد خراسان، وأرسل قبيلة وعلى رأسها زعيمها المسمى سلجوق إلى تلك البلاد فاستوطنتها واتسع نفوذها فيها، ولما أراد ابنه مسعود أن يخرج هؤلاء السلجوقين من خراسان غلب على أمره واستقل السلجوقيون بخراسان.

ظل ملك آل سبكتكين قائمًا في بلاد الأفغان وبخاري وما جاورها من الأقاليم حتى سنة ٥٨٢هـ، وكان آخر ملك من ملوك تلك الأسرة العظيمة هو تاج الدولة خسرو ملك بن خسرو شاه.

وفاة القادر وأخلاقه

توفى القادر بالله في ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ، في أواخر أيامه ضعف نفوذ آل بويه بسبب الانقسامات التي قامت بين أفراد الأسرة فاسترجع الخليفة شيئًا من الكلمة والنفوذ، وقد اتصف القادر بالميل إلى الخير وبالحلم والكرم، وكان ورعًا متدينًا وقد خلفه على عرش الخلافة ابنه أبو جعفر عبد الله.

القائم بأمر الله (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ) (١٠٣١ – ١٠٧٥م)

هو أبو جعفر عبد الله تولى عرش الدولة بعد وفاة أبيه بعهد منه وتلقب بالقائم بأمر الله، وحكم الدولة حكمًا طويلًا وكان النصف الأول لعهده عصر اضطرابات وفتن متتالية ببغداد وغيرها من أقاليم الخلافة العباسية، وطمع في أطراف الدولة الطامعون ومكبر شأن السلجوقيين في بلاد المشرق، وزحفوا نحو العراق وظلوا يترقبون الفرصة حتى يدخلوا بغداد وينتزعوها من أيدي سلاطين آل بويه، وقد وصلوا مآربهم وقضوا على الدولة البويهية، وحلوا محلها في النفوذ والسلطان وأداروا شئون الخلافة العباسية.

كان القائم ألعوبة في أيدي السلطان البويهي يحركه على حسب ما يشتهي، وكان جلال الدولة بن بهاء الدولة البويهي هو الذي يتولى أمر العراق في عهده، وكان سلطان ضعيفًا، فاختلت الأمور وانفرط عقد النظام وقلت الإيرادات، ولم يقوا على دفع مرتبات الجند فثاروا عليه في سنة ٤٢٦هـ وطلبوا أرزاقهم ولما لم يجبهم إلى ما طلبوا انقلبوا قطاع طرق ولصوصا ينهبون المتاع ويسرقون المنازل، وانتشر البدو من العرب في البلاد ونهبوا النواحي وقطعوا الطرق، وبلغوا أطراف بغداد ودخلوا جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر، وفي سنة ٤٣٢هـ طلب السلطان من الخليفة أن يلقبه بملك الملوك فامتنع الخليفة قائلًا بأن هذا اللقب لا يتفق مع الدين، فاستعان جلال الدين بالفقهاء وعلماء الدين وأفتى بعضهم بجواز اللقب، وخالفهم فريق آخر وعلى رأسهم قاضي القضاة أبو الحسن الماوردي، وقبل الخليفة كما طلب السلطان ومنحه اللقب، وظل جلال الدين قائمًا بالأمر حتى توفي سنة ٤٣٥هـ، فخلفه ابن أخيه أبوكاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محي الدين، وكان عهده عهد اضطرابًا أيضًا، وتنازع الأتراك والديلم النفوذ في الدولة، فساءت الأمور وازدادت حرجًا وبعد حكم دام خمس سنوات توفي محيي الدين في سنة ٤٤٠ هـ، وخلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز، وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فامتنع الخليفة أولًا عن إجابة الطلب ولكنه اضطر إلى أن يجيبه إلى ما طلب واستقر الأمر له، وبسط نفوذه على العراق وخوزستان

والبصرة، وعلى يديه سقطت الدولة البويهية، وانقضى عصر نفوذ آل بوية وخضعت الخلافة العباسية إلى نفوذ جديد وهو نفوذ السلاجقة.

يقول الخضري بك: "انقضت مدة آلا بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد، بل زادتها فرقة وفسادًا بما أظهرته من التشيع في بغداد، مع أن كثرية أهلها أهل سنة وجماعة، فكان النزاع كثيرًا ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه ان يعين طائفته".

يقول موير: "وكان عصر بني بويه زاهيًا بالأدب وبخاصة الأدب الفارسي، ونبغ عدد من العلماء والأدباء والفلاسفة نذكر منهم الفيلسوف الفارابي وهو من أصل تركي ومات سنة ٩٥٠م، والمتنبي أشهر شعراء الشرق وهو من أصل عربي ومات سنة ٦٩٥م، والخوارزمي ومن اسمه اشتق الغربيون كلمة لوغاريتم ومات سنة ٩٩٢م، والفيلسوف العظيم الحسين بن عبد الله بن سينا ومات سنة ١٠٣٧م".

قيام الدولة السلجوقية

ورد في تاريخ أبي الفداء عن ابتداء الدولة السلجوقية ما يأتي: "دخلت سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وفي هذه السنة تتوطد ملك طغريل بك وأخيه داود ابني ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، وكان جدهم دقاق رجلًا شهمًا من مقدمي الأتراك، وولد له سلجوق فانتشا وظهرت عليه أمارات النجابة فقدمه يبغو ملك الترك إذ ذاك، وقوى أمره وصار له جماعة كثيرة فتغير يبغو عليه فخاف سلجوق منه فسار بجماعته وبكل من يطيعه من دار الكفر إلى دار الإسلام.

وأقام بنواحي جند وهي بليدة وراء بخاري، واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا إلى عزه، وصار يشن الغارة على بلاد الترك. وكان لسلجوق من الأولاد إرسلان وميكائيل وموسى، ووفى سلجوق بجند وعمره مائة وسبع سنين".

حذا أبناء سلجوق حذو أبيهم في الجهاد ضد الأتراك لأعلاه كلمة الدين الإسلامي، فقتل ميكائيل وهو يجاهد في سبيل الله، وترك من الأولاد يبغو وطغريل بك

وجغرو بك داود، وانتقلوا من مكانهم إلى مكان قريب من بخاري فخافهم أميرها وأساء جوارهم، فرحلوا عنها ونزلوا في أملاك بغراخان ملك تركستان، ولكن لم تطل لهم الإقامة في ذلك القطر، ورجعوا إلى جند مقرهم الأصلي وظل بها حتى انقرضت الدولة السامانية سنة ٣٨٩ هـ واستولى ايلك خان على بخاري، وطرده منها على تكين أحد قواد السامانيين وكان صديقًا لارسلان بن سلجوق فاستدعاه لمعاونته في بخاري، فذهب إليه أرسلان ومكث بها ، وفي تلك الأثناء كان الغزنويون وعلى رأسهم السلطان محمود قد ازداد نفوذهم، وعبروا النهر إلى بخاري وتملكوها، وقبض محمود قد ازداد نفوذهم، وعبروا النهر إلى بخاري وتملكوها، وقبض محمود على أرسلان وسجنه، ثم تفرق أصحابه في نواحي خراسان إلى أصفهان بأمر السلطان محمود، ووضع عليهم الخراج فجارت العمال عليهم وامتدت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم، فانفصل منهم جماعة عن جرجان إلى أصفهان، وجرى بينهم وبين علاء الدولة بن كاكوين حرب ثم ساروا إلى أذربيجان، أما طغريل بك وأخواه داود وبيغوا فأنهم ساروا من خراسان إلى بخاري وقاتلوا صاحبها على تكين، ثم عادوا إلى خراسان وعبروا نهر جيحون وضربوا خيامهم بظاهر خوارزم سنة ٤٢٦هـ، ثم خرجوا منها إلى جهة مرو. وهناك تقابلت جموعهم مع قوات السلطان مسعود بن محمود الغزنوي وبعد معارك شديدة بين الطرفين انتصر السلجوقيون واستولى داود على مرو، وأحسن السيرة في أهلها وخطب له بها أول جمعة في رجب سنة ٤٢٨هـ ولقب في الخطبة بملك الملوك، وكان طغريل بك يفتح المدن في خراسان الواحدة تلو الأخرى، وينتصر على جيوش السلطان مسعود، فملك جرجان وطبرستان في سنة ٤٣٣هـ، وفي السنة التي تلتها ملك خوارزم، ثم امتد نفوذه إلى بلاد الري، ووصلت طلائع جنده إلى البلاد العراقية وأصبح طغريل بك من ذلك العهد زعيمًا للأسرة السلجوقية، وكان بطلًا من أبطال المسلمين اشتهر بالورع والتقوى والميل إلى العلم والعلماء، فعلًا شأنه وأصبح قبلة الأنظار في المشرق.

طغريل بك وعلاقته بالخلافة العباسية:

تفرقت كلمة آل بويه كما سبق أن قدمنا وضعف أمرهم في بغداد وكثرت الفتن والقلاقل، واضطرب الناس فانتهز أحد مماليك بهاء الدولة البويهي ويسمى أبا الحارث أرسلان المعروف بالبساسيري تلك الفرصة ونازع الملك الرحيم السلطة، وتولى منصب أمير الأمراء، ولكن الحالة ازدادت تفاقمًا وحصلت الوحشة بين البساسيري والخليفة وقامت الفتنة بين السنية الشيعة، وسارت جماعة السنية وقصوا دار الخليفة وطلبوا أن يؤذن لهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، فأذن لهم وزاد شرهم ثم استأذنوا في نهب دور البساسيري وكان غائبًا في واسط، فأذن لهم الخليفة فنهبوها وأحرقوها، وأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم يأمره بأبعاد البساسيري عن منصبه فأبعده، وقدم الملك الرحيم إلى بغداد واستمرت الحالة في اضطراب وكان طغريل بك قد دخل العراق بقوات كبيرة فأرسل إليه الخليفة مستنجدًا مستغيثًا، وكانت أمنية طغريل بك أن يدخل بغداد، فأجاب طلب الخليفة وأظهر له العبودية والطاعة، ووعد الأتراك والقواد بالإحسان إليهم، وتقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغريل بك بجوامع بغداد، وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر المحرم سنة ٤٤٧هـ دخل طغريل بك بغداد، وقبض على آخر سلاطين بني بويه وهو الملك الرحيم وتولى إدارة الشئون في عاصمة الخلافة فسقطت الدولة البويهية وحلت محلها الدولة السلجوقية في النفوذ والسلطان.

الباب الحادي عشر

عصر نفوذ السلجوقيين

(٤٤٧-٥٧٥) هـ (١٠٥٥-١١٨٠) م

ملك طغريل بك بغداد وأخذ يعمل على التقرب من الخليفة بكل ما أتي من قوة حتى اكتسب رضاه، وتزوج الخليفة من أسرة السلجوقيين إظهار لرضائه وتقديرًا لخدمات تلك الأسرة، وتطلع أرطغريل بك أن يتزوج هم أيضًا من بنت الخليفة حتى تتم المصاهرة بين البيتين، وقد امتنع الخليفة في المبدأ عن إجابة طلب أرطغريل، ولكنه قبل المصاهرة بعد ذلك وجرى العقد في شعبان سنة ٤٥٥هـ، وسر السلطان أرطغريل بذلك سرورًا عظيمًا، وكان جند الأتراك والديلم قد عاثوا في بغداد فسادًا، فانتهر أرطغريل قيام تلك الفتن والاضطرابات وسجن الملك الرحيم وشرد جنده وأتباعه، فتفرقوا في البلاد وانضم معظمهم إلى البساسيري الذي قد فر إلى سوريا وانضم إلى الفاطميين في تلك الجهات، فازداد أمره وقوى نفوذه وتغلب على قوات السلجوقيين التي أرسلت لمحاربته، فخرج إليه أرطغريل بنفسه في سنة ٤٤٨هـ بعد أن أقام في بغداد ثلاثة عشر شهرًا، وانتصر على أعداء الدولة في نصيبين والموصل، ورجع ظافرًا إلى بغداد فاستقبله الخليفة استقبالًا حافلًا وخلع عليه الخلع وتوجه وقلده سيفًا وخاطبه بملك المشرق والمغرب.

دعوة البساسيري إلى بغداد

سار إبراهيم السلجوقي وهو أحد إخوة السلطان أرطغريل بك في جهات فارس، وخرج على أخيه وخشى أرطغريل نتائج الثورة فخرج إلى تأديب الثائر وتركم بغداد من غير حامية كافية تستطيع رد هجمات الطامعين فيها وكان البساسيري يترقب الفرصة للزحف عليها، فلما بلغه الخبر زحف على عاصمة الخلافة على رأس جيش كبير من

السوريين والمصريين وفي أوائل شهر ذي القعدة سنة ٤٥٠هـ استولى على بغداد وأعلن خلع الخليفة وأخذ البيعة على الناس من شيعة وأهل سنة للمستنصر الخليفة الفاطمي، وخرج القائم من بغداد وخرج البساسيري بعد ذلك واستولى على واسط والبصرة، وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل علي، وأرسل شعار الخلافة إلى الخليفة الفاطمي وأستقر له الأمر في العراق، وكان طغريل في تلك الأثناء يجد في مقاتلة الثائر وانتصر عليه بالقرب من الري وقبض عليه، ثم أمر به فخنق بوتر قوسه في تاسع جمادي الآخرة سنة ٤٥١هـ وأسرع بالعودة إلى بغداد ليعمل على استرداد الأمر فيها لآل العباس وإعادة القائم إلى عرش أبائه،وفي شهر ذي القعدة من السنة عينها دخل بغداد ظافرًا ونفى البساسيري منها بعد أن تفرق عنه أنصاره، وقبل أن ينتهي الشهر رجع القائم إلى العرش، وقلد طغريل سيفًا بيده ثم أرسل السلطان السلجوقي قوة تطارد البساسيري، ثم خرج إليه بنفسه وقابله وتغلب عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد، ثم سار طغريل إلى الري وفي سنة ٤٥٥هـ رجع إلى بغداد، وبعد أن مكث بها قليلًا عاد إلى الري وبهما توفى في شهر رمضان من تلك السنة، "وكان طغريل بك عقيمًا لم يرزق ولد واستقرت السلطنة بعده لأبن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق.

عهد ألب أرسلان

يصف ابن الأثير ألب أرسلان بأنه كان نبيلًا في أخلاقه، عالي الهمة بار بالرعية، صديقًا للفقراء والمعوزين. وفي عهده أغار الروم على أملاك الدولة العباسية وروعوا المسلمين باعتدآتهم المتكررة، وزحفوا على آسيا الصغرى في قوة كبيرة، وكانوا يرومون الاستيلاء على بغداد وإخضاع غرب آسيا إلى حكمهم، فخرج إليهم ألب أرسلان وتقابل الجيشان في مكان يسمى ملاذكرد، ويقع بين مدينتي فان وارضروم، وفي شهر ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ اقتتل الطرفان قتالًا عنيفًا، وانتهى بانتصار ألب أرسلان انتصارًا مبينًا، وأسر عاهل الروم مع كثير من أشراف دولته وحمل إلى خيمة ألب أرسلان، فعامله معاملة حسن، واتفق الطرفان على صلح كانت كل شروطه في جانب المسلمين. إذ تعهد عاهل

الروم بدفع جزية سنوية، ودفع مبلغًا كبيرًا من المال فدية لنفسه، ورجع العاهل إلى بلاده، ولكنه خلع قبل أن يصل إلى القسطنطينية واستراحت آسيا الصغرى وأرمينية من شر الروم مدة طويلة، وعهد ألب أرسلان بحكومتها إلى سليمان بن قتلمش بن إسرائيل السلجوقي، ولقد كان سليمان حاكمًا قادرًا فبسط نفوذه في تلك الجهات ووسع رقعة ملكه على حاب الروم، وظل هو وأتباعه يحكمون تلك الجهات حتى انتزعها منهم التتار.

استعان ألب أرسلان في إدارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وهو الذي بنى المدرسة النظامية ببغداد في سنة ٤٥٨هـ، ودرس فيها شيخ الشافعية ببغداد وهو الشيخ أوب إسحاق الشيرازي، وفي عهده بني ضريح لأبي حنيفة ومدرسة لأصحاب مذهبه، وفي شهر ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ ألب أرسلان فخلفه ابنه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه، وفي عهده توفى القائم بأمر الله في ١٣ شعبان سنة ٤٦٧هـ وخلفه حفيده المقتدي بأمر الله.

خلافة المقتدي بأمر الله (٤٦٧ – ٤٨٧) هـ (١٠٧٥ – ١٠٩٤)م

كان المقتدي بأمر الله من خير خلفاء الدولة العباسية، وكان قوي النفس عظيم الهمة تقيا محبًا للفضائل، فأصلح كثير من الأحوال الأدبية ببغداد وأمر بنفي المعنيات والمفسدات منها، وقد قام بأمور الدولة في عهده السلطان السلجوقي ملكشاه، وكامن مقدامًا صائب الرأي أتصف بالعدل والشجاعة، وفي عهده استقرت الأمور، وعلا شأن المسلمين في آسيا شرقًا وغربًا، وضرب على أيدي الثائرين والخارجين، وأخضع الروم وفرض عليهم الجوية، وقد أبقى في خدمته وزير أبيه نظام الملك، وكان من أكابر العلماء تقيًا فاضلًا محبًا للعلم وذويه، وقد لقبه ملكشاه بلقب أتابك، ويصفه سيد أمير علي بأنه كان أكبر وزير أنجبته آسيا بعد يحيي البرمكي، إذ بفضل سهره وحزمه ساد المن البلاد وعمل على تحسين الحالة المالية في الدولة فأسقط كثيرًا من المكوس والضرائب، وأمر بأبطال لعن الأشعرية على المنابر، وفي عصره الزاهر عاش الإمام الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، وبهما ازدانت مدينة طوس واختالت على ماسواها من بلاد فرس، وبفضل

إدارته الموفقة اتسع نفوذ ملكشاه فخطب له من حدود الصين شرقًا إلى آخر بلاد الشام غربًا، وعم البلاد الرخاء وأينعت التجارة والصناعة، وتقدمت الفنون والآداب، وازدانت المدن بالمدارس والكليات والمستشفيات، وعمرت الطرق وشقت القنوات ونشطت الزراعة. وفي عهده أصلح التقويم وعهد إلى لجنة من أكابر العلماء على رأسها الشاعر الكبير عمر الخيام لتقوم بضبط التواريخ وابتداء السنين وفي أيامه انتصر سليمان السلجوقي على الروم انتصارات موفقه، واسترد أنطاكية في سنة ٤٦٧هـ.

وفي عهده انتشر الدعاة من الباطنية في بلاد المشرق وكان هؤلاء الدعاة يدعون الناس للانتقاض على الخلافة العباسية والدخول في طاعة الفاطميين، ولقد كانوا دعاة ماهرين، وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعي الدعاة، ودرجته تلي درجة قاضي القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر، ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظامًا مسنونًا، وقد انتشروا بالبلاد الفارسية يدعون للشيعة من العلويين، وأهمل أمرهم ملكشاه فازداد عددهم ولقيت دعوتهم أذنًا صاغية وتبعهم خلق كثير، ولما أراد نظام الملك مطاردتهم ولقيت دعوتهم أذنًا صاغية وتبعهم خلق كثير، ولما أراد نظام الملك مطاردتهم أمروا واحد منهم فقتله غيلة. وقد اشتهر من هؤلاء الدعاة أحمد بن عبد الملك بن عطاش وكان رئيسهم الأول، ثم جاء الرئيس الثاني وهو الحسن بن الصباح وإليه يرجع الفضل في نشر مذهب الباطنية في مدينة مرو وما جاورها، وقد تحصن بمكان يعرف بقلعة الموت، وكثر عدد مريديه وأنصاره، فسير عليه نظام الملك الجيوش ولكن الصباح نجا من الأسر بموت نظام الملك ويقال أنه هو الذي أوعز لأحد أفراد الفرقة الباطنية بقتله فقتله سنة ٤٨٥هـ.

مات ملكشاه بعد موت وزيره في شهر شوال سنة ٤٨٥هـ، وبموته سقطت عظمة دولة آلا سلجوق، وانفرط عقد نظامها ووقعت الفتن والدسائس بين أفراد أسرتها، فكانت تلك الفتن والدسائس من الأسباب الرئيسية التي عجلت بسقوطها، وقد تنازع ؟أولاده أمور السلطنة، وكانوا أربعة بنين وهم بركياروق وحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود

أصغر الأولاد ولكن والدته ساعدته وطلبت من الخليفة أن يوليه أمر السلطنة فأجاب طلبها، وتعين الطفل وتلقب بناصر الدنيا والدين، ولكن جنود أبيه رفضوا الاعتراف به وساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على تولي الأمور، وطلبوا إلى الخليفة أن يعترف به، فاعترف به ولقبه ركن الدين، ولكن الأمور لم تستقر بل قامت الحروب الأهلية بين الأخوة، وانتهز الباطنيون الفرصة واستولوا على الأماكن الحصينة في الأقاليم الجبلية الواقعة في شمال الفرس والعراق وسوريا، وفي وسط هذه الحوادث مات الخليفة فجأة في شهر المحرم سنة ٤٨٧هـ، فخلفه في الخليفة ابنه أبو العباس أحمد المستظهر بالله.

خلافة المستظهر بالله (٤٨٧ – ٥١٢) هـ (١٠٩٤ – ١١١٨)م

كان المستظهر بالله من خيار بني العباس، وكان متصفًا بكرم الخلاق ولين الجانب والميل إلى أعمال البر، وكان حسن الخط جيد التوقيعات، وكان شاعرًا رقيق الشعر، وقد جلس على عرش الدولة نحو أربعة وعشرين عامًا، وفي أثنائها حدثت حوادث خطيرة الشأن في المملكة الإسلامية في الشرق والغرب، فاضطربت أمر الشرق بانحلال سلطان السلجوقيين وتفرق كلمة أمرائهم وسلاطينهم، واضطرب أمر الغرب بقيام الحروب الصليبية التي أثارها المسيحيون بزعامة البابا لانتزاع بيت المقدس وما حوله من الأملاك في فلسطين وسورية. من أيدي المسلمين. وفي سنة ٤٩٢هـ، تمكن هؤلاء الصليبيين من الاستيلاء على أورشليم ودخلوا في منتاف يوليه سنة ١٠٩٩م، المسجد الأقصى ونهبوا ما فيه من الآثار النبوية: واعتدوا على الأموال والأعراض، وارتكبوا من الفظائع ما أثار غضب المسلمين في أنحاء المعمورة، وثار أهل بغداد يطلبون من الخليفة إعلان الجهاد والنهوض لاسترجاع بيت المقدس، ولكن الخليفة كان ضعيفًا لا يملك القوة المادية التي يستطيع بها أن يحارب المسيحيين. وكان سلاطين السلجوقيين لأهين بحروبهم الداخلية والثورات الأهلية فساءت الأحوال واضطربت الشئون السياسية والمدنية.

حال الدولة السلجوقية في عهده

قضى النظام الإقطاعي على عظم الدولة السلجوقية كما قضى على عظمة

الكرولنجيان في فرنسا، إذ انتهز أمراء الإقطاعيات اضطراب أمور البيت المالك بعد موت ملكشاه، وأثاروا الحروب والقلاقل في أنحاء تلك الدولة الشاسعة الأطراف فأضعفوها وقضوا على عظمتها، وقامت الحروب بين السلطان بركياروق وعمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان مؤسس الدولة السلجوقية في سورية، ولما مات تتش لم يفرغ بركياروق من الحرب بل اشتغل بإخماد الثورات التي قام بها أخوه مُحَمَّد، واشتد القتال بين الأخوين وعبثًا حاول الخليفة الإصلاح بينهما، فساءت الأحوال وهرع الناس إلى بغداد يستنجدون الخليفة فلم يستطيع العمل على تحسين الحال، واستمرت الحرب قائمة حتى مات بركياروق في سنة ٤٩٨هـ،، وخلفه في زعامة الدولة السلجوقية مُحَمَّد، وزحف على بغداد وداخلها وخطب له بالسلطنة، ثم عاد إلى دست ملكة، بأصفهان، ولكن الأحوال ازدادت تحرجًا واستمرت القلاقل في أنحاء الدولة بين أمراء السلجوقيين، وكانت أحوال الدولة الفاطمية بمصر قد ساءت أيضًا بسبب تنافس الوزراء وضعف الخلفاء فاستطاع الصليبيون أن يوطدوا ملكهم بفلسطين وسورية، وانتصروا على السلجوقيين انتصارات باهرة، وذبحوا المسلمين في تلك الأصقاع ذبحًا مريعًا، وسقطت المدن في أيديهم الواحدة بعد الأخرى. وأخيرًا مات السلطان مُحَمَّد السلجوقي في سنة ٥١١هـ، ومات الخليفة المستظهر بالله بعده بقليل في أوائل سنة ٥١٢هـ، فخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو منصور الفضل المسترشد بالله.

خلافة المسترشد بالله (٥١٢ – ٥٢٩) هـ (١١١٨ – ١١٣٥)م

ظل النزاع قائمًا بين أفراد الدولة السلجوقية في عهد المسترشد بالله وصار سلطان العراق إلى زعيم الأسرة السلجوقية السلطان سنجر ابن ملكشاه، وكان ملكًا على خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنة وخوارزم، وقد نازعه في إدارته ابن أخيه محمود، ولكنه تغلب عليه بعد معارك شديدة قامت بين الاثنين، وأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل، وكان محمود زوجًا لابنه عمه سنجر، ولذلك تعين واليًا للعهد بعده ولما مات سنجر صار الأمر إلى السلطان محمود بن مُحَمَّد، وقد أراد الخليفة أن

يسترد شيئًا من نفوذ الخلفاء العباسيين السابقين، وشمر عن ساعد الجد وخرج بنفسه لتأديب العصاة والثائرين، وتغلب بفضل أقدامه وشجاعته على أكبر الثوار في العراق وهو دبيس بن صدقة ملك الحلة، وطرده من العراق، فهرب دبيس وأنضم إلى صفوف الصليبيين ضد المسلمين، ولما قوى نفوذ الخليفة عمل على الخلاص من السلجوقيين، ولكن السلطان محمود أسرع بالزحف على العراق، وقاومه الخليفة وحصلت مناوشات بين الطرفين ثم تصالحا، وأذن الخليفة للسلطان محمود بالدخول إلى بغداد فدخلها في أوائل سنة ٥٢١هـ، وأقام بها حتى أوائل ربيع الآخر، وحمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة، ثم خرج من بغداد وقصد خراسان وحارب الحسن بن الصباح وانتزع منه قلعة الموت في سنة ٥٢٤هـ/ ومالت السلطان بعد ذلك بسنة، فخلفه في زعامة السلجوقيين السلطان مسعود بن مُحَمَّد بن ملكشاه، وقامت بينه وبين سنجر الزعيم السابق حروب انتهت بانتصار مسعود واستقرار الأمر له، وقد انتهز الخليفة فرصة القتال الدائر بين الأمراء السلجوقيين واسترد كل ما له من نفوذ معنوي ومادي، وخرج لقتال مسعود ولكنه غلب على أمره، وأسره مسعود وجعله في خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته، إلا أنه قتل وهو بالخيمة ويقال أن أحد الباطنية هجم عليه ليلًا وقتله سنة ٥٢٩هـ.

عماد الدين زنكي

في خلافة المسترشد وسلطنة محمود السلجوقي ظهر بطل من أبطال المسلمين في الحروب الصليبية وهو عماد الدين زنكي فإنه أبلى بلاء حسنًا في الحروب الصليبية وإليه شيئًا من نشأته وسيرته:

كان إق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي وكان شجاعًا مقداما فترقى في خدمة ملكشاه حتى أصبح من القواد المعدودين في الدولة وقد استولى على حلب وانتزعها من أيدي أعداء الدولة السلجوقية فولاه السلطان عليها وظل بها حتى مات ملكشاه، فالتحق إق سنقر بخدمة بركياروق ثم قتل في إحدى المعارك، وترك ابنًا يسمى زنكي وكان في الرابعة عشرة من عمره، فخلف أباه في جاهه ونفوذه، ونشأ في

كنف الدولة السلجوقية، وفي سنة ٥١٦هـ عينه السلطان محمود واليًا على واسط ثم ضم إليه حكم البصرة، وكان زنكي قائدًا كبيرًا ومديرًا حازمًا، فازداد نفوذه واشتهر أمره، فولاه السلطان محمود مدينة الموصل وحكم شمال بلاد الجزيرة في سنة ٥٢١هـ، وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليقوم بأمر تربيته، وبذلك أسس عماد الدين زنكي أتابكية الموصل.

وقد شمر عماد الدين عن ساعد الجد، وحارب الصليبيين في سورية واسترد منهم البلاد الواحدة تلو الأخرى بعد معارك شديدة دموية حتى اشتهر اسمه بين الأمراء الصليبيين وأرهبهم ببسالته وأقدامه، وإليه يرجع الفضل في أعلاء كلمة المسلمين في تلك الأزمنة، واستمر يحارب المسيحيين حتى قتل في سنة ٥٤١ – ١١٤٦م وقد ترك عماد الدين أربعة أولاد اشتهر منهم اثنان وهما: سيف الين الغازي وتولى أتابكية الموصل، ونوزر الدين محمود وتولى أمارة حلب.

وكان نور الدين محمود بن زنكي بطلًا أيضًا من أبطال المسلمين في الحروب الصليبية وعلى يديه سقطت الدولة الفاطمية في مصر، فأنه أرسل إليها قائده شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي وقد سبق أن عرفنا أسباب سقوط الدولة الفاطمية وكيفية تأسيس الدولة الأيوبية.

خلافة الراشد بالله (٥٢٩ – ٥٣٠هـ)

تولى الخلافة بعد أبيه ومكث خليفة أقل من سنة، وكان مقدامًا أراد أن يثأر لأبيه من سلطان السلجوقيين، فاتفق مع كثير من الأمراء وخلع مسعودًا عن السلطنة، فأسرع مسعود وزحف على بغداد وحاصرها ودخل المدينة، وتفرق أصحاب الخليفة عنه خوفًا من سطوة السلجوقيين، وخرج الراشد فارا مع عماد الدين زنكي إلى بلاد الموصل، وجمع مسعود القضاة والشهود والفقهاء وعرض عليهم اليمين التي حلفها الراشد له وكانت اليمين بخطه، فافتى الحاضرون بخلعه فخلع، واختار السلطان مسعود عم الراشد خليفة وبايع له هو ومن معه في شهر ذي الحجة سنة ٥٣٠هـ.

خلافة المقتفى لأمر الله (٥٣٠ – ٥٥٥هـ) (١١٣٦ – ١١٦٠م)

اعتلى عرش الخلافة أبو عبد الله الحسين بن المستظهر وتلقب بالمقتفى لأمر الله وقد ظل خليفة نحو خمس وعشرين سنة، وفي أثناء حكمه الطويل استمر الخلاف قائمًا بين أفراد البيت الممالك من السلجوقيين، فانتهز الخليفة تلك الفرصة وبسط نفوذه السياسي على بلاد العراق لا يشركه في حكمه أحد من السلجوقيين، وقد اتصف المقتفى بالشجاعة والأقدام، وقد تولى أمر الحروب بنفسه، "وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء، وكان حليمًا كريمًا عادلًا حسن السيرة، من الرجال ذوي الرأي والعقل الكثير".

خلاف المستنجد بالله والمستضيء بالله (٥٥٥ – ٥٧٥هـ)

أعتلى عرش الخلافة المستنجد بالله بعد وفاة أبيه واستمر خليفة إلى أن مات في ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ، ولقد كان خليفة قادرًا وظل نفوذه على العراق باقيًا كما كان في عهد أبيه، ثم خلفه في أمر الخلافة أبنه المستضيء بالله وفي عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية.

ووصفه الخضري بك بقوله: "وكان عادلًا حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال، وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل، وطمأنينة وسكون لم يروا مثله".

انقرضت الدولة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ، وأسس صلاح الدين الأيوبي للدولة الأيوبية التي انتصرت على الصليبيين والسلجوقيين وأعاد صلاح الدين مصر وتوابعها وسورية إلى حظيرة الدولة العباسية من الوجهة الدينية وخطب للخليفة العباسي على منابرها.

خلافة الناصر لدين الله وولده وحفيده (٥٧٥ – ٦٤٠هـ) (١١٨٠ – ١٢٤٢م)

تولى أبو العباس أحمد بن المستضيء عرش الخلافة بعد وفاة أبيه وتلقب بالناصر لدين الله وحكم الدولة العباسية نحو سبع وأربعين سنة فكان حكمه أطول حكم بين الخلفاء العباسيين.

وقد اتصف بالنبل والأقدام واستردت الخلافة في عهده كثيرًا من مقامها السالف، واشتهر بالجماعة والكرم، وقوى جيشه وبسط نفوذه على العراق والجزيرة، وبذل جهد طاقته للقضاء على نفوذ السلجوقيين فشجع الفتن والقلاقل بين أفراد تلك الأسرة وأمرائها حتى يضيعوا بعضهم البعض، فيستطيع أن يكتسب من ضعفهم قوة واستعان بشاهات خوارزم حتى يصل إلى غايته ويقيم على أنقاض ملكهم ملكًا شاسعًا، ولكنه أساء التقدس إذا استغاث لدولة فتية لها أطماع في الخلافة للقضاء على نفوذ دولة كانت قد دخلت في طور انحلالها ودور سقوطها فكأنه قد استجار من الرمضاء بالنار، وإليك كلمة عن بدء قيام شاهات خوارزم وعلاقتهم بالخليفة.

شاهات خوارزم

منح السلطان ملكشاه السلجوقي أحد أفراد حاشيته وكان يسمى أنوشتكين ولاية خوارزم مكافأة له في نظير جده وإخلاصه، وكان أنوشتكين رجلًا مقدامًا، فعلًا شأنه وعظم أمره، وخلفه ابنه مُحَمَّد في تلك المقاطعة، وكان قد تربى تربية حسنة فأدار البلاد باسم السلجوقيين إدارة موفقة، فسر به السلطان سنجر السلجوقي سلطان خراسان، وثبت مركزه في خوارزم ولقبه خوارزم شاه، واستمر قطب الدين مُحَمَّد يحكم تلك البلاد حكمًا صالحًا حتى توفي في سنة ٥٢١هـ، فخلفه ؟؟؟ وكان واليًا قديرًا وعمل على الاستقلال ببلاده، ولما مات في سنة ٥٥١هـ، خلفه ابنه أرسلان فسار على نهج أبيه فارتفع شأن تلك الأسرة، وبسطت نفوذها على ما جاورها من البلدان، وأصبحت صاحبة النفوذ في العراق العجمي، وفي عهد علاء الدين مُحَمَّد بن تكش حفيد أرسلان زال ملك السلجوقيين من خراسان وقتل طغريل آخر سلاطينهم في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ، وأرسل رأسه إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد فنصب بباب النوبي عدة أيام، وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها، وأصبح الحاكم المعترف بنفوذه في بلاد المشرق، وسر الخليفة بذلك سرورًا عظيمًا وأرسل الخلع والهدايا إلى خوارزم شاه.

العلاقة بين الخليفة وشاهات خوارزم

لم تطل مدة الصفاء بين الخليفة وخوارزم شاه غذ طمع الخليفة في البلاد التي فتحها علاء الدين، وأرسل إليها جندًا فاستولت عليها بعد رحيل علاء الدين عنها، فغضب علاء الدين ورجع إلى تلك البلاد، وحارب جند الخليفة وانتزع البلاد منهم، وفي سنة ٥٩٦هـ مات علاء الدين وخلفه ابنه قطب الدين وزاد ملكه اتساعًا، وقد أراد أن يكون له من النفوذ والسلطان في بغداد ما كان لسلاطين السلجوقيين من قبل، ولكن الناصر لدين الله أبى ما طلب الخوارزمي، فاشتدت العداوة بينهما وخطا خوارزم شاه مُحَمَّد خطوة جريئة، وجمع مجلسًا من العلماء وفقهاء الدين وحصل منهم على فتوى بخلع الخليفة العباسي، وأقام مكانه خليفة من العلويين، وخطب له على منابر خوارزم وخراسان، ونقش اسمع على النقود المتداولة في بلاد المشرق، ثم زحف بعسكر جرار على بلاد العراق طالبًا بغداد لإخراج الناصر منها، فذعر الخليفة وأرسل إليه الرسل يطلب الصلح فلم يقبل الشاه ورد الرسل خائبين، ويقول بعض المؤرخين إن الخليفة لم يربدا من الالتجاء إلى جنكيز خان عظيم المغول يطلب منه المعونة حتى يتغلب على منافسه العنيد، ولطن الحظ خدم الناصر إذ ذاك، وذلك برجوع شاه خوارزم إلى بلاده بسبب صعوبة الاستمرار في الزحف على بغداد لتساقط الأمطار والثلوج وكان الفصل شتاء.

ارتكب الناصر خطأ جسيمًا بالالتجاء إلى المغول، فقد أطمعهم في بلاد الدولة العباسية، ودلهم على مواطن ضعفها، إذ انتهزوا تلك الفرصة العظيمة وحولوا تيار فتوحهم نحو الغرب وأغاروا على أطراف الدولة، وحاربوا شاه خوارزم، فقضوا على سلطانه وعلى سلطان غيره من أمراء المسلمين في بلاد الجزيرة والموصل وآسيا الصغرى، ثم نزلوا على العراق ودخلوا بغداد بعد ذلك وقضوا على الخلافة العباسية في عهدها.

توفي الناصر لدين الله في آخر رمضان سنة ٦٢٢هـ، وخلفه على عرش الخلافة ابنه أبو نصر مُحَمَّد الطاهر بأمر الله، وكانت خلافته تسعة أشهر وبضعة أيام، وكان عادلًا ومحسنًا حتى وصفه ابن الأثير بأن لم يل الخلافة بعد عمر ابن عبد العزيز مثله، وأعاد من

الأموال المغضوبة في أيام أبيه وقبله شيئًا كثيرًا وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق.

تولى أمر الخلافة بعد وفاته ابنه أبو عفر المنصور وتلقب المستنصر بالله في منتصف شهر رجب في سنة ٦٢٣هـ، وقضى في الخلافة نحو سبعة عشر عامًا، وكان جوادًا كريمًا وله آثار جليلة في بغداد. "منها وهي أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة، وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة".

وفي أثناء حكمه الطويل اشتد نفوذ المغول في بلاد الدولة العباسية وأواسط آسيا، واكتسحوا بجموعهم كل ما قابلهم من المدن والبلدان، وأعملوا السيف والنار في كل ما امتلكوه، وبعد وفاته خلفه ابنه المستعصم بالله.

المستعصم آخر خلفاء العباسيين بالمشرق (٦٤٠ – ٦٥٦) هـ (١٢٤٢ – ١٢٥٨)هـ

أعتلى أبو أحمد عبد الله الملقب بالمستعصم بالله عرش أبائه وأجداده بعد وفاة أبيه في عاشر جمادي الآخرة سنة ٦٤٠هـ وظل قائمًا بأمور الدولة حتى أغار المغول على أملاكها، ودخلوا بغداد واستولى عليها، وقبضوا على الخليفة في ٢٠المحرم سنة ٦٥٦هـ، وفي منتصف شهر صفر من السنة عينها رحل هولا كوخان عظيم المغول عن بغداد واستصحب معه الخليفة، "وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان، وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلوا ذي، وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد، بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة، واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار".

قيام دولة المغول

المغول والتتر شعبان من الشعوب التركية القديمة التي يرجع نسبها إلى أصل واحد، وكانت تسكن أواسط آسيا وتعيش عيشة بدوية تنتقل من مكان إلى مكان وراء الكلأ والمرعى، فتتجه نحو الشمال عندما تذوب الثلوج وتنكشف الأرض ويظهر فيها الكلأ ثم

تنحدر نحو الجنوب في فصل الشتاء عندما تغطي الثلوج تلك الأصقاع مرة أخرى، وقد اشتهر أفرادها بالشجاعة والأقدام، وركوب متن الأخطار، وشبوا رجال حرب وجلد وكفاح، وقد عاش الشعبان على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بينهما في عهد إيلخان ملك المغول وسونج خان ملك التتر، ودارت رحى الحرب بينهما، واستمرت طويلًا وكانت سجالًا، ثم انتصر المغول على أبناء عمهم وساءوا أواسط آسيا، وفي أثناء القرن الثاني عشر الميلادي خضع المغول إلى سلطان الصينيين، وظلوا كذلك حتى ظهر زعيم منهم وهو جنكيزخان فجمع شملهم ونظم جموعهم، وكثر أنصاره فبسط نفوذه على الشرق والغرب وأصبح من أشهر قواد التاريخ وأعظم الفاتحين.

وُلِدَ جنكيزخان وكان اسمه تموجين في ٥٤٩هـ - ١١٥٥م، ولما كبر علا شأنه وانتخبه بنو جنسه خانا عليهم في سنة ١١٨٩م وفي سنة ١٢١٤م زحف على مملكة الصين، واستولى على مدينة بكين عاصمة تلك المملكة العظيمة وحارب أهل الصين حربًا عوانًا وانتصر عليهم، وخضعت الصين بأجمعها له في سنة ١٢١٩م وقد بذل جنكيز خان همة كبيرة في تنظيم بني جنسه من الوجهة الاجتماعية وسن لهم قانونًا يكون لهم دينا يسيرون على مقتضاه وهو اليساق أو الياسة يرجعون إليه في معاملاتهم وأحكامهم كما يرجع المسلمون إلى قرآنهم.

علاقة جنكيزخان بالبلاد الإسلامية

كانت الدولة الخوارزمية في زمن جنكيزخان دولة شاسعة الأطراف تبسط نفوذها على بلاد التركستان وفارس وعلى شمال الهند، وكانت تمتد شرقًا حتى مدينة كشجار، وكانت أملاك شاه خوارزم تتصل بأملاك عاهل المغول، فوجدت علاقة بين العاهات الأسيويين، وكانت النتيجة الطبيعية أن تتعارض مصالح تلك القوتين في الأقاليم التي تسيطر عليها، فتقوم الحرب بينهما، ويقال أن جنكيز خان أرسل بعثة تجارية إلى شاه خوارزم في سنة ٦١٢هـ استقبلها الشاه استقبالًا حافلًا ورجع أفرادها مسرورين إلى ملكهم وبقيت العلاقة طيبة بينهما حتى سنة ٦٥١هـ (١٢١٨م) وفي تلك السنة أساء

أحد ولاة خوارزم شاه تجارًا من رعايا جنكيزخان وسلبهم أموالهم ومتاعهم، فغضب الفاتح المغولي وأرسل إلى الشاه يطلب معاقبة الوالي المسيء، فقتل الخوارزمي رسول جنكيز خان متخطيًا بذلك اللياقة الدولية، ولما علم جنكيزخان الخبر خرج لمقاتلة الخوارزمي على رأس جيش بلغ عدده نحو ألف ألف مقاتل، وزحف نحو فرغانة، وكانت أقاليم الدولة الخوارزمية إذ ذاك زاهرة تتمتع بالرخاء المادي والأدبي، وكانت المدن غنية عامرة بسكانها، وبلغ عدد السكان في كل من هيرات وبلخ نحو المليون من الأنفس وكانت بخاري وسمرقند آهلة أيضًا بالسكان.

زحف الفاتح المغولي وعبر نهر سيحون واقترب من بخاري فهجرها أهلها خوفًا من العدو، فدخلها جنكيزخان سنة ٦١٦ هـ وخربها وأحرق دورها ومساجدها وقتل أهلها، ثم سار نحو سمرقند وكانت قصبة ما وراء النهر ومركزً للعلم والأدب فدخلها في يونيه سنة ٦١٧هـ (١٢١٩م). بعد أن تغلب على قوات خوارز مشاه وقتل من فيها ودمرها تدميرًا، فذعرت باقي المدن وفتحت أبوابها للفاتح، فكان يدخلها هو وجنده ويعمل السيف في أهلها، وفي شهر إبريل سنة ١٢٢١م دخل نيسابور وخربها، ثم استولى على هيرات والري وهمذان ودمرها تدميرًا، ثم زحف المغول على بلاد العراق وكان جنكيزخان في أثناء تلك الحروب الشعواء مقيمًا في سمرقند وأرسل رسالة تطارد مُحَمَّد شاه خوارزم، فطاردته من بلد إلى بلد وكان يفر أمام تلك الجموع الهائلة حتى وصل على جزيرة في بحر الخزر وفيها مات مكسور الخاطر والجناح في سنة ٦١٧ هـ ١٢٢٠م.

انتشرت جموع المغول بعد ذلك في الأقاليم والأقطار الإسلامية تخرب كل ما قابلها وتقتل النساء والأطفال وقضت على الحركة العلمية والأدبية في أواسط آسيا، وقد ظل جنكيزخان ماضيًا في خطته حتى ضجت البلاد، ثم عاد إلى مقر حكومته حيث مات في سنة ٦٢٤هـ في خلافة المستنصر بالله وقد انقسمت أسرته بعد موته إلى أربعة بيوت، فسارت على ما رسمه لها الفاتح، حتى أخضعت بلاد المسلمين في آسيا وجزءًا كبيرًا من أوروبا، وقد آل ملك خراسان إلى تولي خان أحد أبناء جنكيزخان، وخلفه في ملكه بعد

وفاته في سنة ٦٥٤هـ ابنه هولاكوخان وهو الذي زحف على العراق ودخل بغداد قضى على الخلافة العباسية في المشرق.

المستعصم بالله وهولا كوخان

اختلف المؤرخون في ذكر الأسباب المباشرة التي أدت إلى زحف هولاكو على العراق وبغداد، ولكن قال أكثرهم إن سبب ذلك قيام فتنة دينية في بغداد في عهد المستعصم بين أهل السنة والشيعة، وقامت الحرب بين أنصار المذهبين، وتغلب أهل السنة لكثرة عددهم، فلجأ مؤيد الدين محمود بن العلقمي وزير المستعصم وكان من أهل الشيعة إلى هولاكو، وكتب إليه يطلب النجدة ويحرضه على المسير إلى بغداد ، فانتهز هولاكو تلك الفرصة، وزحف بمجموعه ودخلها وقتل معظم أهلها، وفعل بها المغول مثل ما فعلوا بباقي المدن في أواسط آسيا في عصر جنكيزخان، وقتل المستعصم على الصورة التي سبق أن ذكرنا خبرها.

يقول سيد أمير علي: "لم يفلت من يد المغول إلا نفر قليل من نسل بني العباسي، وأما بغداد مهد الحضارة ومقر العلم والنور وعين العالم الإسلامي وقلبه ، فقد دمرها المغول تدميرًا ولم يبق من سكانها الذين بلغوا يومًا من الأيام نحو مليونين من الأنفس إلا نصف مليون، واستمرت المذبحة قائمة بين جدرانها وفي وسط شوارعها نحو ستة أسابيع، وبتدميرها خيم الظلام على ربوع آسيا الغربية".

ويقول ابن الأثير: "كانت غارة التتر على العالم الإسلامي من أروع النكبات التي حلت بالعالم بصفة عامة وبالعالم الإسلامي بصفة خاصة، ولم يرو التاريخ نكبة تماثلها".

الخلفاء العباسيون بعد سقوط دولتهم

زحف المغول بعد أن دمروا بغداد على بلاد الجزيرة، واعملوا السيف في السكان في كل من مدن حران ونصيبين، وقتلوا من أهل حلب نحو الخمسين ألفًا، وباعوا من نسائها وأطفالها في أسواق الرقيق نحو العشر آلاف، ثم رجعوا نحو الغرب وفتحوا المدن والأقاليم منتهزين فرصة الخلاف بين أمراء المسلمين. وفي شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ

١٢٩٠م زحفوا على فلسطين وفي مكان ما يعرف بعين جالوت وهي بلدة قريبة من الناصرة قابلهم السلطان الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك بمصر وأوقف زحفهم وتغلب على جموعهم وأجلاهم عن سورية والجزيرة. وفي تلك الأثناء كان العالم الإسلامي لا يجد رئيسًا روحانيًا يخضع لنفوذه. فرأى الظاهر بيبرس أن يدعو أحد أفراد الأسرة العباسية من الذين نجوا من شر المغول إلى القاهرة.

يقول موير: "وكان غرض بيبرس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحفاد نظرائه سابقًا من المماليك، وكذلك خوفًا من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية فظن أنه لو نصب خليفة من السنين فأنه يقضي على مثل هذه الدسيسة، ويجعل حكمه في مصر شرعيًا، لذلك لما سمع أن أحد العباسيين أخطأته مذبحة المغول، جد في استحضاره من سورية إلى مصر في موكب حافل، ولما اقترب العباسي من البلاد خرج السلطان وحاشيته في موكب لمقابلته وقد تبع السلطان في موكبه اليهود والنصارى رافعين على أيديهم التوراة والإنجيل. بويع للعباسي بالخلافة وأقسم له بيبرس ورجال حكومته على الطاعة، أما الخليفة (المستنصر بالله) فإنه قلد بيبرس سلطنة البلاد وعند صلاة الجمعة بعد قراءة ما تيسر من القرآن والخطب والصلاة على النبي ﷺ والدعاء له ولآل عباس دعا الخليفة للسلطان بدوام العز وبعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة جميلة على النيل وأقيمت بالبستان الكبير خارج القاهرة حيث خلع الخليفة على السلطان الخلع "وهي جبة سوداء وعمامة بنفسجية وطوق من ذهب وقلد سيفًا عربيًا". ثم أهداه تقليد المملكة بعد أن قرأه عليه وفيه يحض الخليفة السلطان بإسهاب على واجبة نحو الحرب زودًا عن الدين، وما أثقل به عاتقه من المسئولية، وبعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحًا وحبورًا، ثم سار الموكب في طريقة المفروشة بالبسط إلى القلعة، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متن الجياد،وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرًا لا يحيط به الوصف".

خرج بيبرس ومعه الخليفة بعد ذلك إلى بغداد ليعيد الخليفة إلى عرش أبائه، غير أنه

عدل عن عزمه وترك الخليفة في الطريق فقابله المغول وفتكوا به وقتلوه، ثم ولى بيبرس أحد سلائل العباسين الخلافة سنة ١٢٦٣م ومع أن هذت الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته فإن بيبرس أخذ لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التي كان يتمتع به سلفه، فجعله شخصًا عاديًا مراقبًا سجينًا في القلعة، وقد بقى الخلفاء طوال حكم دولة المماليك وليس لهم من الخلافة إلا اسمها، وإن كان ذلك لا ينطبق على حكم كل سلاطينهم، والواقع أن الخليفة كان يؤتي به في المواقف الرسمية الهامة ليتمم الحاشية وكذلك كان يؤتي به عند تولية سلطان جديد بصفته الرئيس الدين للمسلمين ليعترف بلقب السلطان وهذا كل ما كان له من الأمر".

قامت الدولة العثمانية بعد ذلك وقضت على حكم المماليك في مصر في زمن السلطان قانصوه الغوري ودخل السلطان سليم الأول القاهرة سنة ١٥١٧م وشنق طومانباي الذي خلف قانصوه الغوري على عرش مصر وبقى السلطان سليمان في هذه الديار نحو ثانية شهور ثم عاد إلى القسطنطينية وحمل معه كثيرًا من العمال المصريين والخليفة العباسي المتوكل ويقال إن المتوكل تنازل عن حقوقه في الخلافة إلى السلطان سليم في سنة ٩٢٦هـ ١٥٢٠م وأصبح سلطان الأتراك يلقب من ذلك العهد بلقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين واعترف العالم السني باللقب وانتهى أمر العباسيين.

الباب الثاني عشر

حضارة الدولة العباسية وأسباب سقوطها

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وظلت قائمة حتى سقطت في سنة ٦٥٦هـ، على يد هولابوخان الفاتح المغولي العظيم، فكأنها استمرت في الحكم ٥٢٤ سنة، وجلس على عرشها في أثناء تلك المدة الطويلة سبعة وثلاثون خليفة، وكان لخلفائها في أثناء القرن الأول من حكمها الكلمة العليا والسيادة التامة على العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، يأتمر الناس بأمرهم ولا يجسر أحمد مهما علت منزلته وكبر شأنه أن يرد لهم قولًا أو يقف في وجه جنودهم، وبلغت بغداد عاصمة الدولة مبلغًا عظيمًا من الحضارة والعمران لم تبلغه مدينة غيرها في عصور التاريخ المختلفة، فكانت زهرة المشرق وجنة الدنيا، وشيدت فيها القصور الكثيرة حتى سميت مدينة القصور وكانت في غاية الفخامة والزخرفة، ولعب الذوق الفارسي في تنسيقها دورًا مهمًا، وغرست في أنحاء المدينة البساتين الفيحاء والحدائق الغناء، وكان بها الميادين الواسعة اشتهر منها الميدان المربع وكان ميدانًا فسيحًا أمام قصر الخليفة حيث كانت تستعرض الجند، وتقام المباريات الرياضية وسباق الخيل، وقد وضعت فيه المصابيح للإنارة ليلًا، وازدحمت المدينة بالمساجد الكبيرة التي شيدت في بناء فخم على شكل هندسي جميل وزينت جدرانها بالزخارف البديعة والنقوش الزاهية الجميلة، ولقد فاقت بغداد غيرها من مدت العالم في عصرها بما حوته من أسباب المدينة الزاهرة، إذ امتلأت بالمدارس والكليات التي كانت مهدا للعلوم والفنون، وأقيمت بها دور الشفاء (المستشفيات) والملاجئ بعضها خاص بالرجال وجعلت الأخرى للنساء، وقد أديرت تلك الكليات والمستشفيات والملاجئ على أفضل الأساليب الإدارية الحديثة وهرع الناس من جميع أنحاء الدولة إلى دار السلام واتخذوها مقرًا لهم فبلغ عدد سكانها نحو مليونين من الأنفس، فشيدت فيها الضواحي الجميلة وامتدت إلى مسافات بعيدة

على جانب نهر دجلة، وقد اشتهرت منها المهدية ويقال إنها فاقت الجزء الغربي من بغداد في عظمتها وجمالها.

أما الخلفاء العباسيون الأول فكانوا مثال الأبهة والجلال، وكان الخليفة منهم يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية، وكان الرئيس الأعلى في الأمور السياسية والعسكرية، ومصدر القوة ومرجعها. ولم يكن الوزير إلا مستشارًا منفذًا لأوامر الخليفة، يراقب الضرائب والمراسلات الرسمية، ويشرف على الإدارة المدنية والحربي. ولقد أخذت الخلافة العباسية من مظاهر الأبهة والعظمة ما لم تأخذه الدولة الأموية، فكان إذا خرج الخليفة تتقدمه كوكبة من الحراس في زي نظامي فكان حرس موسى الهادي يستلون السيوف وهم على ظهور الجياد أمامه ووراءه وشد رماة السهام قسيهم، وركز حملة الرماح رماحهم، وكان الرشيد والمأمون يخرجون للصلاة في يوم الجمعة في أعظم مظاهر الملك والخلافة، فكان يتقدم الموكب فرقة من المشاة يحملون الإعلام، ثم فرقة الموسيقى تصدح بشجى الأنغام، ويسير خلف الموسيقى جماعة الأمراء على جياد مطهمة محلاة، ثم يجئ الخليفة على جواد ووراءه كبار رجال الدولة ثم يسير بقية الحرس في نهاية الموكب، وكانت تتجلى عظة الخليفة أيضًا في المقابلات الرسمين وفي الأعياد والاحتفالات القومية، وأعدت غرف خاصة لتلك المقابلات مشيدة على صف واحد وكان يجلس بها رءوس القوم والأمراء ورجال الحاشية والبلاط وكانت الستائر الثمينة المزركشة تسدل على أبواب الحجرات، وإلى جانب كل باب يقف حاجب يزيح الستار عند قدوم الزائر، ويسمح له بالمرور فإذا ما اجتاز حجرتين ودخل الثالثة وجد الخليفة على عرشه وحوله مائة رجل في أجمل ثياب شاهرين السيوف، وعلى يمينه ويساره جلس الأمراء والوزراء في درجاتهم، وعندما يصل الزائر إلى تلك الغرفة يصيح الحاجب باسمه فيتقدم ويظهر خضوعه وطاعته، وكانت العادة في ذلك عندهم أن يضع الرجل يده اليمني على صدره ويحني رأسه قليلًا ثم يرفع يده من على صدره إلى رأسه، أما الفرس فكانوا يركعون. أما في المقابلات الخاصة فكان الخليفة يسمح للزائر بلثم يده وكانت مقصورة على الأمراء وكبار رجال الدولة والعلماء والأدباء والشعراء وكان ولي العهد يجلس عادة إلى يمين الخليفة، ويجلس القوم في صفين عن يمينه

ويسارع على حسب أنسابهم ومراتبهم، ويدور الكلام والبحث في مختلف الشئون السياسية والعلمية والأدبية، ويقول الشعراء ما تجود به قرائحهم ويقص الرحالة ما لا قوة في رحلاتهم، وكانت عادة الخليفة في شهر رمضان أن يولم الولائم في قصره لقواد جيشه من جميع الأقاليم، وكثيراً ما كانت تقام تلك الولائم في قصور الوزراء.. وفي عيد الفطر كانت تقام وليمة جامعة لوجهاء بغداد وكان الخليفة ينيب عنه شخصًا في حضور تلك الولائم.

ظلت حكومة الخلفاء حكومة أو تقراطية حتى جاء عصر المأمون فانقلبت إلى حكومة دستورية شورية واجتمع في عهده مجلس للنواب يمثل كل الطبقات والعناصر التي تخضع للخلافة العباسية، ويتمتع النواب بالحصانة البرلمانية، ويبدون رأيهم في مختلف شئون الدولة بمنتهى الحرية والصراحة،وقد ظل هذا النظام البرلماني قائمًا حتى فقد الخلفاء سلطتهم الزمنية، ففقد المجلس سلطته السياسية، وقصر مناقشاته على المسائل الفقهية والدينية، وقد حذا أمراء آل بويه والسلجوقيون والأيوبيون حذوا الخلفاء العباسيين واستعانوا بالمجالس النيابية في الإدارة الحكومية ي الممالك والأقاليم التي خضعت لسلطانهم.

وكان الخلفاء في عهد الحكومة الأوتقراطية يستعينون في إدارة الشئون بطائفة من الولاة أصحاب الكفاية الإدارية والدربة السياسية وقد جروا على سنة تغيير الولاة بعد مدد قصيرة حتى لا يستأثروا بالسلطان والنفوذ في ولاياتهم، وكانوا يعينون معهم أصحاب البريد ليخبروا الخليفة بكل صغيرة وكبيرة من أمور الإدارة الإقليمية، وكان بجانب صاحب البريد عدد كبير من الجواسيس والمخبرين نساء ورجالًا، وكانوا يكتبون للخليفة التقارير الوافية عما يجري في دائرة اختصاصهم، وقد استمرت هذه الأداة السياسية في عملها حتى سلب الأتراك والديلم وغيرهم الخلفاء سلطتهم فاندثرت تلك الأداة النافعة.

دواوين الدولة والإدارة المدنية

سارت الإدارة في أنحاء الدولة العباسية على أسس ثابتة منظمة لا تقل عما يجري في الممالك المتمدينة اليوم، ولعلها كانت في بعض الأقطار أحسن مما نراه في هذا العصر، وكانت وظائف الحكومة مفتوحة للمسلم والمسيحي واليهودي والهندي، والأعمال موزعة بين دوائر الحكومة توزيعًا محكمًا، وكان ديوان العزيز هو ديوان حكومة الخليفة، وكان يرأسه كبير الوزراء وكان الوزراء في عصر الخلفاء الأقوياء ينوبون عن الخليفة ويسيرون دفة الأمور باسمه، ولما ضعف نفوذ الخلفاء ضعف نفوذ الوزراء أيضًا، وحل محلهم أمير الأمراء. وكان في قصر الخليفة موظف يماثل رئيس الديوان العالي في الوقت الحاضر يسمي أستاذ الدار، واشتهر من دواوين الدولة غير الديوان السابق ديوان الخراج وكان عمله جمع الضرائب وفرضها وتنظيم أمور الجباية وشئونا، وديوان الزمام واختصر بالدخل والنفقات، وديوان الحربية الذي أشرف على الشئون العسكرية وترتيب الجند والنظر في أمر مرتباتهم وتنقلاتهم إلى غير ذلك مما تشرف عليها وزارة الحربية في الوقت الحاضر، وكان هناك ديوان للبريد والرسائل وكان من أخطر الدواوين شأنًا وأكبرها عملًا، وكان هو الذي يتولى تحرير الرسائل والمكاتبات الرسمية ويرد على جميع الرسائل التي ترد من الأقاليم والأمارات والممالك الأجنبية، وكان رئيسه هو الذي يحمل خاتم الخليفة وكان يحضر مجلس الخليفة ليدون ما يقال فيها ويلخص ما يرفع من المظالم ويرد عليها، وأما الشرطة فكان لكل مدينة شرطتها ولكل شرطة رئيس "حكمدار"، وكان الشرط أقسامًا يوزعون على البلدان التابعة في إدارتها للمدينة، وكان عليهم حماية الناس والمتاع والعسس ليلًا، وكانت مرتباتهم حسنة ليعفوا، وكان من ضمن أعضائها موظف يسمى المحتسب وكان عليه مراقبة المكاييل والموازين، ويعاقب المدلسين والغاشين ويلاحظ الأسواق ويراقب عمليات البيع والشراء. وقد أنشأ العباسيون وظيفة أمر الحج لحماية الحج من غارات البدو وكان يخرج مع جنده لمراقبة سير الحجاج والعمل على راحتهم.

إيرادات الدولة

نظمت الدولة العباسية ماليتها تنظيمًا بديعًا ورتبت شئون ميزانها المالي ترتيبًا جيدًا، حتى كان دخلها كافيًا لسد نفقات الإدارة الحكومية من مدنية وعسكرية، ولم يمد الخلفاء يدهم إلى الاستدانة كما يفعل ملوك العصر الحديث وظل الخليفة قابضًا على ناصية الحال مسيطرًا على موارد الدولة وخرجها عندما كان صاحب الأمر والنهي في المسائل الدينية والمدنية، ولما ضعفت هذه السيطرة وفقد الخليفة نفوذه السياسي اضطربت الشئون المالية اضطرابًا شديدًا، وفسدت أحوال الدولة تبعًا لذلك.

هذا وكانت الدولة تستمد إيراداتها من ضريبة الأرض، وضريبة الدخل، والعشر والزكاء، والصدقات ورسوم الجمارك، وضريبة الملح والسماك، وعوائد حوانيت التجار والباعة الذين يبيعون في الشوارع في أماكن خاصة، وضريبة المصانع والمعامل والطواحين وضريبة الواردات وقد ألغاها الواثق لتشجيع التجارة البحرية.

هذا وقد نقل ابن خلدون في مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة ثبت الدولة العباسية في عصر المأمون، وهو أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع الأقاليم التي خضعت للدولة إذ ذاك، ويؤخذ منه أن الخراج بلغ مجموعه في ذلك العصر الزاهر ٣١٨٦٠٠٠٠٠ درهم، ٣٨١٧٠٠٠٠دينار وذلك غير العروض التي كانت تجبى من أقاليم الدولة وكانت بمثابة ضرائب عينية من عسل وأثواب وسكر وحلل وأبسطة وزيت ودقيق إلى غير ذلك: "وكان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه في الحوادث التي تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقي بعد ذلك كثير يهب منه ما شاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه في الحاضر الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا".

القضاء والزراعة والصناعة والتجارة

كان القضاء في الدولة العباسية يسير على سنن قويم وكانت الحقوق المدنية لأهل الذمة تترك لرؤسائهم الروحانيين أما قضايا المسلمين فكان القضاة ينظرونها وكان لكل

مدينة قاض خاص، وفي المدن الكبيرة كان للقضاة نواب وكان قاضي القضاة في بغداد أكبر موظف في الدولة، وكان في العاصمة ديوان يسمى ديوان النظر في المظالم وكان ينظر في الجنايات والقضايا الهامة وكان يرأسه الوالي أو الخليفة.

أما العناية بالزراعة فكانت كبيرة وبخاصة في بلاد الجزيرة لخصوبة أرضها وصلاحية تربتها للنبات، فحفرت فيها الترع وشقت القنوات وأصلحت الأراضي الزراعية حتى أصبحت ربوع الدولة جنانًا زاهرة.

وكانت العناية بالصناعة لا تقل عن تلك العناية الزراعية، فاستخرجت المعادن واشتهرت خراسان بمناجمها الحديدية واستخرج الرصاص من كرمان، وصنع الرخام والصيني في تبريز، واستخرج الملح وصنع الكبريت والصابون والزجاج، وافتتحت المصانع في بغداد وسامرا وفي غيرهما من أمهات المدن، وأنشئت المعامل لصنع الورق والمصانع للتطريز بالذهب والحرير، وانتشرت صناعة السجاد واشتهرت الكوفة بصناعة الحرير والمناديل.

أما التجارة فقد اتسع نطاقها في عهد العباسيين، ووصلت متاجرهم بحر إلى الهند والصين وبرا إلى داخل أفريقية الصحراء ونهر النيجر وتداول الناس نقود الدولة العباسية في أنحاء العالم المتمدين.

الحالة الاجتماعية والعلمية

ارتقت الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية ارتقاء عظيمًا وسبق الشرقيون أهل الغرب في مضمار الحضارة والعمران وتقدموا في طريقة زيهم وأساليب معيشتهم المنزلية، وتقدمت الأسرة تقدمًا باهرًا واشتركت المرأة مع الرجال اشتراكًا فعليًا في ميدان العمل والاجتماع، ونبغ القوم في الفنون الجميلة والموسيقى، وأدخلوا أنواعًا كثيرة من الألعاب الفارسية بين الطبقات الراقية، واشتهرت كثيرات من النساء في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم بالعقل الراجح والكفاية الأدبية والشعرية، ومنهن من نبغ في علم الشريعة مثل زينب أم الوليد وقد عاشت في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، وحازت ثقة علماء

عصرها وسمحوا لها بتدريس الشريعة، وكانت أم المقتدر ترأس محكمة الاستئناف وتنظر في الدعاوي وتقابل رجال الدولة والسفراء والأجانب، وكان النساء في عصر الرشيد والمأمون يشتركن مع الرجال في المناظرات الأدبية والعلمية، وكن يشتركن أحيانًا في المسائل السياسية، ويتبارين في الشعر فارتقت المجتمعات المنزلية، وانتشرت الثقافة والتهذيب بفضل هذا الاشتراك، ولقد اشتهرت الملكة زبيدة زوج الرشيد بإجادة الشعر وحصافة الرأي، وكثير ما أرسلت إلى زوجها وهو في ميادين القتال بقصائد رقيقة من نظمها، وكتبت للمأمون بعد وفاة ابنها الأمين كتابًا له مكانته في عالم الأدب، وكذلك كانت حال بوران زوج لمأمون فقد كانت على جانب عظيم من الفضل والأدب.

أما الحالة العلمية فقد امتازت الدولة العباسية عن كل الدول الإسلامية بأنها كانت مشرق العلوم والمعارف ومطلع الرقي الأدبي في العصور الوسطى في العالم المتمدين، وكانت دول العلم والتدوين والترجمة، وظهر فيها الفطاحل من العلماء الذين نبغوا في كل العلوم وضربوا فيها بسهم صائب وكانت بغداد زهرة مدن العالم وكعبة طلاب العالم، وسوقًا يقصدها الطلاب من كل حدب وصوب، وكثرت فيها دور الكتب وكان لبائعي الكتب منزلية بين الناس، وكانت مكتباتهم أندية للطلبة والباحثين، وفيها كانت تقام المجادلات الفلسفية والدينية بين المعتزلة وأهل السنة وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري في مسألة القضاء والقدر، وفي رؤية الله سبحانه وتعالى يوم الحساب وخلق القرآن وغير ذل من الموضوعات العلمية وكان أصحاب تلك المكتبات من ذوي العلم والرأي والمؤلفين، ونشطت صناعة الكتابة والخط، وانتشرت المؤلفات ورخصت أثمان الكتب فأقبل الناس على شرائها، ونهضت البلاد نهضة علمية وفكرية في عصر المأمون إلى درجة كبيرة، وألفت الكتب في الأدب والتفسير والحديث ونبغ عدد عظيم في علوم الطب والفلك، وشيدت المراصد الفلكية وتقدم فن الصيدلية وغيره من العلوم الحديثة كعلم النبات والتاريخ، وأرسلت البعوث العلمية إلى القسطنطينية والإسكندرية والهند، فترجموا علوم الطب والفلسفة الإلهية والرياضة والطبيعة والمنطق، وكان المأمون يفيض الذهب النضار على النابغين في الترجمة حتى كان يعطي أجرة ترجمة الكتاب وزنه ذهبًا.

وكان للنهضة العلمية الإسلامية أثر كبير في أوروبا عند ما أفاق أهلها من سباتهم، وطرحوا عن أعناقهم جهالات العصور المظلمة، وأخذوا يعملون بما أخذوه من العرب. هذا وقد نبغ في العلوم الشرعية الإمام البخاري والإمام مسلم والإمام أحمد ابن حنبل وأبو الحسن الأشعري، واشتهر في علوم الطب والصيدلة الحرث بن كلدة ويحيى بن جاسوية طبيب الرشيد وعلي بن رضوان وعلي بن سينا وكانت كتبه تدرس في فرنسا وأوروبا ستة قرون، والرازي (٣٣٠هـ) وهو أول من استعمل المسهلات في الصيدلة وجبرائيل بن بختشيوع وإسحاق بن سليمان (٩١٥هـ) وقد ألفا كتابا في تشخيص الأمراض وتشريح الأعضاء ووصف وظائفها، وفيه صفات طبية مضادة للسموم، أما في العلوم الرياضي والفلكية فقد وضع مُحَمَّد ابن موسى الخوارزمي الجبر على أساس ما عرفه من الإغريق والهنود، وتقدم علم الجبر على يد العرب حتى حلت المعادلات من الدرجة الثالثة وقد اخترعوا في حساب المثلثات الظل والجيب، ووضع جابر الفلكي قانونًا في حساب المثلثات، وقد ألف العرب أرصادًا فلكية وأزياجًا وحسبوا الكسوف والخسوف، واخترعوا رقاص الساعة والمزاول الفلكية، وصححوا كتاب المجسطي تأليف بطليموس، وعنهم أخذ أهل أوروبا الأرقام الحسابية وعلم الجبر والمقابلة. وقد نبغ كثير من العرب في علمي التاريخ والجغرافيا، ومن أشهر المؤرخين الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلكان وابن شاكر، أبو الفرج وأبو الفداء وغيرهم. وفي عصر الدولة العباسية كتب المؤرخون في فلسفة التاريخ وحذا حذوهم أهل أوروبا، وظهر منهم كثير برعوا أيضًا في الجغرافيا فإنهم أول من جابوا الأقطار ورسموها ووصفوها وصفًا دقيقًا لا يزال كثير منه في مؤلفاتهم الممتعة.

وكان للأغاني والشعر عند العباسيين منزلة سامية فكان الخلفاء يفيضون العطايا الواسعة عليهم، وكان الشعر في كل ضرب من ضروبه حماسة وغزلًا ورثاء وغيرها فوق الغاية من متانة الألفاظ وجلال المعاني وبلغ الغناء من الحسن جودة لم تكن في عهد غير العباسيين، وكان لكبار المغنيين منزلة رفيعة في الدولة كإبراهيم الموصلي وابن اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق العد والحصر.

اضمحلال الدولة العباسية وسقوطها

ملأت الدولة العباسية العالة المتمدين حضارة وعلمًا، ولكنها ما لبثت بعد انقضاء عصر خلفائها العظام بموت المعتصم أن دخلت في دور انحلالها وتدرجت في اضمحلالها حتى سقطت نهائيًا على يد المغول كما سبق أن ذكرنا ولهذا الانحلال ثم السقوط عوامل مختلفة وأسباب شتى نجملها فيما يلي:

أولًا: ارتكزت الدولة العباسية عند بدء قيامها على القوة الفارسية واستعان خلفاؤها بالخراسانيين على توطيد عرشهم وتثبيت مركزهم واستخدموهم في كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش، واتخذوا منهم البطانة والحاشية وولوهم الوزارة، فأخلص الفرس لهم إخلاصًا قويًا وخدموا الدولة بإخلاص وأمانة، وظلوا كذلك حتى انقضت فترة الخلفاء العظام فقبلوا ظهر المجن لها وانقلبوا أعداء وطمعوا في أطرافها وعملوا على الاستقلال بأماراتهم، ونازعوا الخليفة نفوذه وسلطانه، فاختلت أمور الجباية واضطربت الحال المالية، وعجز الخلفاء عن دفع مرتبات الجند الأجانب فثاروا عليهم واعتدوا على مكانتهم، فسقطت هيبتهم بين الجماهير، ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى العناصر الطماعة في أملاك الدولة فسهلوا عليهم سبيل الفتح وأرشدوهم بعملهم إلى مواطن الضعف فانفرط عقد الدولة.

ثانيًا: امتاز العالم الإسلامي عند بدأ قيام الخلافة الإسلامية بالوحدة السياسية والدينية، وخضع الناس جميعًا لأمير المؤمنين في الشئون الدينية والمدنية، وأقروا له بالزعامتين، فسارت الدولة الإسلامية سيرًا إيجابيًا وفتحت البلدان والأقطار، ونشرت الدعوة الإسلامية شرقًا وغربًا وأعجب الجميع بحضارة العرب وجلال الإسلام، ولم يفكر إنسان في عصر الخلفاء الراشدين الأوائل أن ينازع الخليفة تلك الزعامة، ولكن لم تدم الحال طويلًا وانقضت هذه الوحدة بانقضاء عصر الخلفاء الأقوياء واضمحلال الدولة الأموية وظهر في أنحاء الخلافة العربية وخصوصًا في بلاد المشرق أفراد نازعوا أمير المؤمنين سلطته الروحانية.

ولما تأسست الدولة العباسية غضب العلويون وأنصارهم ونشروا بين الناس أنهم أحق بالخلافة العباسيين أبناء عمهم، والتف حولهم جمهور كبير من أهل الشيعة وناصروهم في حروبهم على الخلفاء العباسيين، وعظم أمر الدعاة العلويين، وكشفوا للناس عن مواطن ضعف القائمين بأمر الخلافة الإسلامية، فضعفت الهيبة الدينية في القلوب، وانتهز عمال السوء تلك الفرصة وحركوا الثورات، وشجعوا الفتن والقلاقل حتى يصلوا إلى مأربهم السياسية من وراء هذا الانقسام وتلك الفرقة، وانتثر عقدة الوحدة الدينية التي أرهبت العالم المتمدين يومًا من الأيام بقوتها، وظهرت دول في شرق الخلافة العباسية وأخر في غربها تعمل على معاضدة العلويين، وقامت الدولة الفاطمية في شمال أفريقية ومصر، وانتزعت من أملاك الخليفة العباسي فلسطين وسورية والحجاز ومعظم آسيا الصغرى، وظهرت الدولة الزيدية في طبرستان وجرجان، وظهرت دول أخرى في شبه جزيرة العرب، واشتغل الخلفاء العباسيون بأمر تلك الفتن، وجردوا جيوش دولتهم لإخمادها والتضييق على العلويين ودعاتهم أينما وجدوا، وأحكم العلويون دعوتهم ونظموا صفوفهم، وبعثوا دعاتهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غربًا وشرقًا، واعتنق القرامطة وغيرهم عقيدة العلويين، وحركوا نار الثورة والاضطراب فزلزلوا جوانب الدولة. وفي أوائل القرن السادس الهجري ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس، وافسدوا الدول، وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس وظل هؤلاء العلويون ينخرون في عظام الخلافة الإسلامية حتى قضوا على الدولة العباسية وأسقطوها.

ثالثًا: كان من نتائج الخلاف الذي شجر بين الأمين والمأمون أن ازدادت قوة العنصر الخراساني، وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالي استقل بأمر خراسان واستكثر المأمون وأخوه المعتصم من شبان الأتراك وتألفت منهم الجيوش في عصر المعتصم. واستند الخليفة على قوتهم في إقامة دولته واستغنى عن العرب وعصبية العرب، وعن أبناء خراسان أيضًا، وقد ارتكب بعمله هذا خطأ جسيمًا. إذ أن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعهم لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم، وعملوا على الاستئثار بالنفوذ والسلطان في الدولة وحصلوا على ما أرادوا وأصبح الخلفاء في يدهم

ألعوبة يحركونهم كيفما شاؤا، وضعفت صولة الخلفاء وقلت قيمة أقوالهم وأفعالهم وأوامرهم، ورأى ولاة الأطراف أن الفرصة سانحة للاستقلال بما تحت أيديهم لأنهم لم يكونوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة. وعلى ذلك لم ينتصف القرن الثالث الهجري حتى كان الدولة العباسية تحيط بها دولة مستقلة عن سلطان الخلفاء. أما العنصر العربي الذي أمتاز بالشجاعة والإقدام وإنكار الذات ورفع لواء الإسلام عند بدء ظهوره فقد ضعف ضعفًا عظيمًا وتفرق قبائل وعصائب عاد الكثير منها إلى مواطنها في القفر والصحراء، ففقد الخلفاء أقوى سند كانوا يعتمدون عليه واختل التوازن بين عناصر الدولة وساءت الأمور.

رابعًا: جرى الخلفاء العباسيون على سنة نقض العهود وعدم احترام الوعود، ومصادرة الأموال فأدى ذلك إلى نوع من سوء التفاهم بين الخليفة والولاة، وازدادت الحال تحرجًا بذيوع الرشوة، فكان العامل يصادر الرعية والوزير يصادر العمال، والخليفة يصادر الوزراء والناس على اختلاف طبقاتهم، وكان المال يتداول بالمصادرة والرشوة، فاضطربت أحوال الدولة المالية أيضًا اضطرابًا شديدًا ففسد الأمر، وعكف الخلفاء بعد الواثق على مجالس الشراب والأغاني والقصف والاشتغال باللذات والملاهي، وانصرفوا عن مصالح الدولة وتركوها إلى غلمان الأتراك وقوادهم فتصرفوا على حسب أهوائهم ومآربهم الذاتية، فاضمحلت الدولة وسارت بخطوات سريعة نحو الانحلال والسقوط.

جاء في كتاب حماه الإسلام ما يأتي: "اضمحلت الخلافة العباسية بالأسباب التي اضمحلت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل، وزادت عليها عوارض أخرى أصابتها متتالية فكانت أشد بلاء من تلك الأسباب المتقدمة: منها كثرة المذاهب واظهاد الأئمة والتفرقة في الاعتقاد، وظهور أصحاب الدعوات الباطلة كالباطنية والفاطمية والشيعة والمعتزلة والراوندية وغيرهم. ومنها كثرة وجود دخلاء الأعاجم الذين

فعلوا في الدولة العباسية ما لا يفعله العدو الفاتك بعدوه". تضافرت هذه العوامل التي ذكرناها مع غيرها من الأسباب التي ضاق المقام عن ذكرها، وأسقطت ذلك البناء الشامخ من علوه الشاهق وأضحت الدولة العباسية وكأنها حلم من الأحلام التاريخية الممتعة وخيال من الأخيلة البديعة التي مرت بالتقدم البشري وهو يخطو خطواته نحو العصر الحديث.

انتهى

ملحق

نظرة عامة في حال الإغريق الاجتماعية في عهد عظمة أثينا وإسبرطة وأثر ذلك في المدنية العربية[1]

عظمة أثينا – عصر كيمون (٤٧٩ – ٤٦١ ق. م)

كان لانتصار الإغريق على الفرس ٤٧٩ ق. م أثر كبير في تاريخ العالم وفي رقيهم الاجتماعي إذ أن ذلك الانتصار حفظ لهم حريتهم ومكنهم من أن يورثوا العالم كله من غرب وشرق آرائهم في السياسة والدين والعلم والفن والفلسفة.

تحصن أثينا: عاد الأثينيون بعد الانتصار إلى بلادهم وقد صحت عزيمتهم على تحصين بلادهم وتجديد ما تخرب منها.

وقد أشار عليهم تمستكليس بطل موقعة ميكالي أن يبنوا سورًا جديدًا حول أثينا يلتجئ إليه أهل الريف إذا ما حاق بهم خطر.

فلما رأت الولايات المجاورة ذلك أخذت تحرض اسبرطة على التدخل في الأمر إلا أن تمستكليس تمكن بما أوتيته من دهاء أن يفاوض اسبرطة ويقنعها بحسن نية أثينا في هذا التحصين فلم تبد مقاومة تذكر، حتى صار السور منيعًا ثم فطن أهل اسبرطة إلى أنهم خدعوا إلا أنهم أخفوا غضبهم حتى تحين الفرص بني الأثينيون سورًا آخر بعد ذلك حول بيروس ميناء أثينا فأصبحت بذلك بيروس وأثينا من أمنع بلاد اليونان تحصينًا وتفرغت بعد ذلك لتتبوأ مركز الزعامة في بلاد اليونان.

---

[1] تفضل زميلي الأستاذ عبد الفتاح الزيادي بمراجعة هذا الفصل وتلقيحه كما أنه تفضل بضبط المواقع والبلدان على الخريطة المرفقة به، فله جزيل الشكر.

حلف ديلوس سنة ٤٧٧ ق. م

اشترك الإغريق كلهم في الدفاع عن بلادهم ولكن أثقل الأعباء كان على عاتق أثينا فأصبح لها بعد الانتصار على الفرس مركز خاص بين المدن الإغريقية واتجهت سياستها بعد انتهاء الكفاح من فارس إلى الاحتفاظ بهذه الزعامة فكونت من مدن آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل حلفًا تحت زعامتها بقصد الدفاع عن صوالح اليونانيين في أوروبا وآسيا ضد الفرس والأعداء الخارجين، واتفقت أثينا على أن تقوم كل مدينة بتقديم عدد معين من السفن أو مقدار معين من المال لتحقيق هذا الغرض.

ويعرض هذا الحلف بحلف ديلوس نسبة للجزيرة التي وقعت فيها شروط هذه المحالفة. وهذه الجزيرة واقعة في بحر الأرخبيل وتعتبر مركزًا للعبادة عند اليونان إذ بها الإله أبولو إله الموسيقى عندهم.

ويتعهد الحلفاء أن يقدموا سفنًا ومالًا لأثينا صار بيد أثينا القوة الحربية والخزينة العامة وقد تقرر أن يجتمع كل عام مندوبون من المدن المختلفة في ديلوس للبحث فيما يهمهم من الأمور.

تقدم الحلف

عمل القائد الشهير كيمون على تقدم الحلف حتى يشمل شواطئ بلاد اليونان الشرقية والشمالية ومعظم جزر بحر الأرخبيل وبلغ عدد أعضائه نحو المائتين، وزال الخطر الفارسي وتحررت شواطئ بحر الأرخبيل وأقاليمه منهم.

ولما زال هذا الخطر عن أعضاء الحلف فضل كثير دفع ضرائب لخزانة ديلوس عوضًا عن السفن والرجال، وقبل كيمون منهم ذلك وأقنع أهل أثينا بأفضلية المال على السفن والرجال، إذ استطاع بذلك أن يشيد أسطولًا متجانسًا ويدرب رجاله تدريبًا حربيًا واحدًا. كما أن هذا أفاد أهل أثينا بشغل العاطلين في بناء السفن.

خروج بعض الأعضاء من الحلف

بعد أن زال الخطر الفارسي أصبحت أثينا بهذا الحلف صاحبة النفوذ والسلطان

ونزل مخالفوها من صف الأنداد إلى صف الأتباع، ففكر بعض الأعضاء في الخروج من الحلف وأثارت جزيرة تكسوس الموضوع وأبت أن تدفع مالاً لأثينا معتمدة على مساعدة الفرس. إلا أن كيمون أشهر عليها الحرب وأرغمها على دفع غرامة سنوية كما سلبها حريتها، وأصبحت تابعة من توابع أثينا. ثم ثارت جزيرة تاسوس سنة ٤٦٣ ق. م فأصابها ما أصاب جزيرة تكسوس على يد كيمون.

إسبرطة وأثينا

مقدمة: علمنا فيما سبق أن تمستكليس استطاع إقناع إسبرطة بحسن نية أثينا في التحصين. وأن أهل إسبرطة فطنوا إلى خداعه وانتهزوا الفرصة للإيقاع به.

وقد نجحوا في ذلك فرماه الإسبرطيون بالميل لفارس فدافع عن نفسه حتى أثبت براءته وفي سنة ٤٧١ حوكم ونفي إلى أرجوس إلى أنه تمكن من الفرار إلى فارس، فرحب به ملكها وغمره بافحسان. ولما أراد ملك فارس أن يستغله لمحاربة أثينا قيل أنه فضل الموت والانتحار على خيانة وطنه.

عصيان الجند في إسبرطة سنة ٤٦٤ ق. م

بسقوط تمستكليز ظل أهل إسبرطة أصدقاء للأثينيين مدة، وقد ظهرت هذه الصداقة لما أن غضب الجند في إسبرطة بسبب استبداد أولى الأمر بهم، ولما أن أجمعوا بأثينا فانقسم أهل أثينا فريقين فريق يرى مساعدة إسبرطة وهو الحزب الديموقراطي وعلى رأسه افيلتيز وفريق يرى عدم المساعدة وهو حزب المساعدين وعلى رأسه كيمون.

وبعد مناقشات ومجادلات حادة انتصر حزب المحافظين وقام كيمون بحملة يساعد بها إسبرطة سنة ٤٦٢ ق.م.

اشتداد ساعد الديموقراطيين

ترك كيمون حزبه بدون سند فاشتد ساعد الحزب الديموقراطي، واستطاع هذا الحزب أن يقنع الحكومة بضرورة دفع مرتبات للموظفين حتى يتقدم للوظائف الأكفاء فقراء كانوا أم أغنياء. وكانت هذه خطوة في سبيل تقدم الديموقراطية. وقد استطاع افيلتيز

في غياب كيمون أن يسلب مجلس الأريوباجوس حصن الارستقراطية شيئًا من سلطته السياسية اقتصر عمله على نظر المسائل القضائية المتعلقة بجرائم القتل. وقد ساعد افيلتيز صديقه الشاب بركليز المتشبع بمبادئ الديمقراطية.

سقوط كيمون سنة ٤٦١ ق. م

لما وصل كيمون إلى إسبرطة قوبل بفتور إذ اتهمه الإسبرطيون بمفاوضة الثائرين، فاضطر للانسحاب بدون أن يأتي عملًا ما، فاستاء الشعب الأثيني من تلك الإهانة وحل غضبه على من كان السبب فيها، وصدر الحكم بنفي كيمون مدة عشر سنين سنة ٤٦١ ق. م وتغير مجرى السياسة في أثينا وأرسلت حملة بحرية مساعدة للمصريين ضد أردشير وأخرى برية إمدادًا للحملة ضد إسبرطة، فخابت الأولى وانهزمت الثانية، عندئذ ثاب الشعب إلى رشده وعرف لكيمون فضله، فدعاه قبل انقضاء أجل النفي وكان بركليز ممن اقترحوا عودته. ولما عاد لم يحد قيد شعرة عن خطته القديمة وطلب عقد الصلح مع إسبرطة وأثينا والقتال مع الفرس. فعقد مع الإسبرطيين هدنة ٥ سنوات وشخص بأسطوله إلى جزيرة قبرص واستخلصها من يد الفينقين والفرس إلا أنه مات عقب انتصاره فكانت هذه الواقعة خاتمة الحروب الفارسية، وقد مات كيمون بعد أن رفع أثينا إلى مركز حربي ممتاز وقطعت في أيامه مراحل في سبيل الحضارة والعمران.

عصر بركليز: ٤٦١ – ٤٣١ ق. م

وُلِدَ بركليز سنة ٤٩٤ ق. م وكان والده اكسنثبوس الذي انتصر على الفرس في واقعة ميكالي من أعاظم القواد، وأمه من أسرة عريقة في الحسب فكان عزيزًا في قومه، تعلم على يد أعاظم الرجال فضلًا وعلمًا، فعنوا به كثيرًا وبذلوا ما في وسعهم لتهذبه، فنشأ عاقلًا رزينًا يملك نفسه في حالتي الغضب والرضا، إذا خطب في قومه ذلل له القول وانقاد له اللفظ، فيخلب الألباب ويفحم الخصوم، ولا تخلو خطاباته الحماسية من رقيق الألفاظ ودقيق المعاني وقد كان بركليز يتقشف في معيشته ويقنع بالكفاف من ثروته العظيمة.

وجد الشعب الأثيني في بركليز ضالته المنشودة ووثق به وأسلس له قياده وولاه جميع أمره، وبقى هذا الرجل نحو عشرين عامًا في يده سلطة الملوك من التصرف في أموال الدولة، والأمرة على الجيوش البرية والبحرية، والقول بالحرب أو الصلح. وهو مع ذلك لم يتخذ لنفسه لقب الملك. وكان فوق جميع من عاصروه بمميزاته ومواهب، حتى أن العصر سمى باسمه. اعتبر عصره العصر الذهبي لأثينا لظهور فحول الشعراء والفلاسفة والصناع ورجال السياسة.

ومما يؤثر عن بركليز أنه كما قال بلو تارك (كان يحكم بالإقناع) فلم يجعل نفسه فوق القانون وأحسن السياسة في الداخل والخارج.

سياسته الداخلية

كان يرمي بركليس في سياسته الداخلية إلى أمرين خطيرين (أولًا) تخويل الشعب جميع الحقوق في حكم نفسه بنفسه، (ثانيا) جعل أثينا سيدة اليونان ومركز للسلطة والقوة السياستين ومهدًا للصنائع والعلوم.

تقدم الديموقراطية في عهد بركليز

مقدمة عن نشأة الديموقراطية في أثينا

انقسمت الطبقات الاجتماعية في أثينا إلى طبقتين: طبقة الأرقاء وطبقة الأحرار. وانقسمت طبقة الأحرار إلى أشراف وعامة. وكان بجانب هؤلاء عنصر من النزلاء الجانب وهؤلاء اشتركوا اشتراكًا فعليًا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية مع الأثينيين، ولم يشترك في الحياة السياسية الأثينية غير طبقة الأحرار، والأشراف والعامة. وكان الأشراف في بدء قيام أثينا أصحاب السلطة فيها فكان الأشراف لهم مجلس مكون من تسعة أعضاء منتخبين يتجدد انتخابهم كل سنة ويسمى مجلس الأراكنة. وكان بجانبه مجلس آخر وهو مجلس السناتو ويسمى (مجلس الأريوباجوس) أخذا من المكان الذي كان يعقد فيه.

وفي نهاية القرن السابع ق. م ثارت البلاد طالبة تعديل دستورها لاستبداد أغنياء الأشراف بفقراء العامة، وكان من نتائج ثورتها أن أصلح سولون الدستور.

دستور سولون

جعل سولون أساس الإصلاح مقدار الثروة التي يملكها الفرد شريفًا كان أم غير شريف، ليشترك في الحياة السياسية، وبذلك قضى على احتكار الأشراف تولى السلطة في البلاد. وأباح للعامة الاشتراك في السلطة على حسب ما يملكه من ثروة وما يدفعه من ضريبة، فقسم السكان بحسب ثروتهم إلى طبقات أربعة: الطبقة الأولى وهي التي تملك قدرًا معينًا من الثروة وتدفع ضريبة معينة، والطبقة الثانية من الفرسان، والثالثة من الذين يملكون المحراث والثيران والأرض الزراعية وكانوا فقراء، والرابعة هم الذين لا يملكون شيئًا أو كانت ثروتهم لا تبلغ حد معينًا. وقد حفظ للطبقات الثلاثة الأولى جميع المناصب وهي مناصب الأركون وحفظة الخزانة وحفظ السجون وغير ذلك من الوظائف العامة. أما الأفراد الطبقة الرابعة فلم يكن لهم من الحقوق السياسية إلا الاشتراك في جلسات جمعيات الشعب.

بقي الأشراف في دستور سولون أصحاب سلطان ونفوذ في الدولة ولكن اكتسبت الديمقراطية بعض مكاسب سياسية، فقد نص الدستور على حق مجلس الاكليزيا (الجمعية العمومية لطبقات الشعب الأربع) في انتخاب الأراكنة وفي مراقبة أعمال الحكام وكان لها سلطة سياسية وقضائية.

أما مجلس الأربعمائة (وهو مجلس شيوخ ينتخب أعضاؤه من بين الأفراد الممتازين من أعلى الطبقات) فكان يشرف على أعمال الاكليزيا. وهو الذي كان يقرر موعد انعقادها ويحضر لها المسائل التي ينظرها ويراقب تنفيذ قراراتها.

سلبت هاتان الهيئتان كثيرًا من اختصاصات مجلس الأريوباجوس، ومع ذلك بقى هذا المجلس الحصن الحصين لطبقة الحكام المتقاعدين، وبقى له من السلطة السياسية أعلاها وأوسعها، فقد كان يراقب أعضاء المدينة ويوقع بمن خالف. كأنه سلطة قضائية عليا ويؤدي إلى خزانة الحكومة ما يجتمع من الغرامات.

عطل الدستور فيما بين سنتي ٥٦٠ – ٥١٠ ق. م وعند سقوط هذا النوع من

الحكم اكتسبت الديمقراطية مكاسب جديدة لما أدخل كليستنيس من الإصلاحات التشريعية، ولما جاء بركليز بلغت الديموقراطية في ذلك العصر. دفع أجر لأعضاء الجمعية العمومية للشعب حتى يحضروا الجلسات بانتظام فأصبحت هذه الجمعية المرجع الأعلى لأمور الدولة، وكان قولها القول الفصل في كل الأمور التي تعرض عليها — أما الشئون المدنية للحكومة فقد أدارها مجلس الخمسمائة (وهو مجلس الأربعمائة القديم بعد أن عدله كليستنيس) وكان ينتخب أعضاؤه بطريقة القرعة من بين أفراد الشعب، وكان هذا المجلس هو الذي يحضر المسائل التي تنظر فيها الجمعية العمومية. وبجانب هاتين الهيئتين وجد مجلس العشرة يمثل الدولة في الأمور العسكرية والسياسية. أما السلطة القضائية فقد كانت مستقلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية، ويقوم بأعمالها محاكم شعبية تتكون من خمسة آلاف شخص ينتخبون بالقرعة من بين سكان المدينة، ويقسمون إلى عشر فرق، وكانت هذه الفرق هي التي تقوم بالأمور القضائية، وكل عضو فيها يتقاضى أجرًا. وبدستور بركليز هذا زالت القوة السياسية لمجلس الأراكنة، وسلب مجلس الخمسمائة السلطة الإدارية التي كانت لمجلس الأريوباجوس، واستولت المحاكم الشعبية على ما كان له من سلطة قضائية.

والخلاصة أن الدستور الأثيني في عصر بركليز قد فتح بابًا لكل عضو من أعضاء الدولة للاشتراك في أمورها السياسية على اختلاف أنواعها، ووضع الجميع على قدم المساواة أمام القانون، وسوى بينهم في الحقوق المدنية والسياسية، فتمت بذلك الديمقراطية في ذلك العصر لطبقة الأحرار. أما الأرقاء والأغراب فقد ظلوا بعيدين من الاشتراك في الأمور السياسية، ولهذا كانت الديمقراطية قديمًا محدودة المعنى إذا نظرنا إليها في ضوء معناها الحديث.

سياسته الخارجية

قلنا أن بركليز أراد أن يجعل أثينا سيدة اليونان وأن يقاوم إسبرطة مخالفًا في ذلك رأي كيمون، ولذا كانت سياسته الخارجية موجهة إلى تحقيق هذا الغرض، فشجع الأثينيين

على أن يقووا أنفسهم وبحريتهم كما فعل تمستكليس من قبل، فقوى أسوارها وحسن موانيها تحصينًا منيعًا، ثم اتخذ خطوة جريئة نحو أعضاء حلف ديلوس فاستصدر أمرًا بالغًا مجلس ديلوس الذي كان يجتمع فيه نواب من المدن المتحالفة للنظر في شؤونهم العامة، وبإرسال هؤلاء النواب إلى أثينا، ثم شرع في تشجيع الديمقراطية ومحاربة الارستقراطية في جميع مدن اليونان، فاعتبر المتحالفون ذلك تدخلًا في أمورهم الخاصة، ورأوا فيها معاملة السيد للمسود خصوصًا بعد أن حتم عليهم التقاضي أمام المحاكم الأثينية ونقل خزانة الحلف. عندئذ أصبحت أثينا من القوة بحيث ضعف المدن الأخرى ضعفًا كبيرًا، وخضع بعضها لأثينا خضوعًا لا يتفق مع تساوي الحليفات.

أما البعض الآخر فقد دفعهم حبهم الذاتي إلى الخروج مع الأثينيين، وقوى عندهم هذه الفكرة اعتقادهم بضعف الفرس وعدم حاجتهم إلى التعاضد لاتقاء شر هؤلاء الأعداء، فقامت أولًا بالثورة جزيرة ساموس سنة ٤٤٠ ق. م واشتركت معها مدينة بيزنطة. فلما نمى الخبر إلى بركليز أسرع بالذهاب إليها للضرب على أيدي الثائرين، فاستولى على سفن ساموس وضيق على عاصمتها الحصار حتى اضطرت إلى التسليم، وهدم الحصون وأداء الغرامة الحربية، وسار منها إلى بيزنطة فكان نصيبها ما أصاب ساموس، ورأى بركليز بعد ذلك أنه لا يمكن أثينا تسد جميع البلاد الخاضعة لها إلا بسداد الرأي وحسن التدبير، فحمل أولًا الناس على الاعتقاد بقوتها بأن جعل سفنها تقوم بمظاهرات عظيمة ومناورات ذات شأن، ووطد دعائم القوة الظاهرية بتأسيس مستعمرات كثيرة صارت لأثينا مصارف للتجارة ومرافئ للسفن وثكنات للحاميات.

الفنون والآداب في عصر بركليز

عنى بركليز بتجميل أثينا ولم يتردد في الاتفاق عليها من أموال المتحالفين فبينت في زمنه المعابد الفخمة ومن أشهرها (البارثينون) فوق تل عال مشرف على أثينا يعرف بالأكروبول، وقد زينه فيدياس بأجمل المناظر وصور فيه الآلة فأحسن تصويرها وأودع فيها كثيرًا من آيات الجمال ومظاهر الجلال خصوصًا في نصيب زيوس وقد جعل خارج المعبد

تمثالًا للمعبودة أثينا ارتفاعه ٧٠ قدمًا. ويدلنا على عناية القوم بهذا الأثر العظيم ما حصل بين أهل أثينا وفيدياس عند اختيار المادة التي يصنع من تمثال أثينا الكبر فإنه لما قال بتفضيل الرخام لرونقه الثابت كاد الناس يقتنعون ولكن لما ذكر من علل التفضيل قلة النفقة أسكتوه وصاحوا به ليكن من العاج والذهب الخالص فكان ما أشاروا به.

وقد شيدت أيضًا دور للحكومة في فضاء خارج المدينة ينعقد فيها مجلس الخمسمائة والمنجالس الأخرى، وشيدت قصور أخرى في جهات مختلفة حتى بدت المدينة للناظرين بهيجة تأخذ بالألباب، وصارت أثينا في هذه الفترة القصيرة تسترعى أنظار العالم كما كانت بابل منذ قرن قبل هذا التاريخ في عهد بنو خد نصر.

واهتم بركليز أكبر اهتمام بالتمثيل ورأى فيه الوسيلة لتهذيب الشعب وتربية الذوق السليم، فبنى بالقرب من الأكروبوليس مسرحًا عظيمًا يسع ٣٠.٠٠٠ شخص، وقد حض الناس على أن يغشوا دور التمثيل فأعطى العامة تذاكر يدخلون بها هذه الدور بدون ثمن فكانوا يسيرون إليها أفواجًا أيام الأعياد والمواسم، ويجلسون على مدرجات خشبية، أما الممثلون فكانوا كلهم من الرجال وكان الإلقاء بالغناء ومن الروايات التي كانت تمثل روايات سوفو كليز الذي كتب الروايات التمثيلية بنوعيها التراجيديًا (المأساة) وهي روايات تبعث في النفس الرهبة وتحرك فيها عاطفة الشفقة وتورث القلب حزنًا وأسى، والكوميديا وهي روايات في الأخلاق والعادات تتخللها فصول فكهة مفيدة. أما يوروبيدس فكان يخرج على القديم ويستهتر في رواياته بالارستقراطية، وقد حاز تأييد الشبان وأصر له الكهول العداء، وقد حالوا بينه وبين الجائزة الأولى مرارًا. هذا ولم يكن يتردد بعض الكتاب في جعل رجال الحكومة أنفسهم موضوعًا لروايات مختلفة وقد كان من عادة الكتاب بعد توزيع الجوائز وانتهاء فصل التمثيل، أن يتفرغوا لكتابة قصصهم الجديدة على ورق البردي، ثم يدفعونها للممثلين فيجدون في حفظها وفي تمثيلها كما كان رجال الموسيقى يلحنون الأغاني المطلوبة.

بعض عظماء الرجال المعاصرين لبركليز

عاصر بركليز غير هؤلاء الروائيين سقراط سيد الفلاسفة وزعيم الفلسفة البشرية — وبقراط أبو الطب الذي ارتقى بصناعة الطب من خرافة إلى صنعة علمية شريفة. وبالرغم من أن التشريح كان محرمًا في زمنه فإنه مع ذلك عرف أمورًا كثيرة متعلقة بتركيب المخ والأحشاء وغيرها.

وكان يقصد ويحجم ويكوي، وبرع جدًا في تشخيص الأمراض.

أما ليسياس معاصره فكان من أعظم الخطباء المفوهين. كان قوي الحجة بليغًا في بيانه ظل سيد الخطباء في اليونان والرومان زمنًا طويلًا.

ومن هنا تدرك أن أثينا في زمن بركليز كانت مبعث العرفان في بلاد اليونان وأن عصره كان أبهى العصور وأرقاها حتى قال أحد المؤرخين في وصفه.

أي عصر يضارع عصرًا اجتمع فيه بمدينة واحدة سوفوكليس وافوبيبديس أعظم الشعراء وليسياس أعظم الشعراء وليسياس أقدر الخطباء وهيرودوت وثيوثيديس أشهر المؤرخين وبقراط أبو الطب وأوريستو فانيس رب التمثيل وفيدياس أبرع المصورين وانكساغوراس وسقراط أكبر الفلاسفة المتقدمين والمتأخرين.

قوة الإمبراطورية الأثينية وضعفها

صارت أثينا في عهد بركليز أكبر دولة بحرية وارتقت فيها الفنون والآداب وظهر فيها السياسيون، ولكن تلك العظمة كانت تتخللها عوامل ضعف كثيرة، فإن المدن التي كونت الإمبراطورية كانت خاضعة لأثينا خضوع العبد للسيد كما عرفت، فنظرت إلى أثينا نظرة الكراهية والمقت، وعدتها قاضية على الحرية الهلانية، وأخذت تتحين الفرصة لتثور بها وتخلع ذلك النير الثقيل عن أعناقها. فعظمتها كما ترى مستندة إلى القوة وحدها ولو أحسنت إلى نفسها لاتخذت من حلف دياوس سلاحًا ينصرها في كل ملمة، ولكنها استبدت فكرهها الناس، ولو أخذتهم أثينا بالحسنى لأمكنها أن تحوز سيادة البحر الأبيض المتوسط، وتقضي على تاريخ روما ما في أول عهده بالجمهورية، يضاف إلى النظم التي

وضعها بركليز فيما يختص بدفع أجور للعامة كانت عاملة على فساد أخلاقهم كما إن إقبالهم على دور التمثيل كان باعثًا في نفوسهم الشعور بالترف والميل إلى الكسل، حتى أنهم نظروا إلى الأشغال العامة نظرة الازدراء والاحتقار فضعفت قواهم المعنوية وظهر هذا الضعف جليًا في الحروب البلوبونيزية.

الحروب البلوبونيزية

أسبابها

(١) انقسام الولايات اليونانية شطرين مختلفين في العادات والنظم والتقاليد وقد أدى هذا الانقسام إلى سوء التفاهم.

(٢) ما قام به الفرس من الدسائس للتفريق بين مدن اليونان، فقد عرفوا كيف يربحون بنثر الذهب ما عجزوا عن كسبه بإشهار السلاح، وقد ساعدهم على ذلك ضعف الوطنية الذي تفشى في بلاد اليونان.

(٣) نظر إسبرطة بعين الحسد والقلق إلى نهضة أثينا الأدبية والسياسية، فكانت تتربص لها زلة تسقطها من سماء مجدها وغطرستها فكانت إسبرطة النواة التي تجمع حولها عوامل السخط والاستياء من تصرفات أثينا وقضائها القضاء المبرم على تجارة حلفاء إسبرطة وبخاصة تجارة قورنثة كل هذا أوجد قضية خطيرة بين أثينا وإسبرطة لا يمكن الفصل فيها إلا بتحكيم السلاح. غير أن ذلك لم يكن ليشعل نيران الحروب إلا إذا تطاير شرر الخلاف من ثنايا ما يضمره كل فريق للآخر من السوء، فلما همت قرنثة بتأديب مستعمراتها جزيرة كركيرا التجأت هذه إلى أثينا، فأخذت بيدها والتجأت الأولى إلى إسبرطة، فشدت أزرها وابتدأت الحروب الكبرى التي سميت الحروب البلوبونيزية.

وظهرت فيها أمة اليونان كأنها أمة تنتحر، واستمرت من سنة ٤٣١ حتى سنة ٤٠٤ ق. م وانتهت بانحلال الإمبراطورية الأثينية.

الحرب وموت بركليز سنة ٤٢٩ ق. م

الدور الأول:

حشدت إسبرطة وحلفاءها طيبة وقرنثة جيوشها وأغارت على أثينا فأمر بركليز جميع المقيمين خارجها أن يلتجئوا إليها، فحملوا كل متاعهم ودخلوا المدينة، وانبثوا في أنحائها حتى ضاقت بهم المعابد والمساكن. فلما زحف الجيش الإسبرطي وجد نفسه وسط خراب وصحراء مقفرة وأمام أسوار شاهقة منيعة، وفي أثناء ذلك كان القواد الأثينيون يخرجون بأساطيلهم العظيمة ويحرزون نصرًا بحريًا على أعدائهم ويستولون على سفنهم. وقد كان من سوء حظ الأثينيين أن انتشر الوباء بينهم بسبب ازدحامهم، فحصد في أرواحهم ولم يرحم بركليز رجل الساعة في أثينا في وقت ما كان أحوج الاثنين فيه إليه. تركت أثينا بعد موته بدون حكومة تصلح لإدارة الأعمال وطمع رؤساء الأحزاب في مركزه وظهر جماعات من المتاجرين بالوطنية يتملقون الشعب ويرونه الأداة لمجدهم، تعوزهم حكمة بركليز ورويته. وقد أطلق على هؤلاء "الديماجوجيين" وشغلوا الشعب في حروب بعيدة، ونخص بالذكر منهم كليون والسبياديس فإنهم أثاروا في رؤس الشعب حمية الحرب وقاوموا أنصار السلم مثل مقياس ما استطاعوا.

ثورة لسبوس وكركيرا سنة ٤٢٨ – ٤٢٧ ق . م

حدث أن ثارت جزيرة لسبوس على أثينا ولم تستطع إسبرطة مديد المساعدة لها فحاصرتها أثينا حصارًا عنيفًا وقاتلتهم حتى أذعنوا، وأعملت السيف في رقابهم بعد ذلك. وفي كركيرا كان الهول أشد فإن الأحزاب السياسية بعد أن اقتتلت نحو السنتين استنجد الديمقراطيون بأثينا فأخذت بيدهم، وقامت بنصرتهم وسلمتهم زمام الأحكام فأعملوا الذبح في مخالفيهم.

بقيت بعد ذلك الحروب بين إسبرطة وأثينا سجالًا إلى أن رجحت كفة أثينا ونزل الأثينيون بيلوس سنة ٤٢٦ ودعوا الهيلوت (المستعبدين لإسبرطة إلى الحرية. وكان قائد الأسطول الأثيني ديموستين فارتاع أهل إسبرطة وطلبوا الصلح، فتشدد كليون في الشروط

فلم يقبل الإسبرطيون، واستمرت الحرب وأرسل كليون إلى بيلوس لمعاونة ديمستين وأحرز الاثنان انتصاراً سنة ٤٢٥ ق. م وعادوا بأسرى كثيرين من جزيرة اسفكتاريا، فتقوى ساعد حزب الحرب على حزب السلام أو حزب المحافظين في أثينا وعلى رأسه نقياس.

حدثت بعد ذلك مناوشات انتهت بقتل كليون وقتل ملك إسبرطة وبموتهما تعادلت كفتا الحرب وفاز أنصار السلم. وقد أوفد الأثينيون نقياس إلى إسبرطة للمفاوضة في أمر الصلح وفي سنة ٤٢١ ق. م استطاع نقياس أن يعقد الصلح الذي سمى باسمه.

وتهادن مع إسبرطة خمسين سنة، وردت كل من إسبرطة وأثينا ما فتحت من البلدان ومن أسرته من الرجال، وبذلك عادتا إلى النقطة التي ابتدأتا منها بعد حرب دامت عشر سنوات شلت فيها حركة التجارة وضاعت فيها الأموال.

نقض الصلح وظهور السبياديس سنة ٤١٩ – ٤١٥ ق. م

ظهر في أثينا بعد صلح نقياس زعيم ديما جوجي جديد هو السيباديس عرف بجرأة كانت تصل به إلى حد الطيش، وقد استطاع بفصاحته أن يقود الشعب ويحمله على تنفيذ مآربه، وقد رأى أن الحرب وحده هو سبيله إلى المجد والزعامة، وقد لاحت له فرصة الحرب مع إسبرطة عندما علم ميل ولاية أرجوس بالتحالف ضدها، فحطب ودها وعقد معها محالفة دفاعية هجومية، فاستاءت إسبرطة وحاربت أرجوس وأقامت فيها حكومة أرستقراطية تعاقدت مع إسبرطة وألغت تعاقدها مع أثينا فاعتبر السبياديس هذا العمل من جانب إسبرطة نقضًا للصلح وهاجم جزيرة بيلوس ونكل بأهلها.

حملة صقلية سنة ٤١٥ ق. م

رغب السيباديس الأثينيين في الحملة على الصقلية بحجة مساعدة بعض المدن ضد سيراقوسة أقوى مدن صقلية وزعيمة المستعمرات اليونانية فيها. وعارضه نقياس ورأى الخطر كل الخطر في الحملة، ولكن الأثينيين لم يأخذوا برأيه وأعدت أثينا لتلك الحملة من العدد والرجال ما لم تره من قبل مدينة من مدن اليونان، وكان على رأسها السبياديس ونقياس، وما كادت الحملة تسير حتى استدعى السبياديس لمحاكمته فانقلب خائنًا وانحاز

إلى إسبرطة، ودلها على مكان الضعف في أثينا.

أما نقياس فقد انفرد بالقيادة وتراخى في الحملة على سيراقوسة، وجاء المدد من إسبرطة وانتصر الجيش السيراقوسي والإسبرطي على جيوش أثينا، وتغيرت مجرى الأحوال، وأصبح الجيش محصورًا بعد أن كان محاصرًا فانخلع قلب نقياس وطير الخبر إلى أثينا فأمدته بجيش عظيم تحت قيادة ديمستين بطل بيلوس، وحمل على سيراقوسه حملة فقد فيها ألفي رجل وأعقب ذلك انهزام شديد في وقعه بحرية فقدوا فيها أسطولهم مصدر قوتهم وموضع آمالهم، ولم يبق أمامهم للنجاة إلا سبيل الهرب. فانهزمت الحملة شر هزيمة وانتصر أهل سيراقوسة سنة ٤١٣ ق. م انتصارًا حاسمًا وقبضوا على القائدين وأعدموهما. وأخفقت الحملة إخفاقًا تامًا.

الدور الأخير من الحرب ٤١٢ – ٤٠٤ ق. م

تشجع الإسبرطيون واتخذوا خطة الهجوم وخطبوا ود الفرس وتحالفوا معهم، وحرضوا مدن آسيا الصغرى على الخروج ضد أثينا، ولكن الأثينيين بذلوا جهدهم في وقف تلك المدن عند حدها. حدث في ذلك الوقت أن طرد الإسبرطيون السبياديس لسوء مسلكه معهم، فقد فارس وأقنعها بفائدة تحالفها مع أثينا ونقضها التحالف مع إسبرطة، وكان بجزيرة ساموس جيش أثيني بذل له السبياديس كثيرًا من مال الفرس ترغيبًا له في السير تحت أمرته، فقاده وانتصر به على الإسبرطيين في وقعتين بحريتين سنة ٤١١ ق. م ووطد سلطان أثينا في جهات كثيرة ودخل أثينا دخول الظافر سنة ٤٠٧ ق. م فأعادت إليه الحكومة أملاكه وأمواله وصرح له أن يعمل على إيجاد الاتحاد الإغريقي، ولما لم يستطع إنجاز ما تكفل بع اعتزل العمل ولجأ إلى معقل خارج بلاده حتى أغتاله الفرس.

فقدت أثينا بموته خير قائد ولكنهم واصلوا الحرب، واشتبكوا مع الإسبرطيين في معركة أوس بوتامي، وفيها باغتهم القائد الإسبرطي ليساندر وحال دون وصول الغلال إلى أثينا فقاتل الأثينيون حتى أرغمهم الجوع على التسليم وبذلك انتهى أزهى عصور أثينا سنة ٤٠٤ ق. م.

عقد الصلح سنة ٤٠٤ ق. م

أرسلت أثينا إلى إسبرطة تطلب الصلح فعقدت الأخيرة مؤتمرًا من حلفائها، وأخيرًا قرروا:

(١) هدم حصون أثينا وقلاعها وتسلم سفنها الحربية.

(٢) التنازل عن الأملاك الخارجية.

(٣) التصريح للأشراف المنفيين بالرجوع إليها ثانيًا، وتسليم ليساندر المدينة وأحرقها وسط نغمات الموسيقى.

ولم يكتف بهذه الإهانة بل تدخل في شئون الحكومة، وشد أزر الحزب الأرستقراطي وأقام من أنصاره ثلاثين وجلًا حكامًا على المدينة، طغوا وبغوا وجردوا الهياكل من أثاثها وصادروا الأغنياء في أموالهم، ثم أعيدت الحكومة الديموقراطية ثانيًا بعد انهزام الثلاثين جبارًا، ولكنها كانت ديمقراطية شوهاء.

الكفاح الأخير بين الولايات الإغريقية:

زعامة إسبرطة

قبلت أثينا مرغمة الانضمام إلى الاتحاد الإسبرطي، وأصبحت إسبرطة زعيمة الولايات الإغريقية، فوزعت جنودها على حصون البلاد واحتلتها، وأخضعت الجمهوريات الصغيرة بكل عنف واستبداد، وأقامت حكومات متعددة جعلت السلطة فيها لعدد صغير من الأرستقراطيين وأيدتهم بقوتها (الحكومات الأوليجاركية)، وقامت بين الأرستقراطيين والديمقراطيين منازعات كان من نتيجتها أن أصبح الكثيرون من أهل البلاد الإغريقية وخاصة أثينا يعيشون خارجها في منفاهم يعملون على إسقاط من كان سببًا في نفيهم.

سقوط إسبرطة وزعامة طيبة

كره الإغريق حكومة إسبرطة وتحالفت أثينا وطيبة على إسقاط إسبرطة.

وانضمت إليها كورنثة وأرغوس، واتخذوا من اشتغالها بمحاربة الفرس (٣٨٧ –

٢٩٥ ق. م) فرصة وثاروا عليها، وقتل في هذه الثورة ليساندر إلا أن إسبرطة صالحت الفرس وعملًا معًا على إخضاع أثينا ثانيًا فخضعت — وملا لم تستطع إسبرطة أن تسير في البلاد سيرة العدل وأنصاف عد الناس زعامتها غير مشروعة، وكان أول الخارجين عليها الديمقراطيون من أهل طيبة — قام هؤلاء وقلبوا الهيئة الحاكمة وأجبروا الحامية على التسليم، وفي أثناء ذلك جددت أثينا أسطولها وهاجمت في إسبرطة وهزمتها، فأصبح موقف إسبرطة حرجًا وطلبت الصلح، فعقد مؤتمر في إسبرطة حضره مندوبو جميع الولايات الإغريقية، وعنى الجميع بصالح البلاد العام إلا أن الصلح لم يتم وظهر القائد الشهير الطبي إيبامنونداس وهزم الإسبرطيين في موقعة فاصلة سنة ٣٧١ ق. م، فسقطت عظمة إسبرطة وآلت الزعامة إلى طيبة، إلا أن هذه الزعامة كانت قائمة على وجود هذا القائد فلما قتل في معركة بحرية (٣٦٢) ق. م زالت قوة طيبة برًا وبحرًا.

مغزى ذلك كله أن أثينا ثم إسبرطة ثم طيبة عجزت عن تحويل الإغريق إلى أمة متحدة، وأن الإغريق على تفوقهم العقلي لم يعرفوا كيف يوحدون صفوفهم حتى عندما دهمهم المقدونيون، وإن عظمتهم تتجلى في فنونهم وآدابهم وفلسفتهم، ولا تتجلى في سياستهم فقد أظهروا فيها قصر نظر وتغلبًا للعواطف على مصلحة الجنس الإغريقي كله.

١ – نتائج هذه الحروب وانحلال الديمقراطية

كانت هذه الحروب مبدأ اضمحلال الديمقراطية إذ أنها كانت سببًا في توزيع القوى وتهديم بناء الدولة، وأول ما جرته حب الزعامة والمجد واسترسال الزعماء في تمليق الشعب وإرضائه وجعل الكلمة العليا للديماجوجية، وقد ساعدت على تفشي روح الحزبية التي أدت إلى الانقسام.

أما الفضائل فقد فقدت قيمتها، فارتكبت أفظع الجرائم ولم يحتكم مقترفوها إلى قانون غير قانون البغي والتشفي، وأصبح سوء الظن رائد الجميع، وفسدت النفوس حتى كان لا يمكن التعويل على أصدق الوعود وأغلظ الإيمان، كما فسدت الوطنية أيضًا وانحلت الأخلاق وأصبح من الضروري العمل من جديد على إصلاح المعوج من الخلق.

٢ – فوضى المال

ساءت الأحوال المالية كثيرًا منذ أن خصص بركليز أجورًا ضخمًا للمحلفين والموظفين وتوزيع الأموال ذات اليمين وذات الشمال على الشعب قد زادت الحرب هذه الفوضى سوءًا، ففسدت طريقة جمع الضرائب في أثنائه واستنزف هذه الحرب الخزانة، وكان من الضروري للتخلص من هذه الحال النظر في أصلح الطرق لجمع المال، فأدى هذا البحث إلى دراسة مالية الأمة دراسة منتظمة، فأخذت الأعمال المالية صبغة فنية.

واشتغل أهل أثينا بالصناعة والتجارة كي يستعيدوا ما كان لهم من مقام في عالم الصناعة والتجارة، وأدى بهم التفكير في شؤونهم الخاصة إلى تأليف شركات اقتصادية فأتت بأجل الخدمات للصناعة والتجارة.

وقد أنشئوا مصرفًا ماليًا (بنكًا) فكان الأول من نوعه في العالم وأثمرت فيه الأموال، وأصبحت أثينا بفضل مجهودات أهلها المركز المالي للعالم القديم (شأن لندن وأوشنجتون) فأثرى اليونان وبدأ الأغنياء يعيشون عيشة الترف داخل بيوتهم فزينوها بالنقوش وفرشوها بالبسط والحرير فكان هذا تطورًا جديدًا في حالتهم الاجتماعية.

(٣) الارتزاق من الجندية

إن اهتمام بشئونهم الخاصة وإهمالهم المصلحة العامة كان من أظهر نتائج الحروب. وقد دعاهم هذا الخلق الجديد إلى اتخاذ الجندية مهنة للارتزاق فخرج الكثيرون يعرضون قواهم الحربية ومهاراتهم العسكرية على الأمم القريبة منهم كمصر وآسيا الصغرى وفارس، وبهذا تفرقت قوتهم، وقد امتاز بعضهم بما أظهروه من المهارة النادرة وتخص بالذكر منهم.

اجزونوزفون عند قورش ملك فارس. كتب هذا القائد رسالة في الحرب في أيامه الأخيرة واسمها أناباسيس أو الارتقاء، وتعتبر هذه الرسالة أهم ما كتب في التاريخ القديم كبداءة للفنون الحربية، ومنها عرف الإغريق طرق تهديم الحصون وتفضيل الرماح على السهام، واستخدام السفن الحربية الكبيرة ذات خمس السطوح.

حضارة الإغريق

من وفاة بركليز حتى سقوط الإغريقية.

فن البناء والنحت والنقس

اقتصر في زمن الحرب على بناء الحصون والسفن، ولما وضعت الحرب أوزارها انتحى الإغريق ناحية جديدة في الفن، وأخذ النحاتون عن قدماء المصريين تزيين أعلى الأعمدة بنقش الأزهار وأوراق النخيل، وأثار ذلك البناء لا تزال في أثينا وقورنته حيث تعرف هذه الأعمدة باسمها، وقد ظهر تطور جديد في فن نحت التماثيل فأصبحت رمزًا صادقًا للحياة تمثل الضعف الإنساني والعواطف البشرية والحياة بما فيها من سرور أو حزن، وقد كانت تماثيل فدياس ومعاصريه لا تمثل إلا ناحية خاصة من الحياة وهي العظمة، ومن الذين برعوا في هذا الضرب الجديد من النحت براكستليز وسكوباس.

أما النقاشون فقد اقتبسوا عن المصريين القدماء نقش الصور على ألواح خشبية وتلوينها بألوان زاهية تتمثل فيها حسن الذوق، وأقبل الناس على شرائها ثم برع الرسامون أمثال أبولو دوراس في طريقة التظليل، فزادوا بذلك من جمال الرسم وقربوه إلى الحقيقة، وأبدعت أيديهم مناظر الحوادث القديمة وآثار تلط الرسوم كثيرة بمدينة بومبي.

الديانة والحالة العقلية:

تقدمت الحالة العقلية في بلاد اليونان تقدمًا كبيرًا، وكانت عقليتهم في مبدأ أمرهم، تجري مع الخيال، وتبتدع الأساطير شعرًا ونثرًا لتفسير مظاهر الكون المختلفة. أن هذه العقلية هب التي جعلتهم يؤمنون في القديم بعدد من الآلهة لا يمتازون عن بني الإنسان إلا في درجة الكمال – استيقظت هذه العقلية قبل الحروب البلوبونزية وجدت في تعريف حقيقة هذا العالم وعلته الأولى، فنشأ نوع من التفكير يسمى الفلسفة الطبيعية، وكانت أهم ما عنيت به تلك الفلسفة مسائل الطبيعة والفلك والجغرافيا، ثم تنوعت هذه الفلسفة في مظاهر مختلفة وآلت في النهاية إلى إنكار حقائق الأشياء على يد طائفة من

السفسطائيين نزعوا من صدور اليونان إيمانهم بآلهة أولمبوس وحملوهم على الاستهانة بأصول ديانتهم القديمة ونبذ عاداتهم، ولكنها لم تود بهم إلى عقيدة ثابتة، وقد ترتب على إنكار السفسطائيين لحقائق الأشياء نتائج سيئة بعضها ديني وبعضها اجتماعي وخلقي، فحصلت فوضى في الأخلاق وتعددت الآراء الدينية وانحلت الرابطة الاجتماعية، وذهب كل فريق في تفسير الفضيلة والرذيلة والصواب والخطأ والخير والشر مذهبًا شخصيًا، يناسب هواه ويتفق مع مآربه، وكان من الضروري لصد هذا التيار الجارف أن يتعرض فريق من الناس للبحث في العقل الإنساني ومدى قوته التي يدرك بها الأشياء فحولت الفلسفة من الطبيعة إلى الإنسان وقواه العقلية، وزعماء هذه الفلسفة سقراط وأفلاطون.

أما سقراط (٤٧٠ – ٢٩٩ ق. م) فقد شغل بالحوار عن كل شيء، وقد تناول السياسة العامة والشئون الاقتصادية، والمبادئ الخلقية ونظام الحكومة، وأساليب التربية، ولذله الحوار فيها كلها – على أن السر في عظمة سقراط هو نبوغ تلاميذه أمثال أفلاطون الذين دونوا تاريخ حياته في سجل الخلود، ورووا أحاديث، ودبجوا محاوراته بأسلوب من البيان قل أن يجاريهم فيه أحد – نشر أفلاطون (٤٢٧ – ٣٤٧ ق. م) تعاليم أستاذه وقد شغله انحطاط الديمقراطية في زمنه، فتناول طيعة الدولة ونادا بمبدأ الشيوعية في كتابه الشهير (الجمهورية) وعالج المسائل الاقتصادية والسياسية في كتابيه الآخرين (القوانين والسياسة) وتعد هذه الكتب من أنفس المصادر القديمة في علم نظام الحكومات.

انتقال العلوم والآداب من الغرب إلى الشرق

لما تُوفي الإسكندر سنة ٣٢٣ ق. م انقسم إمبراطوريته العظيمة فكانت من غضب البطالسة، وكان ملوك البطالسة يعنون بترقية العلوم وأحياء الآداب، فانشئوا دار كتب عظيمة بالإسكندرية ومدرسة جامعة كبرى وأسسوا المراصد والحدائق الخ. وقد ذاع صيت الإسكندرية بمعاهدها العلمية حتى صارت كعبلة للعلوم، يؤمها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم المتمدين، وقد كان بطليموس الأول نفسه يذهب إلى البلاد الإغريقية ليجمع أعاظم الفلاسفة والعلماء من الإغريق ليذهبوا معه إلى الإسكندرية يدرسون بمدارسها

ويشتغلون بالبحث والتأليف بمساعدة دار الكتب والتحف، ومن بين هؤلاء عدد كبير حفظ التاريخ ذكرهم، منهم إقليدس صاحب كتاب الأصول في الهندسة وايراتسين وبطليموس الجغرافيان وهيارخس الخ. على يد هؤلاء انتقلت المدينة من الغرب إلى الشرق، وظلت الإسكندرية أمينة على التقاليد والفلسفة الإغريقية إلى أن دخلت مصر في حوزة الرومان سنة ٣١ ق. م بعد موقعة اكتيوم فانتقلت الحضارة إلى رومية التي زادت من الحضارة قليلًا.

ولما أن انشطرت الدولة الرومانية إلى شطرين شرقي ومقرها القسطنطينية وغربي ومقره رومة وجد طلاب الثقافة اليونانية حصنًا أمينًا في القسطنطينية خصوصًا بعد أن انتهت الجولة الرومانية في الغرب سنة ٤٧٦ م على أيدي المتبربرين وبقاء القسطنطينية بعد ذلك بنحو ١٠٠٠ سنة تنتشر الثقافة اليونانية في العالم. بقيت القسطنطينية هذه المدة وهي ميدان لأبحاث فلاسفة الإغريق وتأليفهم حتى ظهر الفرس وهددوها، وأخذوا أنطاكية، واستمر الكفاح بين الدولتين حتى خربت الحرب آسيا الصغرى التي كانت ميدان نضال بين دولتين إحداهما تمثل المسيحية والأخرى تمثل الديانة القديمة، ولما أن ظهر العرب المسلمون بعد ذلك قضوا على دولة الفرس ووجهوا جهودهم إلى دولة الرومان، فانتزعوا منها فلسطين وسورية ومصر، وهددوا القسطنطينية مرارًا. فانتقلت الحضارة الإغريقية بذلك إلى أيدي العرب إلا أن حضارة العرب كانت في أول أمرها عربية دينية مستمدة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وبقيت هكذا قائمة في عصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، وفي أواخر هذه الدولة وأوائل الدولة العباسية بعد أن استتب أمر الدين وصنفت كتب الدين واللغة بدأ العرب يهتمون بالعلوم الدنيوية، وقد ساعدهم على هذا الاهتمام:

(١) اختلاطهم بالأعاجم في الأمصار التي فتحوها، وبالخص بطائفة النسطوريين وهم فريق من النصارى فروا من القسطنطينية أيام الاضطهاد، وسكنوا الشام والعراق وأسسوا لهم مدرسة الطب في أدسا بالعراق، تعلم فيها العرب على أيدهم صناعة

الطب والعقاقير.

(٢) اختلاطهم بطوائف يونانية أخرى فرت إلى حران وبعض بقاع آسيا نفاهم الإمبراطور جستنيان من أثينا، فأخذوا عنهم الفلسفة والهندسة والرياضة.

(٣) اهتمام الخلفاء وغرامهم بالعلوم العصرية.

وقد ترتب على هذا الاهتمام أن بدأ دور الترجمة والنقل في عصر أبي جعفر المنصور الذي كان عظيم الشغف بالطب والنجوم والهندسة، ولما جاء المأمون اقتدى المنصور وأرسل البعوث إلى بلاد الإغريق فتبحروا في اللغة اليونانية واستمدوا من كتب أثينا والإسكندرية أكثر من ٢٠٠ كتاب في الحساب والهندسة والحكمة والتنجيم الخ.

وقد تسارع الناس في زمن المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة الذي أساسه تطبيق النصوص على الأحكام العقلية، فترجمت كتب المنطق والفلسفة لمعاضدة هؤلاء المعتزلة على إقامة الحجة وترتيب الأدلة.

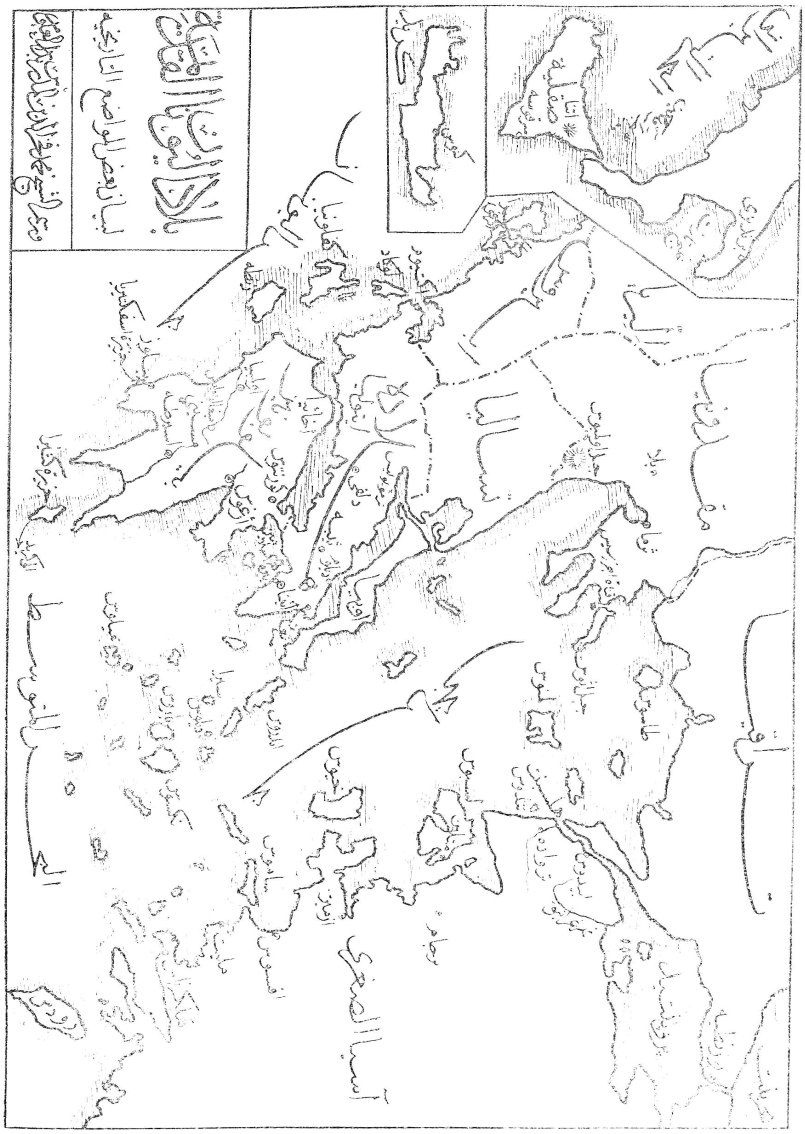
وقد أمر المأمون بنقلها إذ أنه كان يميل بطبيعته لهذا المذهب، وبهذه المناسبة يقول ابن خلدون "إن العرب أخذوا المنطق وأصوله عن اليونان ولم يزيدوا فيه على الأصول التي وضعها له أرسطو".

(٢)دور التحقيق والتأليف.

كان اشتغال العرب بهذه العلوم الدخيلة لا يتعدى حد النظر والشرح والتلخيص، ثم أخذوا بعد ذلك يمحصون نظرياتهم ويحققون مسائلها فدخلوا بذلك في طور التأليف والاختراع، ونبع منهم عدد عظيم من كبار الفلاسفة والمؤرخين والشراح والأطباء.

ومن هذا تعلم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق، لأنهم أمدوا العلم بمنتجات فلاسفتهم وعلماءهم وكتابهم ومفكريهم كما أمدوه بما وقفوا عليه من زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان، فإذا ما قلنا أن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ومنتجات العقول اليونانية فكأننا نقول ضمنا أنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة،

فاستفادوا بتلك العلوم والمعارف فائدة كبرى، وعنهم أخذ الغربيون في أبان نهضتهم العلمية في القرون الوسطى فكأنهم كانوا حلقة الاتصال بين الحضارة القديمة وثقافتها وبين الحضارة في العصر الحديث.



الفهرس